

مكتبة 1305

بادي

كلارك

ها

ها



رواية

أدب أيرلندي حديث

رودي دوويل

ترجمة: محمد أ. جمال



المحررة

بادي كلارك

هاهاها

مكتبة | 1305

عنوان الكتاب: بادي كلارك ها ها ها
Paddy Clarke HA HA HA
المؤلف: رودى دويل
ترجمة: محمد أ. جمال
مراجعة لغوية: شيرين يونس

19 8 23

المحروسة

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

-  mahrousaeg
-  almahrosacenter
-  almahrosacenter
-  www.mahrousaeg.com
-  info@mahrousaeg.com
-  mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠٢٢ / ٢٧٣١٨
الترقيم الدولي: 978-948-313-947-6

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة

2023

Copyright © 1993 by Roddy Doyle

This book was published with the support of
Literature Ireland



Promoting and Translating Irish Writing

مكتبة | 1305

بادي كلارك
هاهاها

رودي دويل

ترجمة
محمد أ. جمال

المحررة

الطبعة الأولى 2023

مكتبة
t.me/soramnqraa



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

دويل، رودى 1958 -.....

بادى كلارك ها ها ها/ تأليف: رودى دويل؛ ترجمة/ محمد أ. جمال-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2022

375ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 6-947-313-977-978

1 - القصص الايرلندية

أ- جمال، محمد أ (مترجم)

ب- العنوان

891.623

رقم الإيداع 2022/27318

مكتبة

t.me/soramnqraa

مقدمة المترجم

عندما عُرضت عليّ ترجمة الرواية التي هي بين أيديكم الآن (أو على شاشاتكم، أو تسمعونها، أو ربما تقرأونها في الواقع الافتراضي بالغطس بين السطور مثلاً بعد سنوات من الآن)، لم أكن أعرف مسبقاً شيئاً عنها وعن مؤلفها: الكاتب الأيرلندي الرائع رودى دويل. بعد قراءة أولية متعجلة وقراءة مراجعات نقدية متعددة، تشجعت على قبول ترجمتها لأسبابٍ عدة، منها أنها رواية حاصلة على أهم جائزة أدبية دولية (جائزة البوكر عام 1993، وهو نفس العام الذي نُشرت فيه)، وأنها تتعرض لمساحاتٍ من الأدب واللغة لم أخضها من قبل، وتقدّم تفاصيل عالم مشوق (دبلن، العاصمة الأيرلندية في ستينيات القرن العشرين) مثير لاهتمامي، والدافع الأكبر كان أني وجدت في ترجمتها تحدياً عملياً جديداً أحب أن أخوضه.

بعد أربعة أشهر، وبالتحديد قبل نصف ساعة من كتابة هذه المقدمة، أنهيتُ ترجمة الرواية وأنا لا أكاد أفعل، وأنا أودُّ لو أنها

دامت لضعفي عدد الصفحات أو أكثر. لم تعد الرواية بالنسبة إليّ تحديًا عمليًا جديدًا، بل تحوّل بطلها، بادي (أو باتريك) كلارك، إلى صديقٍ حميمٍ يؤسّفي فراقه، هو وسندباد وليام وأيدان وباقي أفراد العصابة، حتى كيفين. سأفتقد شوارع باريتاون وضواحي دبلن الجديدة التي -بعد أن رأيتها بعين بادي ذي التسعة أعوام- صارت مصدر نوستالجيا بالنسبة إليّ، مع أنني لم أرها في الواقع قط. تحوّلت الرواية من تحدٍّ عملي لي كمتّرجم، إلى رواية بديعة تمّثّلت لو أنني كنتُ كاتبها كمؤلفٍ.

يفترض بي أن أقدم مقدمة أدبية نقدية رصينة عن الرواية ومؤلفها، أو أصمت وأدع الرواية تبدأ على الفور، لكنني لا أستطيع منع نفسي من الإشارة إلى تورطي العاطفي مع الرواية، وتقديمها كقارئ متحمس قبل أن أكون مترجم أو كاتب.

لا تقوم روايتنا هنا على بنية روائية تقليدية، لن تجدوا حبكة ولا تسلسلاً زمنيًا واضحًا، ولا سعيًا للشخصيات في النقطة أ للوصول إلى النقطة ب ومواجهتهم للعقبات في سبيل ذلك. ما ستجدونه هنا هو سرد حر على لسان الراوي باتريك كلارك ذي الأعوام التسعة، يحكي من خلاله ما يفكر فيه لحظيًا، سواء كان هذا ما يدور في ذهنه من خواطر حرة بشأن كتبٍ قرأها أو أفلام وبرامج تليفزيونية شاهدها، أو حكي لمغامراته مع أصدقائه/عصابته في أنحاء ضاحية باريتاون، أو أحداث اليوم الدراسي في المدرسة مع مستر هينيسي/هينو، أو أحداث يومه مع أمه وأبيه وشقيقه، يحكي كلّ هذا كيفما اتفق، من أي نقطة ترد على ذهنه أولاً بغض النظر عن موقعها في التسلسل المنطقي للحكاية.

ومع أن الروايات التي تتسم بالتداعي الحر لأفكار الراوي تتعامل عادة مع دواخله أكثر من أحداث عالمه الخارجي، بادي ذو الأعوام التسعة نادرًا ما يتأمّل ما بداخله من مشاعر أو أفكار عميقة، بل

يتفاعل حصريًا تقريبًا مع المحفزات الخارجية. قد يعيب هذا بعض الروايات لكنه هنا ميزة رئيسية، فبادي لا يزال في تلك المرحلة التي لا يتصل فيها الطفل بعد مع عالمه الداخلي، وإن كان سيبدأ في ذلك قرب نهاية الكتاب لأسبابٍ ستتضح في وقتها المناسب.

هذا السرد الحر الذي يبدو في ظاهره غير مترابطٍ أو متسلسلٍ -وإن كان بسلاسة وخفة الماء الجاري- قد يصيب القارئ المتعجل بإحباطٍ أو مللٍ يدفعه إلى ترك الكتاب، ربما كنت سأقع أنا نفسي في هذا الفخ لو كنتُ اكتفيت بالقراءة المتعجلة الأولى، لكن التمهّل الذي قرأت به الكتاب مجددًا جعلني أستكشف بالتدريج، وبمتعة غير مسبوقة، التفاصيل الحقيقية للعالم الذي يدور في خلفية نظرة بادي كلارك المحدودة بحكم سنّه.

قرأتُ من قبل روايات غير قليلة يرويها أطفالٌ، لكن أعتقد أن هذه الرواية هي المرة الأولى التي أقرأ فيها صوت طفولة حقيقيًا، لا ذلك الصوت الملائكي الحكيم ببراءة الذي يحب الكُتّاب عادة استخدامه في الروايات لإبراز التناقضات في عالم الكبار. رواية (بادي كلارك ها ها ها) تكاد تكون "بورتريه" حقيقيًا واقعيًا مذهلاً لعالم الطفولة، طفولة الذكور بالأخص، يسجل بأدق شكل رأيتُه حتى الآن الحالة العقلية والشعورية لطفل بين التاسعة والعاشر من عمره، ويرصد تطوره (ونضجه المبكر لأوانه قرب نهاية الكتاب) بدقة وحقاقة وخفة مذهلين، بالنسبة إليّ على الأقل.

لا تدع هذا يدفعك إلى التفكير فيها على أنها رواية رقيقة عن براءة الطفولة، براءة الطفولة موجودة هنا بلا شك، ويشيع فيها أيضًا حسٌّ فكاهي لطيفٌ سيستدعي ابتسامتك أغلب الوقت، لكن الكثير من جوانب الطفولة التي لا يحب الناس الاعتراف بأنها حقيقية على الملأ موجودة هنا أيضًا. فهناك العنف الشديد والتنمر بأشكاله التي يراها الأطفال في ساحات المدرسة مجرد لعبٍ، على سبيل المثال سترى

تلك اللحظة التي قرر فيها الأصدقاء بلا تخطيط مسبق التكاليف على واحدٍ منهم وصب محتوى علبة مسحوق غسيل في فمه، وفي النهاية كان على الصبي الذي تعرّض لهذا أن يتظاهر أنه استمتع بهذه "اللعبة" أيضًا، لأنه لو أبدى انزعاجه فلن يعود مُرحبًا به في الجماعة. هناك صراعات السلطة والقيادة وفرض الشخصية، وكل دراما حياة الكبار، هناك استكشاف لضواحي دبلن التي تبنيها "الشركة"، هناك العلاقة الأسرية المرتبكة بين والدي بادي ومراقبته لهما، وبحته عن طريقة للتحكُّم في العالم حوله ليعود إلى مساره "العادي" في الوقت الذي ينهار فيه هذا "العادي" لأسبابٍ لا يفهمها. غير أن الفارق الأساسي هو أن من يسرد كل هذا هو طفل، بصوت أقرب إلى الطفولة الحقيقية منها إلى كاتب روائي يفتعل صوت الطفولة، لا تلفت نظره المفارقات الدرامية التي نعدها نحن الناضجين هي الأشياء المهمة، بل ينصبُّ اهتمامه على الأشياء التي يعدها أساسية، ويدع المجال للقارئ المتهلّل كي يستكشف ويستوعب كل تلك التفاصيل والطبقات والصراعات الدائرة في الخلفية.

وربما أهم ما في الرواية هو علاقة بادي كلارك بأسرته، أبويه وشقيقه الأصغر، وعلاقة الأبوين ببعضهما، أحبُّ الحديث عن هذه العلاقة باستفاضة، لكن استكشافها من دون حرق في خلفية حكايات بادي أجمل وأعمق تأثيرًا.

من أجمل ما في الفن عمومًا، وفنون الرواية والحكي خصوصًا، تسليط الضوء على المشترك في التجربة الإنسانية رغم اختلاف الزمان والمكان والظروف الحياتية، فرغم تفرد تجربة كل إنسان، يظل هناك قدرٌ غير قليل من الجوانب المشتركة التي لا ندرك وجودها عادة إلا عندما يأتي فنٌ جميلٌ ويشير إليها. وهذا ما تحقّق معي دون قصدٍ وأنا أقرأ أولاً ثم أترجم لاحقًا حكاية بادي. كل هذه الآراء والرؤى والمشاعر الطفولية، رغم الاختلاف الثقافي والزمني العميق، وجدتُ

صدي لأغلب تفاصيلها في طفولتي الشخصية، في شوارع مدينتي الخلفية وفي فصول المدارس وفي العلاقات مع الأصدقاء القدامى، درجة تشابه مدهشة أربكتني إلى حدٍ بعيدٍ.

لاحظتُ انقسامًا طريفًا بين مراجعات القراء للرواية على الإنترنت، فهناك فريقٌ يرى (مثلي) أنها تصويرٌ قريبٌ إلى حدٍ كبيرٍ من واقع حياة الصبية الحقيقية، وهناك فريق آخر يرى فيها مبالغة وحشية، وأن بادي وعصابته نموذجٌ قاسٍ كابوسي غير حقيقي يندر وجوده في ساحات لعب الأولاد (لأن براءة الأطفال لا يمكن أن تتضمن مثل هذه الأفعال القاسية، بالنسبة إليهم). طبعًا بما أني وجدت في نفسي تمهيدًا غير قليلٍ مع عالم الرواية، فأنا أميل إلى اعتبار أفراد الفريق الثاني من ذوي الحظوظ الطيبة الذين نشأوا في ظروفٍ اجتماعية مرفهة وبيئة حامية ذات رقابة على حياة الأطفال أغلب الوقت، ما يقلل من شيوع نموذج الطفولة التي تصورها هذه الرواية، لهذا لا يستطيعون استيعاب أن الرواية تصور طفولة عادية لا استثنائية. بالطبع أنا لا أفقه شيئًا في علوم النفس والاجتماع، وتفسيرى نابغٌ على الأرجح من انحيازي إلى كوني نشأت في بيئة لا تختلف كثيرًا عن بيئة بادي وأصحابه، وربما أمثالي من البشر هم الأقلية والآخرين محقون في رفضهم لهذا النموذج... أتمنى أن يكون هذا صحيحًا، فذلك سيكون من حسن حظ باقي البشر.

أما عن رودى دويل، مؤلف روايتنا هذه، فهو كاتب أيرلندي من مواليد عام 1958، نشأ في أسرة من الطبقة المتوسطة في إحدى ضواحي دبلن، عاصمة أيرلندا. درس الآداب في كلية دبلن، وعمل مدرسًا للجغرافيا واللغة الإنجليزية. نشر أول رواياته *The Commitments* عام 1987، ثم *The Snapper* في 1990 و *The Van* في 1991، ويشكلون معًا ثلاثية باريتاون، وكل رواية منهم ستتحول إلى فيلم ناجحٍ في وقتٍ لاحقٍ.

تحدث رودى عن كيف صارت زوجته حاملاً في بداية عام 1991، وذلك كان بعد أن أنهى روايته الثالثة، وأقلقه قول العديد من أصدقائه المازحين بأن عليه أن يعلن اعتزاله الكتابة، فالآن سيصبح أباً ولن تغدو الكتابة أكثر من هواية أو ذكرى، لكنه رغم هذا الخوف الوجودى، تمكّن من فعلها.

يحكي رودى:

"لا أتذكر في الواقع لماذا قررت أن أكتب عن طفلي في العاشرة من عمره، أو عن ولدٍ في عام 1968، لا أتذكر في الواقع أي قرارٍ كنت في العاشرة عام 1968، مثل بادي، وأذكر أنني كنت أفكر كثيراً في طفولتي، ربما لتفكيري في مستقبل ابني القادم. كان والداي لا يزالان يعيشان في البيت الذي نشأت فيه، المدرسة التي كنت أعمل فيها والبيوت المحيطة كانوا يقعون حيث كانت الحقول ومواقع البناء التي لعب فيها بادي كلارك قبلهم، كنت واعياً جداً بأن الماضي لا يزال قريباً مني، لكنني لا أذكر أنني اتخذت قراراً بعينه.

لكنني أعرف لماذا أصبح الولد راوياً للكتاب؛ أردت الابتعاد عن رواياتي الثلاث الأولى، أردت اكتشاف إن كان بداخلي نوعٌ آخر من الروايات، هكذا بدأت أكتب بصوت الشخص الأول. أذكر الآن، وكنت أتذكر على الدوام، عندما كنت أمشي في الشارع بصحبة صديقي بيتر. كنّا نحمل عصياً، ونخبط بها على البوابات والحوائط، ونغني "إنها تحبك... ييه، ييه، ييه" ⁽¹⁾. لم نعرف شيئاً عن البيتلز حينها، لكن الأغنية كانت تتردد في كل مكان. على كل حال، هذا ما فكرت فيه عندما كتبت أول جملتين: "كنّا نمشي في شارعنا، توقف كيفين عند إحدى البوابات وأخذ يضربها بعصاه". (وكيفين بالمناسبة لا يشبه بيتر بأي حالٍ من الأحوال، بيتر شخصٌ ألطف بكثيرٍ).

(1) She Loves You، أغنية شهيرة لفريق البيتلز The Beatles. [المترجم]

جمعت القصة من فتات الذاكرة؛ من رائحة مكاتب المدرسة، والعالم السري لدرج المكتب. جاءتني تلك الذكريات على هيئة شظايا صغيرة. كنت أختلس من الوقت ساعة كل ليلة، أو استراحة الغداء البالغة عشرين دقيقة في المدرسة، وفي الأغلب كنت أكتب جملة أو اثنتين فقط. لم تكن معي حبكة، ليس معي إلا بادي. بدأت أرى الأشياء عبر عينه، أيادي الكبار كبيرة ومذهلة وذات تجاعيد، والسلام المحمولة شيء رائع، والأشياء المقرفة جامدة، والناضجون في الغالب أغبياء. نزلت على ركبتي في مطبخ بيت والدي لأراه مثلما كنت أراه وأنا في العاشرة، صعدت إلى العلية واستعدت كتب ويليام القرصان والأب ويليام والمجذومين وتاريخ مصور للساكر [كرة القدم]، تلك الكتب أصبحت أجزاءً مهمة من الرواية.

"لم تكن لدي حبكة، ولم يقلقني ذلك. فكرت في فيلم Amarcord، وكيف أخذ الفيلم يتسكع على مدار عام، العام هو الحبكة، أي شيء أكثر صرامة من ذلك كان ليدمر الفيلم، الذي هو فيلمي المفضل، وعلى هذا الأساس تابعت الكتابة"⁽¹⁾.

لا يزال السيد دويل حيًا ومبدعًا، قدّم ولا يزال يقدم العديد من الروايات وكتب الأطفال والمسرحيات والسيناريوهات السينمائية والتليفزيونية. لكن تظل أشهر وربما أهم أعماله، هي رواية (بادي كلارك ها ها ها)، ذات الاسم المربك الذي سيثير تعجب وربما سخرية القراء وبائع الكتب والجالسين على المائدة المقابلة لكم في المقهى الذي تقرأون فيه الكتاب، لكنه -سنكتشف معًا في نهاية الكتاب- أنه اسم ذو شجون، واختيار جميل وحادق من المؤلف.

بقي أن أذكر سريعًا بعض خياراتي في ترجمة هذه الرواية.

(1) Writing Paddy Clarke Ha Ha Ha- Roddy Doyle - The Guardian -
29 أغسطس 2009.

[المترجم]. (<https://www.theguardian.com/books/2009/aug/29/paddy-clarke-ha-rod-doy-le>).

سنجد في مواضع عدة غياب الإشارة إلى الفاعل مباشرة، فمثلاً ينتقل بادي من الحديث عن شيء ما في إحدى الفقرات، ليقول في الفقرة التالية على حين غرة شيئاً مثل (He came back from work)، ويتابع الحكى بالإشارة إلى الفاعل بصيغة الغائب دون تحديد هويته. فضّلت في أغلب المواضع الاحتفاظ بهذا الشكل المبهم، لأنني وجدت في غياب تحديد الهوية هذا أسباباً درامية، منها مثلاً أن غياب الفاعل هذا يشير غالباً إلى شخصية حضورها عميق الأثر عند بادي إلى حد أن الإشارة إليها باسمها لا تعود لها أهمية، فالذي يعود من العمل هو دائماً وأبداً (بابا). وعندما يشير بادي إلى شخصية أنثى دون تسميتها، مثلاً (She said) أو (She did)، فالتأنيث يشير بلا شك إلى الحضور الحميمي لـ(ماما)، وهكذا. لذا بقليل من التركيز يمكنكم إدراك هوية الفاعل في تلك الجمل المبهمة ظاهرياً من السياق. لكن في أحيان قليلة أضطر إلى إضافة الفاعل من عندي، بابا أو ماما أو سندباد أو كيفين أو هينو، وذلك عندما أقابل جملاً مثل "He Came back" فقط، فتلك ستكون ترجمتها كلمة واحدة لا أكثر: "عاد"، وهو ما يفتقر إلى الحضور الغامر للضمير He في النص الأصلي، عندها أضطر إلى إضافة اسم الفاعل، فأترجمها "عاد بابا" أو أيّاً كان الفاعل، كي تصبح جملة تامة أصيلة الوقع في الأذن العربية.

نلاحظ طبعاً في الأمثلة المذكورة استخدام "بابا" و"ماما" بدلاً من "أبي" و"أمي"، ما قد يثير سخط أنصار التزام اللغة الفصحى الكاملة في الترجمات. لكن في أكثر من موضع وجدت أن التمسك بالعربية الفصحى سيقتل الروح الطفولية بالكامل، لذا اخترت اللجوء إلى اللهجة العامية -المصرية، لكوني مصرياً كما هو واضح- واستعارة بعض كلمات أو جمل قليلة. المثال الأبرز على هذا نجده في هتافات التنمر التي يرددها الأطفال ضد بعضهم في المدرسة، اخترت أن أحاول وضع هتافات مقابلة بالعامية التي يستخدمها الأطفال -أو

كانوا يستخدمونها على أيامي، فلا علم لي بما يردده الأطفال الآن- في
المواضع المشابهة لنقل الروح والمعنى المقصود.

وأخيراً، فيما يخص الهوامش، فهذا أكثر كتاب ترجمته حتى الآن
احتجت فيه إلى وضع هوامش. ألجأ إلى الكتابة في الهامش فقط لو كان
الجزء المشار إليه في المتن واضحاً بلا جهد للقارئ المستهدف الأصلي
(القارئ الأيرلندي خاصةً وغربي الثقافة عامةً في حالة هذه الرواية)،
لكنه يغيب عن القارئ المستهدف من الترجمة بسبب اختلاف الثقافة
والزمن. الرواية ممتلئة بالإشارات إلى مواضع مشابهة، وجدت أن عدم
الإشارة إلى المقصود منها في هامش سيؤدي إلى ضياع المعنى المقصود،
حينها أوضح المبهم باختصارٍ بما يكفي لإضفاء الوضوح على الترجمة
وبأقل قدر ممكن -أو هكذا أتمنى- من تعطيل سلاسة السرد. كانت
هناك مواضع أخرى قد تكون فيها إشارات غير مفهومة، أو معلومات
مغلوبة -عمدًا- يحكيها بادي في سرده، لكنني كنت أرى أن بعضها
قد يكون مبهمًا وغير واضح على القارئ الأصلي أيضًا، فأعتبر هذا
لبسًا مقصودًا من المؤلف وأمتنع عن محاولة تفسيره أو تصحيحه.
هناك فقط بعض الهوامش التي وضعها المؤلف ذاته، عندما وضع
في الحوار كلمات باللغة الأيرلندية (غالبًا في المدرسة، في أوامر المعلمين
للتلاميذ) وترجمها إلى الإنجليزية في الهامش. حافظت على ذلك بترك
الكلمات الأيرلندية دون ترجمة في المتن، وترجمت الكلمات الإنجليزية
في الهامش، دون أن أمهر تلك الهوامش بتوقيع [المترجم] الذي تنتهي
به الهوامش الأخرى.

هذا كل شيء.

تمنياتي بقراءة ممتعة.

محمد أ. جمال

أغسطس 2022



انضم إلى مكتبة

كنا نمشي في شارعنا. توقف كيفين عند إحدى البوابات وأخذ يضربها بعصاه، بوابة مسز كويجلي التي تنظر على الدوام من النافذة لكنها لا تفعل شيئاً قط.

- كويجلي.

- كويجلي.

- كويجلي كويجلي كويجلي!

انعطف ليام وأيدان في شارعهم المسدود، لم نقل شيئاً، ولم يقولوا شيئاً. أم ليام وأيدان ميتة، اسمها كان مسز أوكونيل.

قلت: سيكون هذا رائعاً، أليس كذلك؟

قال كيفين: نعم، جامد.

كنا نتكلم عن أن تكون أمك ميتة. سندباد، أخي الصغير، أجهش في البكاء. ليام في فصلي بالمدرسة، ذات يوم وسخّ بنطاله، هاجمت الرائحة أنوفنا مثل هبة الحرارة عندما تفتح باب الفرن، ولم يفعل المستر شيئاً، لم يصرخ ولم يخط على مكتبه بالجلدة أو أي شيء مشابه، بل طلب منّا أن ننام على أذرعنا فوق مكاتبنا، وبعدها فعلنا حمل ليام وخرج به من الفصل. لم يعد لدهور، وليام لم يعد يومها على الإطلاق.

همس جيمس أوكيف: لو أني شخّيت في بنطلوني بابا سيقتلني.

- صحيح.

قال جيمس أوكيف: هذا ليس عدلاً.

الأستاذ، مستر هينيبي، كان يكره جيمس أوكيف، بينما يكتب شيئاً ما على السبورة مثلاً، وظهره يواجهنا يقول شيئاً مثل:

- أوكيف، أعلم أنك ترتكب مصيبة ما، لا تجعلني أقبض عليك.

قالها ذات صباح لم يكن جيمس أوكيف موجوداً فيه أصلاً، كان في البيت مريضاً بالغدة النكافية.

هينو أخذ ليام إلى مرحاض المعلمين ونظّفه، ثم أخذه إلى مكتب الناظر، والناظر أوصله بسيارته إلى عمته، لأنه لم يكن هناك أحدٌ في بيته. بيت عمّة ليام كان في راهيني.

قال لنا ليام: استخدم بكرتي مناديل حمام، وأعطاني شلناً.

- كاذب، أين هو؟

- ها هو.

- تلك ثلاثة بنسات فقط.

- لقد أنفقت الباقي.

أخرج من جيبه بقايا علبة حلوى التوفو وعرضها علينا.

- اشتريت هذه.

- أعطنا واحدة.

قال ليام: لم يبق إلا أربعة. ووضع بقيتها في جيبه.

قال كيفين: أوه. ثم دفع ليام.

ذهب ليام إلى بيته.

اليوم، كنّا عائدين من موقع بناء. حصلنا على كم مسامير من مقاس ست بوصات وبعض ألواح الخشب لبنني القوارب، وبينما

- نعم.

أيدّها بابا.

قالت ماما: الرجل المسكين يندب زوجته.

بابا كيفين يقول إن مستر أوكونويل يعوي لأنه ثملٌ. لا يسميه مستر أوكونويل أبداً، بل يسميه السكّر.

عندما قلت لماما ذلك قالت: انظر من الذي يتكلم. ثم أردفت: لا تسمع له يا باتريك، إنه يضحك عليك، أين يمكنه أن يسكر؟ لا توجد حاناتٌ في باريتاون.

قلت: هناك ثلاث في راهيني.

قالت: إنها على بُعد أميال. يا لمستر أوكونويل المسكين. لا مزيد من الكلام عنه.

قال كيفين لليام إنه رأى باباه ينظر إلى القمر ويعوي كالمذوّوب. ليام قال إنه كاذبٌ.

كيفين تحدّاه أن يقول ذلك مجدداً، ليام لم يفعل.

العشاء لم يجهز بعد. سندباد كان قد أضع إحدى فردي حذائه في موقع البناء. قيل لنا من قبل ألا نلعب هناك أبداً، لهذا قال لماما إنه لا يعرف أين ضاعت منه. ضربته ماما على ربله ساقه، أمسكت ذراعه لكنه ظل ينأى بنفسه عنها فلم تتمكّن منه جيداً. مع ذلك ظل يبكي حتى توقفت.

سندباد عيوطة.

قالت لسندباد: أنت تخرب بيتي بمصاريفك.

كانت هي أيضاً على شفا البكاء.

قالت إن علينا أن نخرج بعد العشاء ونبحث عن الحذاء، نحن الاثنين، لأني يتوجب عليّ أن أعتني به.

سيتعيّن علينا الخروج في الظلام عبر فتحة السياج في الحقل، والخوض في الطين والخنادق وتجاوز الخفراء. أمرتنا ماما أن نغسل أيادينا. أغلقت باب الحمام علينا وانتقمت من سندباد لكل ذلك، أعطيته رجلًا ميتة⁽¹⁾.

كان عليّ أن أراقب ديردري في مهدها بينما تلبس ماما سندباد جوارب نظيفة. مسحت له أنفه ونظرت إلى عينه لدهور، ومسحت دموعه بظهر يدها.

- هون عليك... ولد جميل.

خفت من أن تسأله عمًا يضايقه فيخبرها، هزرت المهد مثلما تفعل هي دومًا.

أشعلنا نارًا. نشعل النيران على الدوام.

خلعت كنزتي كي لا تعلق بها رائحة الدخان. الجو الآن بارد لكن هذا لا يهم كثيرًا. بحثت عن مكان نظيف أترك فيه الكنزة. كنّا في موقع البناء. يتغير موقع البناء باستمرارٍ. الجزء المُحاط بسياج سلكي منه هو المكان الذي يحتفظون فيه بالحفارات وقوالب الطوب والسقيفة التي يجلس العمال أسفلها لشرب الشاي. هناك دائمًا كومة من كسرات الخبز خارج باب السقيفة، كسرات كثيرة متراكمة على حوافها بقع المرّي. كنّا نراقب عبر أسلاك السياج نورسًا يحاول التقاط كسرة منهم -كسرة أطول من منقاره، عليه أن يلتقطها من منتصفها-

(1) رجل ميتة Dead leg: من أساليب الإيذاء الشائعة بين الصبيان في الساحات، وتعني ضرب الضحية بالركبة في أعلى الفخذ من الخارج، ما يؤلمه ويعيقه عن المشي بسلاسة لبعض الوقت. [المترجم]

ثم جاءت كسرة أخرى تطير عبر باب السقيفة المفتوح وأصابت رأس النورس، ثم سمعنا ضحك الرجال الهادر قادمًا من داخل السقيفة. ثم نذهب إلى حيث كان موقع البناء فلا نجد، بل فقط رقعة أرض طينية مربعة تتناثر فيها قوالب الطوب المهشمة وآثار الإطارات، وحيثما كان الأسمت الطري في آخر مرة كُنَّا هناك، يصبح هناك طريقٌ جديدٌ، وموقع البناء الجديد يصبح في آخر الطريق. ذهبنا إلى حيث كتبنا أسماءنا بالعصي على الأسمت، لكن السطح بات مصقولًا، وضاعت الأسماء.

قال كيفين: أوه، خراء.

أسماءنا كانت في كل أنحاء باريتاون، في الشوارع والطرق. عليك أن تفعلها في الليل، عندما يعود الكل إلى بيوتهم باستثناء الخفراء. ثم عندما يجدون أسماءنا في الصباح يكون الأوان قد فات والأسمت بات صلبًا. نكتب أسماءنا المسيحية⁽¹⁾ فقط بالطبع، إذ ربما ذهب العمال يطرقون على أبواب البيوت على طريق باريتاون ويسألون عن الفتية الذين يكتبون أسماءهم على الأسمت الطري.

لم يكن هذا موقع البناء الوحيد، بل كان هناك غيره الكثير، منازل من كل الأشكال والألوان.

كتبنا اسم ليام وعنوانه على الحائط الجيري الجديد داخل أحد المنازل بقلمٍ أسود سميكٍ، ولم يحدث شيء.

شمّت ماما ذات مرة في رائحة دخان، رأت في البداية يديّ، وجذبت إحداهما.

(1) الاسم المسيحي Christian name: يُمنح الأطفال في بعض الثقافات المسيحية عند التعميد اسمًا يماثل اسم أحد القديسين ليكون شفيحًا له. وأحيانًا يكون المقصود بالاسم المسيحي في بعض البلدان المتحدثة بالإنجليزية هو الاسم الأول العادي given name. [المترجم]

قالت: انظر إلى يديك! يا ربي عليك يا باتريك، ما كل هذه القذارة تحت أظافرك؟

ثم شمّنتي.

- ماذا كنت تفعل؟

- أخمد حريقًا.

قتلنتي. وأسوأ ما في الأمر كان الانتظار لرؤية إن كانت ستخبر بابا عندما يعود إلى البيت.

كيفين كان معه كبريتٌ، علبة من نوع البجعة. كم أحببت تلك اللعب. كنّا نصنع وغمًا⁽¹⁾ من الأخشاب والعصي، ونأتي بصندوقي كرتون من تلك الملقاة خلف المتاجر. نمزق الكراتين ونضعها فوق وتحت الخشب. الخشب نفسه يستغرق وقتًا طويلًا كي يشتعل. الوقت لا يزال نهارًا. أشعل كيفين عودًا، نظرنا أنا وليام حولنا لنرى إن كان هناك أحدٌ قادمًا، ولم يكن هناك أي شخص عدانا. أيدان في بيت عمته، وسندباد في المستشفى ليستأصل اللوزتين. وضع كيفين عود الكبريت تحت لوح الكرتون، وانتظر انتشار اللهب ثم ترك العود. راقبنا النيران تلتهم لوح الكرتون، ثم ركضنا لنختبئ.

لم أتمكّن من إتقان استخدام الكبريت. إما أن ينكسر العود مني وإما لا يشتعل أو أحكّهُ في الجانب الخاطئ من العلبة، أو يشتعل لكنني أتخلص منه بسرعة أكثر من اللازم.

نتنظر خلف أحد البيوت، وعندما يأتي الخفير نجري. كنّا بالقرب من السياج، طريق الهروب. يقول كيفين إنهم غير قادرين على فعل أي شيء بك لو لم يمسكوك داخل موقع البناء، لو أنهم قبضوا

(1) الوغم wigwam: كوخ أشبه بغرفة صغيرة مقببة، كان يبنيه السكان الأصليون في أمريكا وكندا. [المترجم]

علينا أو ضربونا في الطريق نستطيع أن نقاضيهم في المحكمة. لم نتمكّن من الرؤية جيّدًا، فانتظرنا. لم يكن المكان بيئًا كاملًا بعد، بل بعض الحوائط لا أكثر. كان المكان صفاً من ستة بيوت دُمجت معًا. الشركة تبني البيوت هنا. لقد نسيت الكنزة.

- أوه أوه!

- ماذا؟

- يا ربي!

- ماذا هناك؟

- طواري، طواري.

زحفنا بحذاء البيت، لكننا لم نزحف المسافة كلها لأن ذلك سيستغرق دهورًا. كان هناك برميلٌ حيث وضعت الكنزة. ركضت لأختبئ وقرفت خلف البرميل، أخذت أنفاسًا عميقة وزفرتها متجهراً للانطلاق. نظرت إلى الخلف، رأيت كيفين يقف منتصبًا وينظر حوله، ثم انحنى مجددًا.

همس: تمام.

أخذت نفسًا أخيرًا ثم قمت من خلف البرميل، واندفعت إلى حيث توجد الكنزة. لم يصرخ أحدٌ. تسببت في ضجة كانفجار القنابل وأنا أخذ الكنزة من على الحجارة. انزلقت عائداً إلى خلف البرميل.

النار كانت تضطرم على ما يرام، دخان كثير. أخذت حجرًا وألقيته على النار. نهض كيفين مجددًا واستكشف بحثًا عن الخفير، الطريق كان آمنًا، فأشار إليّ أن آتي. اندفعتُ جريًا، ثم قرفت بجوار البيت. ربت كيفين على ظهري، وكذا فعل ليام.

ربطت الكنزة حول خصري، وعقدت أكامها في عقدة مزدوجة.

- هيا يا رجال.

جرى كيفين من مكمنه، وتبعناه ورقصنا حول النار.

- وووو وووو وووو وووو....

وضعنا أيادينا على أفواهنا وقلدنا حركات الهنود.

- آبي ياا ياا ياا ياا ياا...!

ركل كيفين النيران تجاهي لكن الكومة تداعت لا أكثر، لم تعد نارًا ضخمة. توقفت عن الرقص، وكذلك توقف كيفين وليام. كيفين دفع ليام تجاه النار وجذبه.

- دعني!

ساعدت كيفين. تحدّث ليام بجدية، فتوقفنا. جاءتني فكرة.

- الخفير حمار! الخفير حمار.

سمعنا شيئًا ما، كيفين سمع شيئًا ما.

هربنا، مرقنا عبر باقي الحقل. ركضت في خطوط متعرجة كي لا يصيبني الرصاص. وقعت عبر الفتحة إلى المصرف. تشاجرنا، بعض التدافع فقط. أخطأ ليام إصابة كتفي فأصابت لكمته أذني، أوجعتني، لذا اضطر إلى أن يتركني أرد له الضربة في أذنه. وضع يديه في جيبه كي لا يحاول أن يمنعني.

خرجنا من المصرف لأن البعوض صار يحط على وجوهنا.

يرفض سندباد وضع زيت القداحات في فمه.

قلت له: إنه زيت الهلبوت⁽¹⁾.

(1) زيت الهلبوت: مكمل غذائي مستخلص من سمكة الهلبوت يحتوي على فيتامينات مختلفة. [المترجم]

قال: بل هو ليس كذلك.

حاول التملص لكنني تمسكت به. كنا في ساحة المدرسة، تحت السقيفة.

أحب زيت الهلبوت. عندما تكسر الغلاف البلاستيكي بأسنانك ينتشر الزيت داخل فمك كما ينتشر الحبر على الورق النشاف. إنه دافئ، أحب ذلك، والبلاستيك لطيف أيضًا.

اليوم هو الاثنين، هينو هو المسؤول عن الساحة، لكنه يظل دائمًا في الناحية البعيدة ليراقب من يلعبون كرة اليد. إنه مجنون. لو أنه جاء إلى ناحيتنا، عند السقيفة، لقبض على الكثير منّا متلبسين. لو أن مدرسًا قبض على خمسة تلاميذ يدخنون أو يرتكبون خطأ فادحًا يحصل على علاوة، هذا ما قاله فلوك كاسيدي الذي عمه مدرس. لكن هينو يراقب كرة اليد فقط، وأحيانًا يخلع معطفه وكنزته ويشارك في اللعب. إنه ممتاز، عندما يرمي الكرة لن تراها إلا بعدما تضرب الحائط، كأنها رصاصة. لديه مَلصقٌ على سيارته يقول: عش طويلًا، لعب كرة اليد.

اختفت شفتا سندباد لأنه كان يضغطهما بشدة مغلقًا فمه، لم نستطع فتحه عنوة. دفع كيفين كبسولة الوقود قسرًا في فمه لكنها لم تدخل. قرصت ذراع سندباد، بلا فائدة. هذا سيئ، لا أستطيع السيطرة على أخي الصغير أمام الآخرين. عيناه مغلقتان لكن الدموع تتسرب منهما. قبضتُ على أنفه، فشقق، ووضع كيفين الكبسولة حتى منتصفها في فمه، ثم أشعلها ليام بعود كبريت.

أنا وكيفين قررنا أن نجعل من يشعلها هو ليام، حتى إذا ضُبطنا لا يكون أيُّنا من فعلها.

فرقعت مثل تنين ينفث اللهب.

أحب العدسات المكبرة أكثر من أعواد الكبريت. قضينا أمسيات عديدة نحرق أكوامًا صغيرة من العشب المقصوص. أحب مراقبة العشب يتغيّر لونه، أحب مراقبة اللهب يلتهمه. تمنحك العدسة المكبرة المزيد من التحكم، أسهل، لكنها تتطلب مهارة أكثر. لو ظلّت الشمس في السماء لفترة كافية يمكنك أن تحرق ورقة كاملة دون أن تلمسها، عليك فقط أن تثبتّها بوضع حجرٍ على كلِّ من أركانها كي لا تطير. كنّا نتسابق، نشعل، نطفئ، نشعل، نطفئ، آخر من يحرق الورقة كاملة عليه أن يدع آخر يلسع يده. كنّا نرسم رجلًا على الورق ونحرق فيه ثقبًا، في يديه وقدميه، مثل المسيح. كنّا نرسم على رأسه شعرًا طويلًا. نترك بلبله للنهاية.

نشق طرقًا عبر نبات القراص. أرادت ماما أن تعرف ما الذي يجعلني أرتدي معطفي الصوفي الثقيل والقفازات في يومٍ لطيفٍ كهذا. قلت لها: إننا نقطع القراص.

القراصات ضخمة، عملاقة. الحساسية التي تسبّبها لسعاتها هائلة، وتظل تشعرك بالحكة لدهورٍ بعد اللسعة. تحتل القراصات ركنًا كبيرًا في الحقول خلف المتاجر، لا شيء آخر ينمو هناك، القراصات فقط. بعدما قطعناهم بالضرب الجانبي بعصينا ومضاربنا، كان علينا أن نهرسهم. تناثرت عصارة القراصات. صنعنا الطرق عبرها، طريقًا واحدًا لكل منّا، لأنه كان على البقية الابتعاد عن تناول طريق العصي والمضارب. خلال عودتنا إلى البيت التقمت الطرق ولم تعد هناك قرصات متبقية. أمست مضاربنا خضراء وأُسع وجهي مرتين، اضطررت إلى خلع قناع البالاكلافا⁽¹⁾ لأن رأسي صارت تحكني.

(1) بالاكلافا Balaclava: قناع صوفي واقٍ من الرياح، يغطي الوجه كله إلا العينين، يشتهر في السينما بأنه القناع الذي يرتديه المجرمون خلال الجرائم كي لا يتعرف عليهم أحد. [المترجم]

كنت أنظر إلى فتات الخبز. وضع بابا يده على العدسة المكبرة وتركته يأخذها. نظر إلى الشعر على يده.

- من الذي أعطاها لك؟

- أنت.

- آه، صحيح.

أعادها إليّ.

- شاطر.

ضغط بإبهامه بقوة على طاولة المطبخ.

قال: انظر لترى إن كان بوسعك رؤية العلامة.

لم أفهم بالضبط.

قال: البصمة، بصمة الإبهام.

حركت مقعدي قريبًا منه ورفعت عدستي فوق حيث كان إبهامه، نظرنا نحن الاثنان عبر العدسة، كل ما استطعت رؤيته كان النقاط الصفراء والحمراء لسطح الطاولة، لكن أكبر.

قال: أترى أي شيء؟

- لا

قال: تعال معي.

تبعته إلى غرفة المعيشة.

قالت ماما: إلى أين أنتما ذاهبان؟ العشاء على وشك أن يجهز.

قال بابا: سنعود فورًا.

وضع يده على كتفي، اتجهنا إلى النافذة.

- اصعد إلى هنا حتى نرى.

شدّ مقعدًا ذا ذراعين إلى هناك لأقف عليه.

- والآن...

رفع الستارة المعدنية وهو يتحدث إليها.

- ابتعدي عن الطريق ليرى البط الأرانب.

ربط الحبل وظل ممسكًا به لوهلة ليتأكد أن الستارة ستظل مرفوعة.

ضغط إبهامه على الزجاج.

- الآن انظر.

أصبحت اللطخة خطوطًا.

قال: الآن افعل المثل ببصمتك.

ضغطت بإبهامي على الزجاج بشدة، ظل يسندني كي لا أقع من الكرسي. نظرت.

قال: هل هي نفس البصمة؟

- بصمتك أكبر.

- وغير ذلك؟

لم أقل شيئًا، لم أكن متأكدًا.

قال: كلهم مختلفون، لا تشبه بصمة شخصٍ بصمة غيره، هل كنت تعرف ذلك؟

- لا

- الآن تعرف.

بعد بضعة أيام، وجد نابليون سولو⁽¹⁾ بصماتٍ على حقيبته.

نظرت إلى بابا.

قال: قلت لك.

لم نحرق الحظيرة.

تُركت الحظيرة مُهملة. عندما اشترت الشركة مزرعة دونيلي، اشترى دونيلي مزرعة جديدة بالقرب من سوردز. نقل كل شيء إلى هناك عدا البيت والحظيرة، والرائحة. الرائحة كانت شديدة السوء في الأيام الممطرة، المطر ينعش روث الخنازير المتناثر هناك منذ سنوات. كانت الحظيرة ضخمة وخضراء، وهائلة عندما تمتلئ بالقش. كُنَّا نتسلل إليها من المؤخرة، قبل أن تُبنى البيوت الجديدة. كان ذلك خطرًا. امتلك دونيلي سلاحًا وكلبًا أعور. سيسيل هو اسم الكلب. عند دونيلي أيضًا أخ مجنون، العم إيدي، هو المسؤول عن الدجاج والخنازير. كان يرص الحجارة والحصى في الممر أمام البيت كل مرة تمر فوقهم سيارة أو جرار وتبعثرهم. العم إيدي مشى أمام بيتنا ذات يوم بينما كانت ماما تطلي البوابة.

- "ليباركه الرب". قالتها لنفسها لكن بصوتٍ عالٍ كفاية ليبلغ أذني.

ذكرت ماما العم إيدي بينما نتناول العشاء ذات يوم.

قلت: ليباركه الرب. فضرمني بابا على كتفي.

(1) نابليون سولو Napoleon Solo: شخصية خيالية في مسلسل الجاسوسية التلفزيوني الأمريكي الشهير خلال الستينيات U.N.C.L.E. The Man from. [المترجم]

العم إيدي عنده عينان لكنه مثل سيسيل نوعًا لأن إحدى عينيه مغلقة. يقول بابا إنها أصبحت كذلك لأنها علقت في طريق بابٍ عندما كان العم إيدي يتلصص من ثقب مفتاحه.

عندما ترسم تعبير وجه أحمق أو تدعي أنك تتهته، فتهب ريحٌ في ذات الوقت أو يضربك أحدهم على ظهرك، تظل على ذلك الحال إلى الأبد. ديكلان فانينج -الذي هو في الرابعة عشر ويفكر والداه في إرساله إلى مدرسة داخلية لأنه يدخن- كان يُتهته، وأُصيب بذلك عندما كان يسخر من تهتهة أحدهم وضربه آخر على ظهره.

العم إيدي لا يتهته لكنه لا يستطيع قول إلا كلمتين: عظيم، عظيم! كُنَّا في القداس وآل دونيلي يجلسون خلفنا، وقال الأب مولوني: يمكنكم الجلوس.

بينما نهض من على ركبنا بدأ العم إيدي: عظيم، عظيم.

انفجر سندباد في الضحك. نظرت إلى بابا لأتأكد أنه يعرف أنني لست الفاعل.

يمكنك أن تتسلق باللات القش داخل الحظيرة. كُنَّا نقفز من فوق الباللات العالية إلى أخرى أدنى من دون أن نصاب بأذى، كان ذلك جامدًا. قال ليام وأيدان إن خالهما ميك عنده حظيرة مثل حظيرة آل دونيلي.

قلت: أين؟

لم يعرفا.

- أين هي؟

- في الريف.

رأينا فثرائنا. لم أرَ فأراً قطُّ، لكنني سمعتهم. لكن أقول إنني رأيتهم. كيفين رأى الكثير منهم. رأيت فأراً مسحوقاً، عليه آثار الإطارات. حاولنا إشعال النار فيه لكنها لم تمسك فيه.

كنَّا أعلى الحظيرة. دخل العم إيدي، لم يعرف أننا هناك. حبسنا أنفاسنا. دخل العم إيدي ودار حول المكان مرتين ثم خرج مجدداً. كانت هناك بقعة من ضوء الشمس عند الباب، وهو من تلك الأبواب الحديدية المموجة التي تنزلق. الحظيرة كلها كانت من الحديد المموج. كنَّا عاليين لدرجة أننا كان بوسعنا لمس السقف.

المزرعة باتت محاطة بهياكل البيوت. الطريق في الخارج يتوسع وهناك أهرامات من الأنابيب الضخمة على رأس الشارع عند الواجهة البحرية، سيصبح طريقاً رئيسياً يتجه إلى المطار. فيلومينا، أخت كيفين، قالت إن المزرعة تبدو مثل أم البيوت التي تعتنى بهم. قلنا إنها غبية، لكنها محقة، تبدو فعلاً كأم البيوت.

جاءت ثلاث فرق مطافئ من المدينة لإطفاء الحريق لكنهم لم يفلحوا. غمرت المياه الطريق بأكمله. حدث ذلك في الليل. عندما استيقظنا في الصباح التالي كانت النار قد خمدت، وقالت ماما إننا لا يمكننا الذهاب إلى أي مكان قريب من الحظيرة، وظلَّت تراقبنا لتتأكد من ذلك. تسلقت شجرة تفاح لكنني لم أر شيئاً. لم تكن شجرة كبيرة وكانت مليئة بالأوراق، ولم تثمر إلا تفاحاً رديئاً.

عثروا على علبة كبريت خارج الحظيرة؛ هذا ما سمعته. مسز باركر التي تعيش في أحد الأكواخ أخبرت ماما بهذا. مستر باركر يعمل عند دونيلي، يقود الجرار ويذهب إلى السينما مع العم إيدي في عصر كل يوم أحد.

قلت لماما: سينفضونها بحثاً عن البصمات.

- نعم، صحيح.

قلت لسندباد: سينفضونها بحثًا عن البصمات، ولو وجدوا بصماتك هناك سيأتون للقبض عليك ويضعونك في فرقة أرتين للصبيان⁽¹⁾.

لم يصدقني سندباد، لكنه صدقني.

- سيجعلونك تعزف آلة المثلث، بسبب شفيتك.

تغرغرت عيناه بالدموع. كرهته.

احترق العم إيدي حتى الموت في الحريق؛ سمعنا ذلك أيضًا. مسز بايرني التي تسكن على بُعد منزلين أخبرت ماما بذلك، قالتها همسًا ثم باركتنا نفسيهما.

قالت مسز بايرن: ربما ذلك أفضل له.

قالت ماما: نعم.

كنت أكاد أموت لأذهب إلى الحظيرة لرؤية العم إيدي، لو أنهم لم يأخذوه بعد. جعلتنا ماما نجهز نزهة في الحديقة. عاد بابا إلى البيت من الشغل، عاد بواسطة القطار. نهضت أُمي خارجة من النزهة كي تتحدث معه دون أن نسمع. علمت أنهما يتحدثان عنه، عن العم إيدي.

قال بابا: إيدي؟ فعلاً؟

أومأت ماما.

- لم يخبرني بذلك عندما قابلته في الشارع اليوم، قل ما قاله كان "عظيم عظيم".

(1) فرقة أرتين للصبيان Artane Boys Band: فرقة مارشات موسيقية أيرلندية من الصبية الصغار تأسست عام 1871، من طلبة مدرسة أرتين الصناعية Artane Industrial School. تلك المدرسة كانت بمثابة الإصلاحية التي يُرسل إليها الأطفال المدانون بارتكاب مخالفات قانونية. [المترجم]

ساد الصمت لوهلة ثم انفجرا ضاحكين. لم يمِت، بل لم يصبه أدنى أذى. لم تُعد الحظيرة خضراء مرة أخرى. أصبحت منبعجة وملتوية. تقوَّس السقف مثل غطاء علبة عصير معدنية، صار يتطوح ويصرّ. الباب الضخم وقف يستند إلى حائط الساحة، أصبح أسودَ بالكامل. أحد الحوائط تداعى بالكامل. السواد على الحوائط وقع وباتت كلها بنية صدئة.

قال الجميع لاحقًا إن الفاعل من بيوت الشركة الجديدة. بعد سنة تقريبًا، قال كيفين إنه فعلها، لكنه لم يفعلها، لقد كان في كارافان في قرية كورتاون خلال إجازته عندما حدثت. لم أقل شيئًا.

في أيام الطقس اللطيف نستطيع رؤية ذرات الغبار في الهواء تحت سقفها، أحيانًا أعود للبيت وقد علق بعضها في شعري. في أيام الرياح الشديدة تقع منه كتلٌ ضخمة. الأرض تحت السقف صارت حمراء. بدت الحظيرة كأنها نُهشت.

سندباد وعد.

رفعت ماما شعره عن جبهته ومشَّطته بأصابعها كي يظل فوق رأسه. كانت على وشك البكاء أيضًا.

قالت له: لقد حاولت فعل كل شيء، الآن عدني مجددًا.

قال سندباد: أعدك.

بدأت ماما في فك القيد عن يديه. أنا أيضًا كنت أبكي.

كانت قد ربطت يديه في الكرسي لتمنعه من نتف قشور الجروح على شفثيه. صرخ كثيرًا، تحوَّل وجهه إلى اللون الأحمر، ثم إلى البنفسجي، إحدى الصرخات استمرت إلى ما لا نهاية، لم يتنفس. شفتا سندباد كانتا مغطتين بالجلْب بسبب وقود القداحات. ظل يبدو لأسبوعين كأنه بلا شفاهٍ.

ظَلَّتْ تثبت يديه إلى جانبيه، لكنها تركته ينهض.

قالت: دعني أرى لسانك.

كانت تفحصه لتتأكد من أنه لا يكذب.

قالت: حسنًا يا فرانسيس، لا قروح هناك.

فرانسيس هو سندباد. أعاد لسانه إلى الداخل.

تركت يديه وظلَّتَا متدلّيتين إلى جواره.

ذهبتُ إليهما.

تجري على رصيف المرسى وتقفز وأنت تصيح (رحلة إلى قاع البحر)، ومن يتمكن من قول أكثر عددٍ من الكلمات قبل أن ينزل الماء يفوز. لم يفز أحدٌ قطُّ. ذات مرة تمكّنت من نطق أغلب الكلمات، لكن كيفين، الحكم، قال إن مؤخرتي كانت في الماء قبل نطق (ع) في قاع. تراشقنا بالطوب. اختبأت خلف دولاب الأطباق عندما كان قنديل بحر عملاق يبتلع السي-فيو، كان ذلك مرعبًا. لم أمانع في البداية وجعلت أصابعي في أذنيَّ عندما قال بابا لماما إن هذا سخفٌ، لكن عندما حاصر القنديل الغواصة زحفت إلى خلف الدولاب. كنت ممدّدا على بطني أمام التليفزيون⁽¹⁾. لم أبك. ماما قالت إن القنديل ذهب لكني لم أرجع حتى سمعت الإعلانات. أوصلتني إلى الفراش بعدها وظلّت معي بعض الوقت. سندباد كان نائمًا. نهضت لأشرب الماء. قالت إنها لن تدعني أشاهد حلقة الأسبوع القادم، لكنها نست. على أي حال عاد المسلسل لشكله العادي في الأسبوع التالي، عالم مجنون ما يخترع طوربيدًا جديدًا، والأدميرال نيلسون يركل مؤخرته.

(1) سي-فيو Seaview هو اسم الغواصة التي تخوض أعماق البحر في مسلسل الخيال العلمي الأمريكي (رحلة إلى أعماق البحر Voyage to the Bottom of the Sea) عُرض لأول مرة بين عامي 1964 و1968. [المترجم]

قال بابا: هكذا يكون الكلام.

لم يشاهده، بل يسمعه فقط. لم يرفع عينيه عن كتابه. لم أحب ذلك، إنه يسخر مني. ماما تخطط شيئاً ما. أنا الوحيد الذي يشاهد. قلت لسندباد إنه كان جامداً لكنني لم أخبره لماذا.

كنت في الماء عند الواجهة البحرية مع إدوارد سوانويك. لا يذهب إلى نفس المدرسة مع أغلبنا، بل يذهب إلى بلفدير في المدينة.

عندما قالت ماما لبابا إنها رأَت مسز سوانويك تشتري السمن النباتي بدلاً من الزبد في المتجر، قال لها: لا شيء إلا الأفضل لآل سوانويك.

ضحكت.

يتوجب على إدوارد سوانويك أن يرتدي سترة وربطة عنق، ويضطر إلى لعب الرجبي. قال إنه يكرهها، لكنه يعود إلى بيته وحده بالقطار كل يوم، أي أن الأمر لم يكن كله سيئاً.

كنّا نرش الماء على بعضنا. توقفنا عن الضحك لأننا نفعل ذلك منذ وقتٍ طويلٍ. المد ينحسر، لذا علينا أن نخرج قريباً. إدوارد سوانويك ضرب بيده موجة ناحيتي وكان فيها قنديلٌ، قنديلٌ ضخماً شفافاً ذو عروق وردية ووسط بنفسجي. رفعت ذراعيّ وبدأت أبتعد لكنه مع ذلك لمس جانبي؛ صرخت. خطوت في الماء متجهاً إلى السلام. شعرت بالقنديل يضرب ظهري، حسبت أنه فعل، صرخت مجدداً، لم أستطع كبح نفسي. كان القاع صخرياً وغير متساوٍ عند الواجهة البحرية، ليس مثل الشاطئ. وصلت إلى الدرجات وقبضتُ على الحاجز.

قال إدوارد سوانويك: إنه رجل الحرب البرتغالي⁽¹⁾.

عاد إلى درجات السلم، بالقرب من القنديل.

(1) رجل الحرب البرتغالي: اسم نوع من القناديل. [المترجم]

صعدتُ على الدرجة الثانية. بحثت عن آثار اللسع. لسعات القناديل لا تؤلم إلا بعدما تخرج من الماء. كانت هناك لسعة وردية على جانب بطني، بوسعي رؤيتها. صرْتُ خارج الماء.

قلت لإدوارد سوانويك: سأنتقم منك.

قال إدوارد سوانويك: إنه رجل الحرب البرتغالي.

قلت: انظر.

أريته إصابتي.

كان قد صعد على الرصيف، صار ينظر من فوق الحاجز إلى القنديل.

خلعت زي السباحة من دون أن أعني بلفٍ منشفة حولي، لا يوجد أحدٌ عدانا. أخذ القنديل يطفو مكانه مثل مظلة تائهة. بحث إدوارد سوانويك عن حجرٍ، نزل بعض الدرجات ليلتقط واحدًا دون أن يعود إلى الماء. بدأت ألبس التيشيرت لكنني لم أستطع إنزاله على ظهري وصدري لأنهما كانا لا يزالان مبتلين، وعلق على كتفيّ.

قال إدوارد سوانويك: لسعاتهم سامة.

تمكّنت من ارتداء التيشيرت. رفعته لأتأكد أن أثر اللسعة لا يزال هناك، فكرت أنه سيبدأ في الالتهاب. عصرت لباس السباحة حول الدرابزين. أخذ إدوارد سوانويك يرمي الحجارة بالقرب من القنديل.

- ارمها عليه.

لم يصبه.

قلت له: أنت أحمق كبير.

لفت زي السباحة في المنشفة، كانت منشفة استحمامٍ كبيرة ناعمة، لم يكن عليّ أن أحضرها.

ركضت طوال الطريق، عبر شارع باريتاون كله، وعبر الأكواخ حيث كان هناك شبح امرأة عجوز بلا أسنان ورائحة كريهة، وعبر المتاجر، وبدأت أبكي بعدما صرت على بُعد ثلاث بوابات من بيتنا.

ماما كانت في الخلف عند باب المطبخ، تُطعم الطفلة.

- ما بك يا باتريك؟

نظرت إلى الأسفل بحثًا عن جرح في ساقِي، رفعت التيشيرت لأريها. أصبحت أبكي بشدة الآن. أردت عناقًا ومرهمًا وضمادة.

قلت لها: لسعني قن.. لسعني رجل حرب برتغالي.

لمست جانبي.

- هنا؟

- آي! لا، انظري على العلامة الممتدة. إنه سام جدًّا.

- لا أرى... أوه، أرى الآن.

أنزلت التيشيرت وأدخلته في بنطالي.

سألتني: ماذا علينا أن نفعل؟ هل أذهب لأتصل من هاتف

الجيران بسيارة إسعاف؟

- لا، مرهم.

- حسنًا، هذا سيطيبه. هل لديّ وقتٌ كافٍ لأنتهي من إطعام

ديردري وكاثي قبل أن نضع المرهم؟

- نعم.

- ممتاز.

ضغطت بيدي على جانبي بقوة كي أحافظ على أثر اللسعة.

الواجهة البحرية كانت محطة ضخ. كانت توجد خلفها منصة ذات درجات نزول عديدة. عندما يحدث المد الربيعي تغطي المياه المنصة. هناك مزيدٌ من الدرجات تحت المياه، وهناك أيضًا درجات في الناحية الأخرى من محطة الضخ لكنها باردة على الدوام، والصخور هناك أكبر وأكثر حدة، يصعب تجاوزهم للدخول في المياه. لم يكن الرصيف في الواقع رصيفًا، بل أنبوبًا مغطى بالأسمت، أسمنت غير مصقول، تبرز منه قطعٌ من الحجارة والزلط. لا يمكنك أن تركض عليه حتى النهاية، عليك أن تراقب خطواتك ولا تهبط بقدمك بقوة شديدة. كان من الصعب أن نلعب كما نحب عند الواجهة البحرية، فهناك الكثير من أعشاب البحر والوحل والصخور، عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين دومًا تحت الماء. كل ما يمكنك فعله هو السباحة.

وأنا سباح ماهر.

سندباد لم يكن ينزل الماء إلا لو كانت ماما معه.

ذات مرة قفز كيفين من فوق الرصيف فخطب وشقَّ رأسه. أخذوه إلى شارع جيرفيس لتخييط الجرح. ذهب في تاكسي بصحبة مامته وأخته.

لم يُسَمَح لبعضنا بالسباحة عند الواجهة البحرية. لو أنك جرحت إصبع قدمك على صخرة تُصاب بشلل الأطفال. مات ولد من باريتاون درايف اسمه شون ريكارد، يفترض أنه مات لأنه ابتلع بعض مياه الواجهة البحرية. قال شخص آخر إنه ابتلع غرفة يدٍ من الحلوى الجافة فعلقت في قصبته الهوائية.

قال أيدان: كان وحيدًا في غرفته، ولم يكن هناك من يضربه على ظهره ليخرجها.

- لماذا لم يذهب إلى المطبخ؟

- لأنه لم يكن يستطيع التنفس.
- أستطيع أن أضرب ظهري بنفسي، انظروا.
- نظرنا إلى كيفين وهو يربت على ظهر نفسه.
- قال أيدان: ليست ضرباتٍ قوية كفاية.
- جربنا جميعًا فعلها.
- قالت ماما: هذا كله هراء، لا تستمع لهم.
- ثم قالت بصوتٍ أنعم:
- الولد المسكين كان مريضًا باللويميا.
- ما اللويميا؟
- مرض.
- هل يصيبك من ابتلاع الماء؟
- لا.
- كيف؟
- ليس من الماء.
- ماء البحر؟
- ولا أي نوع من الماء.
- قال بابا: مياه الواجهة البحرية عظيمة، اختبرها خبراء الشركة وقالوا إنها ممتازة.
- قالت ماما: رأيت؟
- جدو فينيجان، أبو ماما، كان يعمل بالشركة.

مس واتكينز كانت معلمتنا قبل هينو. كانت قد جلبت معها منشفة شاي طُبع عليها إعلان الاستقلال، لأن الوقت كان الذكرى الخمسين للاستقلال في 1916. الكتابة كانت في المنتصف وتوقيعات الرجال السبعة في الأركان. علّقتها على السبورة وجعلتنا نذهب لنزاهها واحدًا تلو الآخر. بعض الفتية باركوا أنفسهم أمامها.

كلما مرّ ولدان أمامها كانت تقول: (1) Nach bhfuil sé go h'alainn يا أولاد؟

نرد عليها: - Tá(2).

نظرت إلى الأسماء في الأسفل، أولهم كان توماس جي. كلارك. كلارك مثل اسمي.

مس واتكينز تناولت الـ bata(3) وشرعت تقرأ الإعلان لنا وهي تشير إلى كل كلمة.

- في هذه الساعة العظيمة يجب على الأمة الأيرلندية، بشجاعتها وانضباطها واستعداد أبنائها للتضحية بأنفسهم من أجل الصالح العام، أن تثبت أنها تستحق المصير الجليل المدعو إليه. وقّع نيابة عن الحكومة المؤقتة: توماس جي. كلارك، شون ماك-ديرمادا، توماس ماكдона، بي. إتش. بيرسي، إيمون سينت، جيمس كونولي، جوزيف بلانكيت.

بدأت مس واتكينز تصفق، ففعلنا جميعًا مثلها. بدأنا نضحك، حدقت إلينا، فتوقفنا عن الضحك لكن تابعنا التصفيق.

التفتُ إلى جيمس أوكيف.

(1) أليست جميلة؟

(2) نعم.

(3) عصا.

- توماس كلارك هو جدي، أخير البقية.

طرقت مس واتكنز على السبورة بالعصا.

- Seasaígí suas⁽¹⁾.

جعلتنا نمشي في مارشات عسكرية بجوار مكاتبنا.

- Clé—deas—clé deas—clé⁽²⁾.

تراقص المبني مسبق الصنع. المباني مسبق الصنع كانت وراء المدرسة. يمكنك أن تزحف تحتها. الورنيش على واجهتها كلها كان متقشراً بسبب الشمس، بوسعك تقشيريه بيدك. لم نحظ بغرفة في المدرسة الملائمة، الأسمنتية، إلا بعد عام من ذلك، عندما انتقلنا إلى مسؤولية هينو. أحببنا المارشات، نشعر خلالها بالألواح تتقافز تحتنا. كنّا نبذل قصارى جهدنا في خبط أرجلنا بالأرض بقوة، لذا لم نتمكّن من مزامنة التوقيت كما ينبغي لنا. جعلتنا نفعل ذلك مرتين في اليوم، عندما كانت تقول إننا نبدو لها كسالي.

تقرأ مس واتكنز إعلان الاستقلال خلال المارش.

- أيها الأيرلنديون والأيرلنديات، باسم الرب، وباسم الأجيال الميئة التي تعلّمت منها أيرلندا الوطنية، تستدعي أيرلندا من خلالنا أبناءها للوقوف تحت علمها والقتال لحريتها.

اضطرت إلى التوقف، لم تعد خطواتنا منضبطة بأي شكلٍ. ضربت السبورة بعصاها.

- Suígí síos⁽³⁾.

(1) انهضوا.

(2) يسار - يمين - يسار يمين - يسار -.

(3) جلوس.

بدت منزعة ومحبطة.

رفع كيفين يده.

- مس؟

- Sea?⁽¹⁾

- بادي كلارك يقول إن توماس كلارك على منشفة الشاي هو جده.

- هل قال هذا فعلاً؟

- نعم يا مس.

- باتريك كلارك.

- نعم يا مس.

- قف كي نراك.

استغرقت دهوراً كي أخرج من مكتبي.

- هل جدك هو توماس كلارك؟

إبتسمت.

- هل هو كذلك؟

- نعم يا مس.

- هذا الرجل هنا؟

أشارت إلى توماس كلارك في أحد أركان منشفة الشاي، بدا مثل جد
أحدهم.

- نعم يا مس.

- أين يعيش؟ هلا أخبرتنا؟

- في ضاحية كلونتارف يا مس.

(1) نعم؟

- أين؟
- كلونتارف.
- تعال هنا يا باتريك كلارك.
- الصوت الوحيد المتردد كان صوت خطواتي على ألواح الأرض.
- أشارت إلى كتابة بخط صغير تحت رأس توماس كلارك.
- اقرأ لنا ذلك يا باتريك كلارك.
- أعد... أعدد... أعدمه البريطانيون يوم 3 مايو 1916.
- ماذا تعني كلمة "أعدمه" يا Dermot جريمز الذي يضع إصبعه في أنفه ويحسب أنني لا أراه؟
- قتلوه يا مس.
- هذا صحيح. وهذا هو جدك الذي يعيش في كلونتارف، أليس كذلك يا باتريك كلارك؟
- نعم يا مس.
- تظاهرتُ أنني أنظر إلى الصورة مرة أخرى.
- سأسألك مرة أخرى يا باتريك كلارك، هل هذا الرجل جدك؟
- لا يا مس.
- ضربتني ثلاثاً على كل يد.

عندما عدت إلى مكتبي لم أستطع إنزال مقعدي، لم أكن قادراً على استخدام يدي في فعل أي شيء. جيمس أوكيف أنزل المقعد من أجلي بقدمه، صدر عن ذلك صوت عالٍ، حسبت أنها ستضربني مرة أخرى. وضعت يدي تحت مقعدي. لم أقرفص، فهي لا تسمح لنا بذلك. كان الألم كأن يدي وقعتا مني، بدأت راحتا يدي في التعرق بجنون. نظرت إلى كيفين، ابتسمت لكن أسناني أخذت تصطك. رأيت

ليام ينظر حوله من الصف الأمامي، باحثًا عن نظرة كيفين، يريد أن يتسم له.

أحب جدو كلارك أكثر بكثير من جدو فينيجان. زوجة جدو كلارك، تيتة، ميتة.

يقول جدو: إنها في الجنة، تحظى بوقتٍ رائعٍ.

يعطيني نصف كراون⁽¹⁾ عندما نذهب إلى رؤيته أو عندما يأتي لرؤيتنا. جاء ذات مرة على دراجة.

كنت أعبث بأدراج دولاب الأطباق ذات ليلة بينما يعرض التلفزيون برنامج مارت وماركت. الدرج السفلي كان مليئًا بالصور الفوتوغرافية حتى أنني عندما أعدته إلى الداخل وقعت بعض الصور منه على الأرض تحت الدولاب. التقطتهم من هناك. إحداهم كانت صورة لجدو وتيتة كلارك. لم نزره في بيته منذ دهور.

- بابا؟

- نعم يا بني؟

- متى سنزور جدو كلارك؟

نظر إليَّ بابا كأنه ضاع منه شيء ثم وجده، لكنه لم يكن ما أراده.

اعتدل في جلسته، نظر إليَّ لوهلة.

قال: جدو كلارك مات، ألا تذكر؟

- لا.

لا أذكر.

جاء إليَّ وحملني.

(1) عملة النصف كراون كانت تعادل نحو ثمن جنيه إسترليني. [المترجم]

بابا يدها كبيرتان، أصابعه طويلة. ليستا سمينتين، أستطيع تمييز عظامه تحت البشرة واللحم. إحدى يديه كانت تتدلى من فوق الكرسي، وبالأخرى يحمل كتابًا. أظافره نظيفة - باستثناء واحد - والأجزاء البيضاء على أطرافها أطول مما هي عندي. التجاعيد على مفاصل أصابعه تشبه نمطًا على حائط، مثل تجاعيد الأسمنت بين قوالب الطوب. لم تكن هناك كثيرٌ من التجاعيد الأخرى، لكن المسام بدت كالأخاديد، من كل أخدودٍ تخرج شعرة، شعرة قائمة. برز الشعر من تحت كم قميصه.

العاري والميت، ذلك كان اسم الكتاب. يوجد جندي على الغلاف يرتدي زيه الرسمي ووجهه مغطى بالتراب، كان أمريكيًا.

- عن ماذا يحكي؟

نظر إلى الغلاف.

قال: عن الحرب.

قلت: هل هو جيد؟

قال: نعم، جيد جدًا.

أشرت إلى الجندي على الغلاف.

- هل هو فيه؟

- نعم.

- ماذا يفعل؟

- لم أصل إليه بعد، عندما أفعل سأخبرك⁽¹⁾.

(1) العاري والميت The Naked and the Dead: رواية للمؤلف الأمريكي نورمان ميلر -Nor-man Mailer صدرت عام 1948، عن الحرب العالمية الثانية، وتُعتبر من أوائل وأهم الروايات عن الحرب. [المترجم]

الحرب العالمية الثالثة تلوح في الأفق.

أشترى الجريدة لبابا كل يوم عندما يعود من الشغل، وأفعل ذلك في أيام الأحاد كذلك. تعطيني ماما النقود. جريدة زا إيفيننج بريس.

الحرب العالمية الثالثة تلوح في الأفق.

سألت ماما: هل (تلوِّح في الأفق) تعني (تقترب)؟

قالت: أعتقد ذلك، لماذا تسأل؟

قلت لها: انظري، الحرب العالمية الثالثة تقترب.

نَظَرْتُ إلى المانشيت.

قالت: أوه، يا عزيزي، هذه مجرد جريدة، إنهم يبالغون في الأشياء.

سألتها: هل سنكون في الحرب؟

قالت: لا

- لم لا؟

قالت: لأن لن يكون هناك حرب.

سألتها: هل كنت على قيد الحياة وقت الحرب العالمية الثانية؟

قالت: بالطبع.

كانت تجهز العشاء، وعلى وجهها نظرة انشغال.

- كيف كانت الحرب؟

قالت: لم تكن شديدة السوء، أعلم أن هذا يخيب أملك يا باتريك،

لم تشارك أيرلندا في الحرب.

- لماذا؟

- أوه، يصعب شرح هذا، نحن فقط لم نشارك، بابا سيشرح لك.

كنت أنتظره، جاء من الباب الخلفي.

- انظر.

الحرب العالمية الثالثة تلوح في الأفق.

قرأه.

قال: الحرب العالمية الثالثة تلوح في الأفق، تلوح جدًّا.

لم يبدو منزعجًا.

قال: هل سلاحك جاهز يا باتريك؟

قلت: ماما تقول إنه لن يكون هناك حرب.

- وهي محقة.

- لماذا؟

كان أحيانًا يحب هذه الأسئلة وأحيانًا لا يحبها. عندما يحبها كان يثني قدميه إن كان جالسًا وينثني قليلًا في ناحيته من المقعد، وهذا ما يفعله الآن، ينحني إلى اتجاهاً. لم أستطع سماع أول ما قال لأنه كان يفعل وقتها ما كنت أتمنى أن يفعل - يثني قدميه تحته وينحني مقتربًا مني - وحدث ذلك كما أردته أن يكون.

سمعت: - ... بين الإسرائيليين والعرب.

- لماذا؟

قال: إنهم ببساطة لا يحب بعضهم بعضًا، نفس الحدودة القديمة.

سألته: لماذا تتحدث الصحيفة عن الحرب العالمية الثالثة؟

قال: أولاً كي تبيع، العناوين المشابهة تبيع جيداً، لكن أيضاً لأن الأمريكيان يدعمون اليهود والروس يدعمون العرب.

- اليهود هم الإسرائيليون؟

- هم كذلك.
- ومن هم العرب؟
- كل من عداهم، جيرانهم جميعًا، الأردن وسوريا...
- ومصر.
- شاطر، أنت تعرف كل شيء على ما يبدو.
- العائلة المقدسة هربت إلى مصر عندما طاردهم هيرودوس.
- هذا صحيح، هناك دومًا عمل للنجارين.
- لم أستوعب هذا بالكامل، لكنه كان ذلك النوع من الأشياء الذي لا تحبه ماما أن يقوله، لكنها لم تكن موجودة، فضحكتُ.
- قال بابا: ورغم كل الاحتمالات، اليهود يكسبون، حظ سعيد لهم.
- قلت: يذهب اليهود إلى القديس أيام السبت.
- قال: هذا صحيح، في المعابد اليهودية.
- إنهم لا يؤمنون بالمسيح.
- صحيح.
- لماذا؟
- أووه...
- انتظرت.
- يؤمن الناس بأشياء مختلفة.
- انتظرت أن يزيد على ذلك.
- البعض يؤمنون بالرب والبعض لا يفعلون.
- قلت: الشيوعيون لا يفعلون.

قال: هذا صحيح، من قال لك هذا؟

- مستر هينيبي.

قال: مستر هينيبي رجل جيد.

عرفت من الطريقة التي تفوه بها ما سيقوله تاليًا أنه جزء من قصيدة. يفعل ذلك من حين إلى حين.

- نظروا إليه وازدادوا عجبًا وحيرة، كيف تسع كل تلك المعرفة رأسٌ صغيرة⁽¹⁾. بعض الناس يؤمنون أن المسيح ابن الرب والبعض لا يفعلون.

- أنت تؤمن، أليس كذلك؟

قال: نعم أفعل، لماذا تسأل؟ هل سألك عن ذلك مستر هينيبي؟

قلت: لا.

تبدّل وجهه.

قال: الإسرائيليون أشخاص جيدون. حاول هتلر القضاء عليهم وكاد أن يفعل، لكن انظر إليهم الآن، هم الأقل عددًا وسلاحًا، الأقل في كل شيء تقريبًا، ولا يزالون يكسبون. أحيانًا ما أفكر أن علينا الذهاب إلى إسرائيل، هل ستحب ذلك يا باتريك؟

- لا أعلم، نعم، ربما.

أعرف أين تقع إسرائيل، شكلها كالسهم.

قلت: الطقس هناك حار.

- همممم.

(1) من قصيدة القرية المهجورة The Deserted Village المنشورة عام 1770، للشاعر الأيرلندي أوليفر جولدسميث Oliver Goldsmith. [المترجم]

- لكنها تمطر ثلجًا في الشتاء مع ذلك.
- نعم، خلطة ممتازة، ليس مثل هنا، مطر دائم.
- قلت: لا يرتدون الأحذية هناك.
- ألا يفعلون؟
- بل يرتدون الصنادل.
- مثل ذلك الولد في الأغنية... ماذا كان اسمه؟
- تيرانس لونج.
- نعم، هو تيرانس لونج.
- ضحكنا.
- تيرانس لونج... لا يرتدي الجوارب... رائحته نتنة.
- قال بابا: تيرانس المسكين... دعك من الإسرائيليين على أي حال.
- سألته: كيف كانت الحرب العالمية الثانية؟
- قال: طويلة.
- أعرف التواريخ.
- قال: كنت طفلًا عندما بدأت، وكنت على وشك الانتهاء من المدرسة عندما انتهت.
- ست سنوات.
- ست سنوات طوال.
- يقول مستر هينييسي إنه لم ير موزة قبل أن يصير في الثامنة عشر.
- أصدقه.

- لوك كاسيدي جلب على نفسه العقاب، سأله ماذا كانت
القرود تأكل في أثناء الحرب.
- سأل بابا بعدما انتهى من الضحك: ماذا حدث له؟
- ضربه.
- لم يقل شيئاً.
- ست مرات.
- مؤلم!
- لوك حتى لم يفكر في ذلك بنفسه، كيفين كونروي هو من قال
له أن يسأل ذلك.
- يستحق ما جرى له إذن.
- كان يبكي.
- كل ذلك لأجل الموز.
- قلت: شقيق كيفين سينضم إلى F.C.A.⁽¹⁾.
- فعلاً؟ سيشد له ذلك ظهره.
- لم أفهم، ظهره كان مشدوداً بالفعل.
- هل دخلته يوماً؟
- الـ FCA؟
- نعم.
- لا.
- خلال الـ...

(1) Fórsa Cosanta Áitiúil أو جيش الدفاع المحلي في أيرلندا. [المترجم]

- أبي كان في LDF.
- ما هي تلك؟
- قوى الدفاع المحلية Local Defence Force.
- هل كان عنده سلاح؟
- أعتقد لا، ليس في البيت بحسب ما أعتقد على أي حال.
- سأنضم إليهم عندما أكبر بما يكفي، أيمكنني ذلك؟
- الـ FCA؟
- نعم، أيمكنني؟
- بالطبع.
- هل كانت أيرلندا في حرب من قبل؟
- لا.
- ماذا عن معركة كلونتارف⁽¹⁾؟
- ضحك، انتظرت.
- قال: تلك لم تكن حربًا.
- ماذا كانت إذن؟
- معركة.
- وما الفارق؟
- هممم... مثلًا الحروب طويلة.

(1) معركة حربية وقعت عام 1014 ميلاديًا في مدينة كلونتارف الأيرلندية، بين ملك أيرلندا براين بورو Brian Boru وتحالف من جيوش الفايكنج. انتهت بفوز الجيش الأيرلندي.
[المترجم]

- والمعارك قصيرة؟
- نعم.
- لماذا كان براين بورو في خيمة؟
- كان يصلي.
- في خيمة؟ لا أحد يصلي في خيمة.
- قال: أنا جائع، ماذا عنك؟
- وأنا أيضًا.
- ماذا سنأكل؟ هل عندك فكرة؟
- اللحم المفروم.
- جيد.
- كيف يمكن أن يقتلك الغاز؟
- يسممك.
- كيف؟
- لا يفترض أن تتنفسه، رئتاك لا تحتمله. لماذا؟
- قلت: اليهود.
- قال: أوه، نعم.
- لو دخلت أيرلندا حربًا، هل ستدخل الجيش؟
- لن تكون هناك حرب.
- قلت: ربما تحدث.
- قال: لا، لا أظن ذلك.
- قلت: الحرب العالمية الثالثة تلوح في الأفق.

قال: لا تفكر في ذلك.

- هل ستفعل؟

قال: نعم.

- وأنا أيضًا.

- جيد، وفرانسييس؟

قلت: إنه صغير جدًا، لن يأخذوه.

قال: لن تكون هناك حرب، لا تقلق.

قلت: لست قلقًا.

- جيد.

- كئنا في حرب ضد الإنجليز، أليس كذلك؟

- نعم.

قلت: تلك كانت حربًا.

- حسنًا، لم تكن تمامًا... أعتقد أنها كانت حربًا.

- ونحن كسبنا.

- نعم، لقد قتلناهم، ضربناهم ضربًا لن ينسوه قط.

ضحكنا.

تعشينا، كان العشاء رائعًا، اللحم المفروم لم يكن مطبوخًا أكثر من اللازم. جلسْتُ بجوار بابا على كرسي سندباد، سندباد لم يعترض.

- ليست أداس، بل هي أد-دييي-داس.

- لا، بل تُنطق أداس.

- لا، بالياء.

- بلا ياء.
- بالياء.
- بلا ياء.
- بالياءاااااا يا حمار.
- بلا ياء.

لا يملك أيُّ منَّا أحذية كرة قدم من نوع أديداس. وكلنا سنحصل عليها في الكريسماس. أردت واحدًا ذا مسامير في النعل. كتبت ذلك في خطابي إلى بابا نويل مع أنني لا أؤمن به، أكتب الخطاب فقط لأن ماما طلبت مني أن أفعل، لأن سندباد يكتب له أيضًا. سندباد أراد زلاجة، تساعده أمي على كتابة خطابه، أما خطابي فجاهز. كان في المظروف، لكنها لم تتركني ألحق حافته حتى الآن لأن خطاب سندباد يجب أن يكون فيه أيضًا. هذا ليس عدلًا، أريد مظروفًا لي وحدي.

قالت: توقف عن التذمر.

- أنا لا أتذمر.
- بل تفعل، توقف.

كنت أتذمر. وضع خطابين في نفس المظروف شيء غبي. بابا نويل سيحسبهما خطابًا واحدًا وسيأتي بهدية سندباد فقط وأنا لا. أنا لا أؤمن بوجوده على أي حال، لا يؤمن به إلا الأطفال. لو قالت إني أتذمر مجددًا سأقول لها ذلك، عندها ستضطر إلى قضاء اليوم كله في محاولة جعل سندباد يؤمن به مرة أخرى.

قالت لسندباد: لا أعتقد أن بابا نويل يجلب مزالج إلى أيرلندا.

- لماذا لا يفعل؟

قالت: لأنها نادرًا ما تتلج هنا، لن تتاح لك الفرص لاستخدامها.

قال سندباد: هناك ثلج في الشتاء.

- في أحيان قليلة.

- على الجبال.

قالت: ذلك على بُعد أميال عديدة.

- نذهب بالسيارة.

لم تفقد أعصابها. نفذ صبري. ذهبت إلى المطبخ. لو أنك رفعت مظروفاً فوق تيار البخار الخارج من غلاية مياه يمكنك أن تفتحه وأن تغلقه مجدداً دون أن يعرف أحدٌ بذلك. احتجت إلى كرسي كي أوصل قابس الغلاية بالكهرباء. تأكدت من أن هناك ماءً كافياً فيها. لم أكتفِ برفعها وتحسس وزنها، بل رفعت الغطاء ونظرت إلى الداخل. نزلت عن الكرسي ووضعت مكانه. لم أعد بحاجة إلى كرسي.

عدت إلى غرفة المعيشة. لا يزال سندباد يريد زلاجة.

قال: عليه أن يجلب لي ما أريد.

- نعم يا حبيبي.

- إذن ما المشكلة؟

قالت: هو لا يريدك أن تكون محبباً، بل يريد أن يعطي للأطفال هدايا يستطيعون اللعب بها طوال الوقت.

لم يتغيّر صوتها، لن توبّخه.

عدت إلى المطبخ. أخرجت خطابي من المظروف ووضعت على الطاولة بعيداً عن العلامة المبتلة الدائرية التي تركتها زجاجة الحليب مكانها. لعقت الجزء الصمغي من غطاء المظروف ثم لصقته. ضغطت عليه بقوة. صار البخار يخرج من فوهة الغلاية. انتظرت. أردت أن يجف الصمغ. زاد البخار، وبدأ يصفر. رفعت المظروف فوق

البخار مراعيًا ألا أحرق أصابعي. كان أقرب من اللازم، تبلل المظروف. رفعت يدي، صرت أحركه فوق وعبر البخار، لكن ليس لفترة طويلة. بدأ المظروف في الانثناء، كأنه يروح في النوم. أحضرت الكرسي ونزعت القابس، ووضعت الغلاية بجوار علبة الشاي حيث كانت من قبل. هناك طيور يابانية على علبة الشاي ذيولها مربوطة معًا. بات المظروف رطبًا نوعًا. خرجت به إلى الحديقة الخلفية، وضعت ظفر إبهامي تحت الغطاء الذي كان منزاحًا قليلًا، رفعت، نجحت المحاولة. لمست الجزء الصمغي، لا يزال لزوجًا. نجحت. عدت للداخل، الطقس كان باردًا والرياح قوية والشمس تغرب. لا أخاف الظلام، إلا عندما تصاحبه رياحٌ. وضعت خطابي مجددًا في المظروف.

سندباد كان ينهي خطابه.

ماما تتهجأ له: م. ي. ك. ا. ن. و.

لم يكن جيدًا في توصيل الحروف ببعضها. تركتني أضع الخطاب في المظروف. طويته منفصلًا ووضعت به بجوار خطابي.

عندما عاد بابا من الشغل زجَّ بالخطاب في أعلى المدخنة. كان مقرفصًا، يتأكد من أننا لا نرى ما يحدث بالضبط.

- هل وصلك الخطاب يا بابا نويل؟

ثم قال بصوتٍ عميقٍ يفترض أنه صوت بابا نويل: نعم، بالطبع.

نظرت إلى سندباد، لقد صدق أنه صوت بابا نويل ونظر إلى ماما. لم أنظر إلى ماما.

صاح بابا في المدخنة: هل ستمكّن من إحضار كل هذه الهدايا؟

أجاب: سأرى ما بوسعي، ربما أغلبهم، سأذهب الآن، لديّ منازل أخرى يجب أن أزورها، باي باي.

قالت ماما: قولوا باي باي لبابا نويل يا أولاد.

قال سندباد باي باي، واضطرتت إلى فعل المثل. خرج بابا من المدخنة وصار بوسعنا رؤيتها جيدًا.

قربتني للمياه الساخنة كانت حمراء، بلون مانشستر يونائتيد. قربة سندباد كانت خضراء. أحب رائحة الزجاجة. أملؤها بالمياه وأفرغها ثم أتشممها، أضع أنفي في الفتحة. جميل. أنت لا تملؤها بالماء ببساطة، ماما أرنتني كيف أفعل، عليك أن تمددها على جانبها وتصب فيها الماء ببطءٍ، وإلا سيعلق فيها الهواء ويتعفن المطاط ويفرقع. قفزتُ على زجاجة سندباد وهي ممتلئة، لم يحدث شيء. لم أكرر المحاولة. أحيانًا عندما لا يحدث شيء ذو بالٍ، فهو في الواقع يتجهز للحدوث.

*

بيت ليام وأيدان في الداخل كان أكثر ظلمة من بيتنا. ذلك كان بسبب الشمس، وليس لأنه متسخ ومترب. لم يكن متسخًا مثلما يقول الكثيرون عنه، كل ما في الأمر أن كل المقاعد والأشياء كانت متداعية مهلهلة. اللعب على الأريكة عظيم لأنها مليئة بالفجوات، ولم يأمرنا أحد قطُّ بالنزول عنها. نقف على مسند ذراعها أو على ظهرها ونقفز، ويصعد منّا اثنان على ظهرها ويتبارزان.

أحببت بيتهما، كان أفضل للعب؛ كل الأبواب مفتوحة، وليس هناك مكان لا يمكنك دخوله. ذات مرة كنّا نلعب الاستغماية، ودخل مستر أوكونيل المطبخ وفتح الخزانة بجوار الموقد، وكنت داخلها، فأخذ علبة من البسكويت وأغلق الباب مجددًا بهدوء شديد، ولم يقل شيئًا، ثم فتح الباب مرة أخرى وسألني همسًا إن كنت أريد بسكويتة.

البسكويت كان مهشمًا، في كيس بني، لم يكن به أي مشكلة عدا أنه كان مهشمًا. ماما لا تشتريه أبدًا.

أمهات بعض الأولاد في المدرسة يعملن في مصنع كادبوري. مامتي وماما كيفين لا يفعلن، وماما أيدان وليام ميتة. ماما إيان مكيفوي تفعل، لكن ليس طوال العام، فقط قبل عيد الفصح والكريسماس. أحيانًا يجلب إيان مكيفوي بيضة عيد فصح من الشيكولاتة للغداء؛ الشيكولاتة ممتازة لكن شكل البيضة غير سليم. قالت ماما إن مسز مكيفوي تعمل فقط لأنها مضطرة.

لم أفهم.

قالت: باباك يعمل في شغل أفضل من بابا إيان. ثم أردفت: إياك أن تقول شيئًا من هذا لإيان.

يعيش آل مكيفوي على الطريق.

- شغل بابا أفضل من شغل باباك.

- غير صحيح.

- بل صحيح.

- غير صحيح.

- بل صحيح.

- اثبت ذلك.

- مامتك تعمل في كادبوري لأنها مضطرة إلى ذلك!

لم يفهم ماذا أعني، ولم أفهم أنا أيضًا.

- لأنها مضطرة! لأنها مضطرة!

دفعته، فدفعني، تمسكت بالستارة بإحدى يديّ ودفعته بقوة بالأخرى. انزلقت إحدى قدميه من على الأريكة فوق. كسبت. انزلقت على الأريكة.

- أنا البطل... أنا البطل.

أحببت الجلوس في التجويف، خلف الزنبرك البارز. خامة الأريكة ممتازة. التصاميم عليها تُركت كما هي في حين شُذبت بقية الخامة كأنها عشب مجزوز. ملمس التصاميم، أي الزهور، مثل العشب الجاف، أو مثل مؤخرة رأسي بعد الحلاقة. لم يكن للخامة أي لون، لكن عندما يُضاء النور يمكنك أن ترى أن الزهور كانت ملونة ذات يوم. نجلس جميعًا ونشاهد التليفزيون. هناك دومًا مساحة واسعة ومعارك جامدة. لم يأمرنا مستر أوكونيل قط أن نخرج أو نهدأ.

طاولة المطبخ مثل طاولتنا، لكن هذا كان أقصى التشابه. مقاعدهم مختلفة، مقاعدنا متماثلة: كلها خشبية ذات مقعدة حمراء. ذات مرة عندما ناديتُ ليام كانوا يشربون الشاي وقت أن طرقت باب المطبخ، صاح مستر أوكونيل طالبًا مني الدخول. كان يجلس على جانب المائدة، حيث أجلس أنا وسندباد، وليس عند نهايتها مثلما يجلس بابا. أيدان كان يجلس عند النهاية. نهض وشغل الغلاية ثم جلس مجددًا حيث تجلس ماما دومًا.

لم أحب ذلك.

مستر أوكونيل هو من يحضر الفطار والعشاء وكل شيء. يأكلون رقائق البطاطس في كل غداء، كل ما أحظى به أنا هو السندوتشات، نادرًا ما آكلهم، أضعهم في الدرج تحت مكتبي. موز، لحم خنزير، جبن، مربى. أحيانًا أكل أحدهم وأضع البقية في الدرج. أعرف أن الدرج امتلأ أكثر من اللازم عندما تبدأ دواة الحبر في الاهتزاز، تتراقص من كومة السندوتشات تحت السطح الذي يرفعها. انتظرت حتى خرج هينو -دائمًا ما يخرج هينو. يقول إنه يعرف ما الذي يفعله عندما يدير لنا ظهره كي لا نحاول فعل شيء، وبشكلٍ ما نحن نصدقه- وأحضرت السلة من جوار مكتبه إلى مكتبي، وأفرغت أكياس

السندوتشات، راقبني الجميع. بعضها كان ملفوفًا بأوراق الألومنيوم، وبقيتها في أكياس بلاستيكية. كانت جامدة، تنمو فيها أشياء خضراء وزرقاء وصفراء. كيفين تحدى جيمس أو كيف أن يأكل أحدها، لكنه رفض.

- دجاجة.

- كل أنت واحدًا.

- ابدأ أنت أولاً.

- سأكل واحدًا لو أنك فعلت.

- دجاجة.

اعتصرت إحدى رقائق الألومنيوم فأخذت تتكدس في طرفها الأخر وتتشقق، كان ذلك مثل فيلم، أراد الجميع أن يرى، ديرموت كيلى وقع عن مكتبه وارتطمت رأسه بالمقعد. أعدت السلة إلى جوار مكتب هينو قبل أن يبدأ في الصراخ.

كانت سلة قشية، امتلأت حتى آخرها بالسندوتشات. فاحت الرائحة في الغرفة وازدادت شدة. الساعة لا تزال الحادية عشرة صباحًا، لا يزال أمامنا ثلاث ساعات.

وجبات عشاء مستر أوكونيل جامدة: برجر وأصابع البطاطس. لا يجهزهم بنفسه، يجلبهم معه إلى البيت بالقطار من المدينة، لأنه لم تكن هناك مطاعم في باريتاون حينها.

- ليباركه الرب. قالتها ماما عندما أخبرها بابا عن رائحة البطاطس والخل التي تفوح من مستر أوكونيل في القطار.

يصنع لهم البطاطس المهروسة. يزيل قلب تل البطاطس في الطبق فيصبح مثل بركان مفرغ، ثم يسكب فيه عَرَفَة كبيرة من الزبد، ويغطيها. يفعل ذلك في كل طبق. يصنع لهم أيضًا سندوتشات شرائح

اللحم المقدّد. يقدم لكّل منهم علب بودنج الأرز ويتركهم يأكلون من العلبة مباشرة. ولا يأكلون السلطة أبدًا.

سندباد لا يأكل شيئًا. كل ما يأكله هو الخبز والمربي. حاولت ماما أن تجعله يأكل عشاءه، قالت إنها لن تتركه يغادر المائدة دون أن ينهي أكله. ثار بابا وصرخ فيه.

قالت ماما لبابا: لا تصرخ فيه يا بادي.

لا يفترض بنا أن نسمع ذلك.

قال بابا: إنه يستفزني.

قالت: أنت فقط تزيد الأمر سوءًا. بات صوتها أعلى الآن.

- أنت تدليلينه، تلك هي المشكلة.

نهض واقفًا.

- سأذهب الآن لقراءة الجريدة. لو لم أجد هذا الطبق خاويًا

عندما أعود سأجعلك ترى.

أصبح سندباد منكمشًا في مقعده يحرق إلى الطعام متمنيًا زواله.

مضت ماما خلف بابا لتحدث معه أكثر. ساعدت سندباد على

تناول عشاءه. ظل الطعام يقع من فمه إلى الطبق والمائدة.

ترك بابا سندباد جالسًا لساعة كاملة حتى أصبح مستعدًا لتفقد

الطبق. وجده خاويًا، في بطني وفي السلة.

قال بابا: هذا ما يجب أن يكون.

أوى سندباد إلى فراشه.

هكذا هو بابا. يصبح فظًا من حين إلى حين، شديد الغلظة بلا

سببٍ. يمنعنا من مشاهدة التليفزيون في لحظة، وفي التالية يجلس

على الأرض بجوارنا ليشاهده معنا، وإن كان لا يطيل ذلك أبدًا. يقول إنه مشغول على الدوام، لكنه غالبًا يجلس في كرسيه.

لمعتُ كل شيء في البيت صباح يوم الأحد قبل الذهاب إلى القديس. أعطتني ماما قطعة قماش، غالبًا هي جزء من بيجاما قديمة. بدأت من غرفة نومهما في الدور العلوي. نظفت التريشة ورتبت فرش شعرها. لمعت قمة مسند الرأس، دائمًا ما تكون هناك أكوام من الغبار، وتركت علامة على القماشة. مسحت أيضًا صورة للمسيح بقدر ما تطول يدي. رأس المسيح مائلة إلى الجانب، مثل قطة صغيرة. تحمل الصورة أسماء بابا وماما وتاريخ زواجهما -خمسة وعشرين يوليو ألف وتسعمئة وسبعة وخمسين- وتواريخ ميلادنا جميعًا عدا أختي الصغرى، لأن أمي أنجبتها بعدها. كتب الأسماء الأب مالوني. اسمي كان أولهم: باتريك جوزيف، ثم أختي التي ماتت: أنجيلا ماري. ماتت قبل أن تخرج من أمي. ثم سندباد: فرانسيس ديفيد، ثم أختي: كاثرين أنجيلا. يوجد مكان متروك لأختي الجديدة. اسمها ديردري. أنا الأكبر؛ لدي نفس اسم بابا. هناك مساحة لستة أسماء أخرى. مسحت درجات السلم كلها، والدرابزين، ونظفت التحف في غرفة الرسم. لم أكسر شيئًا قط. هناك صندوق موسيقى قديم، تدير مفتاحًا في ظهره فيعزف أغنية، على واجهته صورة بحارة، ملمسه في الخلف متهالك. كان ملكًا لماما. لم أنظف المطبخ.

عمة أيدان وليام، تلك التي تعيش في راهيني، كانت تنظف بيتهما. أحيانًا يعيشان معها. كان عندها ثلاثة أبناء لكنهم جميعًا أكبر من أيدان وليام بكثير. زوجها يجزّ العشب للشركة. يهذب حواف شارعنا مرتين كل عام. أنفه ضخمة حمراء مثل إسفنجة، تنمو عليها كتل صغيرة. قال ليام إنها تبدو أفضل بكثير عن قرب.

سألته: هل تذكر مامتك؟

- نعم.

- كيف؟

لم يقل شيئاً، فقط تنفس. مكتبة سُر من قرأ

عمته كانت لطيفة، تمشي متبخرة ذهاباً وإياباً. تقول يا ربي على الحر أو يا ربي على البرد، بحسب حالة الطقس. عندما تدخل المطبخ تقول (شاي شاي شاي شاي). عندما تسمع جرس التبشير في السادسة تتجه إلى التلفزيون وتقول (الأخبار الأخبار الأخبار الأخبار). عروقتها كبيرة مثل الجذور، تتسلق جوانب وربلة ساقها. تخبز البسكويت، شرائح كبيرة ضخمة. بسكويتها رائع حتى عندما يبات.

كان عندهما عمة أخرى لم تكن في الواقع عمتهما. هذا ما أخبرنا به كيفين على أي حال، سمع باباه ومامته يتحدثان عنها، كانت صاحبة مستر أوكونيل، اسمها مارجريت، أحبها أيدان ولم يحبها ليام. كانت تعطيهما دوماً الكراميل المثلج عندما تأتي إلى البيت، وتتأكد من تقسيمه بينهما بالتساوي. تطبخ الحساء وفتائر التفاح. قال ليام إنها ضرطت ذات مرة بينما يجلس بجانبها، خلال مشاهدتهما لمسلسل الهارب⁽¹⁾.

- النساء لا يستطعن أن يضرطن.

- بل يستطعن.

- لا يستطعن، أثبت.

قال إيان مكيفوي: جدتي تضرط طوال الوقت.

- العجائز يضرطن، الصغيرات لا.

- مارجريت عجوزة.

(1) The Fugitive: مسلسل جريمة تليفزيوني أمريكي شهير من فترة الستينيات. [المترجم]

- الفول حلو، الفول مغذي، تاكل وتشبع وترجع تفسي.

راحت في النوم ذات مرة في بيتهما. حسبها ليام ستقع عليه - كانوا يشاهدون التليفزيون- لكنها كانت تميل لا أكثر. أخذت تغط. أمسك مستر أوكونيل بأنفها، فشخرت، ثم توقفت.

خلال أيام الإجازات، بعد يوم الكريسماس، ذهب ليام وأيدان إلى عمتهم الحقيقية في راهيني، ولم نرهم لدهور. كان ذلك لأن مارجريت انتقلت إلى بيتهم مع مستر أوكونيل. عندهم غرفة خاوية في منزلهم. تقسيمة منزلهم مثل منزلنا بالضبط. ليام وأيدان ينامان في نفس الغرفة، وليس لديهما شقيقات، لذا توجد غرفة متبقية. مارجريت كانت في تلك الغرفة.

قال كيفين: لا، ليست فيها.

عمة ليام وأيدان الحقيقية أخذتهما بعيداً. ذهبت إلى بيتهم في منتصف الليل. تلقت رسالة من الشرطة تخبرها أنها يمكنها أن تأخذهما لأن مارجريت انتقلت إلى بيتهما وهذا لا يصح. هذا كان ما سمعته. أضفت إليه القليل: وضعت ليام وأيدان في ظهر شاحنة الشركة التي يقودها زوجها. سعدت عندما سمعت هذا يتردد بعدما اخترعته، أما بقية الحكاية فأنا أصدقها.

زوج عمتهما أخذنا في فسحة على ظهر شاحنة الشركة ذات مرة، لكنه جعلنا ننزل لأننا لم ننفك عن الوقوف مع إنه قال لنا إن هذا خطر، وإنه غير مؤمن عليه من أن يقع أحدها ويهشم رأسه على الطريق.

مشينا إلى راهيني. استغرقتنا وقتاً طويلاً لأن لم يكن هناك من يحرس أبراج أسلاك الكهرباء، فأخذنا نتسلق ونلعب. كانت هناك أكوام من أعمدة الأسلاك، ورائحة قطران. حاولنا كسر قفل السقيفة لكننا لم نفلح. لم نرد أن نكسره في الحقيقة، بل تظاهرنّا أننا نفعل، أنا وكيفين. كنّا ذاهبين إلى بيت عمّة ليام وأيدان.

وصلنا. كانت تعيش في كوخٍ بالقرب من مركز الشرطة.

سألت: هل ليام وأيدان سيخرجان؟

كانت قد فتحت الباب.

قالت: لقد خرجا بالفعل، ذهبا إلى البحيرة. إنهما يكسران الثلج لأجل البط.

هكذا ذهبنا إلى بحيرة سانت آني، لم يكونا هناك، بل كانا أعلى شجرة. ليام كان أعلاها، حيث الأخشاب هشة، وكان يهز الفروع كالمجانين. أيدان لم يستطع أن يصل إلى ارتفاع مماثل.

قال كيفين: يا شباب.

ظل ليام يهزُّ الشجرة.

- أهلاً.

ليام توقف.

لم ينزلا، فصعدنا نحن.

قال كيفين: لماذا تعيشان مع عمكما وليس مع باباكما؟

لم يقولا شيئاً.

- نعلم لماذا.

غادرنا عبر ملعب كرة غالية⁽¹⁾. استدرت، كان بوسعي بالكاد رؤيتهما في الشجرة. كانا ينتظران اختفاءنا عن أنظارهما. بحثت عن حجارة، ولم أجد.

قلت أنا أيضاً: نعلم لماذا.

(1) كرة القدم الغالية Gaelic football: تسمى أيضاً كرة القدم الأيرلندية، وهي رياضة أيرلندية، مزيج من كرة القدم العادية والرجبي. [المتجم]

- نعلم جميعًا.

- بريندان بريندان تعال بص

تحت لباسي شعرة ونص

اسم مستر أوكونيل كان بريندان.

- بريندان بريندان تعال بص

تحت لباسي شعرة ونص

- أتعرفان، سمعت بابا يقول لماما "متى كانت آخر مرة سمعته فيها يعوي على القمر؟".

مارجريت كانت خارجة من المتاجر، وكنا في انتظارها خلف سياج بيت كيفين. سمعنا خطواتها. استطعنا رؤية لون معطفها عبر السياج.

- بريندان بريندان تعال بص

- تحت لباسي شعرة ونص

أردت أن أشرب. لا أريد أن أشرب من مياه الحمام، أريد مياه المطبخ. وجدت السلم مظلمًا على عكس مصباح الإضاءة الليلية في غرفة النوم. تحسست بحثًا عن السلم.

كنت قد نزلت ثلاث درجات فقط عندما بدأت أسمعهم، أشخاصًا يتحدثون، يصيحون بشكلٍ ما. توقفت، الجو بارد.

الصوت من المطبخ. لصوص! سأذهب لإحضار بابا من سريره.

لكن التليفزيون كان مفتوحًا.

جلست، الجو بارد.

التليفزيون يعمل، أي أن بابا وماما ليسا في السرير، لا يزالان في الدور السفلي. لم يكن من في المطبخ لصوصًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

باب المطبخ ليس مغلقًا، الضوء الخارج منه يصل إلى درجات السلم تحتي. لم أستطع تمييز ما يقولان.

- توقفًا.

قلتها همسًا فقط.

لبعض الوقت كان بابا وحده من يصيح، بالطريقة التي يصيح بها الناس عندما يحاولون ألا يفعلوا، لكنهم ينسون ذلك، نوعًا من الهمس الصارخ.

اصطكت أسناني، تركتها تصطك، أحب ذلك الشعور.

لكن ماما تصيح أيضًا. أستطيع الشعور بصوت بابا، لكني لا أسمع إلا صوتها. إنهما يخوضان أحد شجارتهما.

- ماذا عنك؟

هي من قالت ذلك، الشيء الوحيد الذي تمكنت من سماعه جيدًا.

- توقفًا.

قلتها مجددًا.

ساد السكون لبعض الوقت. لقد نجحت، أجبرتهما على التوقف. خرج بابا واتجه إلى التلفزيون. أعرف ثقل خطواته والزمن بينها، ثم رأيته.

لم يصفعا الأبواب، انتهى الشجار.

ظلمت في مكاني دهورًا.

سمعت ماما تفعل أشياء في المطبخ.

لو أن حسانك السيسي بصحة جيدة فجلده سيكون رخوًا لدنًا، ولو أنه مريض فجلده سيكون مشدودًا صلبًا. جون لوجي بيرد هو من

اخترع التليفزيون عام 1926، وهو من أسكتلندا. الغيوم التي تحوي داخلها مطراً تُسمى عادة نيمبوستراتوس. عاصمة سان مارينو هي سان مارينو. جيسي أوينز فاز بأربع ميداليات فضية في أولمبياد 1936 وهتلر كان يكره الرجال السود والأولمبياد كانت في برلين وجيسي أوينز كان رجلاً أسود وبرلين هي عاصمة ألمانيا. أعرف كل هذه الأشياء، قرأتها كلها، أقرأ تحت البطانية بمصباحي، ليس فقط عندما أذهب إلى النوم، بل لأن القراءة مثيرة أكثر بتلك الطريقة، كأني أتجسس وأخشى أن يُقبض عليّ.

قمت بواجبي بطريقة برايل، استغرقت دهوراً، فقد راعيت ألا تتمزق الصفحة بالإبرة. عندما انتهيت صارت هناك العديد من النقط الصغيرة على طاولة المطبخ. عرضت البرايل الذي كتبه على بابا.

- ما هذا؟

- برايل، كتابة المكفوفين.

أغلق عينيه وتحسّس النتوءات في الصفحة.

سأل: ما المكتوب؟

قلت له: إنه واجب اللغة الإنجليزية، خمسة عشر سطرًا عن حيوانك الأليف المفضل.

- هل معلمك أعمى؟

- لا، أنا فقط أجرب، وفعلتها جيداً.

هينو سيقتلني لو أني جلبت له الواجب فقط بطريقة برايل.

قال بابا: ليس عندك حيوان أليف.

- يمكننا أن نتخيل أن عندنا واحدًا.

- ما الذي اخترته؟

- كلبًا.

رفع الصفحات عاليًا ونظر إلى النور عبر الثقوب، لقد فعلت هذا بالفعل.

قال: شاطر.

تحسس النتوءات مرة أخرى وأغلق عينيه.

قال: لا أستطيع تمييز الفارق، هل تستطيع أنت؟

- لا.

- أعتقد أنك لو خسرت بصرك فبقية حواسك تتولى زمامك،
أليس كذلك؟

- نعم، كتابة برايل اخترعها لويس برايل عام 1836.

- فعلاً؟

- نعم، أصابه العمى في حادثة بطفولته، وكان في فرنسا.

- وأسمائها على اسمه؟

- نعم.

حاولت. حاولت أن أقرأ بأصبعي. أعرف بالفعل الموجود في الصفحات. نزلت تحت البطانية ولم أشعل المصباح، لمست الصفحة بخفة، مجرد نتوءات، بثور. حيواني الأليف المفضل هو الكلب؛ هكذا بدأت سطورى الخمسة عشر، لكنني لا أستطيع قراءة البرايل، لا أستطيع تمييز النقاط، ولا حيث يبدأ كل حرف وحيث ينتهي.

حاولت أن أكون أعمى، لكنني لم أنفك أفتح عينيّ. ربطتُ عصابة حول رأسي، لكنني لم أتمكن من إتقان ربط العقدة، ولم أود إخبار أي شخص بما أفعله. قلت لنفسي إني سأضع إصبعي على سخان الموقد الكهربائي مقابل كل مرة أفتح فيها عيني، لكنني عرفت أنني لن أفعل،

لذا ظللت أفتح عيني. فعلتها ذات مرة، لأن كيفين طلب مني أن أفعل، أقصد وضع إصبعي على سخان الموقد. ظلّت هناك علامة كالشريط لأسابيع بعدها، ولم أتوقف عن تشمم إصبعي المحروق.

متوسط عمر الفئران هو ثمانية عشر شهراً.

ماما صرخت.

لم أستطع أن أتحرك، لم أستطع أن أذهب وأرى.

كانت قد دخلت الحمام ووجدت فأراً يركض داخل صحن المرحاض. بابا كان في البيت، فتح عليه مياه السيْفون واكتسحت المياه جسد الفأر لأنه كان قريباً من الحافة. حشر بابا قدمه في المرحاض وركل الفأر إلى داخل المياه، صرت أريد أن أرى، أعلم الآن لماذا تصرخ، لم يكن هناك مكان، الفأر يعوم محاولاً الخروج من الجانب، وبابا اضطر إلى أن ينتظر امتلاء السيْفون مجدداً.

قالت ماما: يا ربي، يا ربي، هل سيموت يا بادي؟

بابا لم يرد عليها، كان يعد الثواني حتى يتوقف صوت جريان المياه إلى الخزان، بوسعي رؤية شفّتيه.

قلت لهم: متوسط عمر الفأر ثمانية عشر شهراً.

قرأت هذا لتوي.

قال بابا: ليس في هذا البيت.

كادت ماما أن تضحك، ربتت على رأسي.

- هل يمكنني أن أرى؟

تنحّت عن الطريق، ثم تراجعت.

قال بابا: دعيه.

يستطيع الفأر أن يكون سباحًا ماهرًا لو أراد، لكنه لم يكن يحاول إتقان السباحة، كان فقط يحاول الجري خروجًا من المياه.

قال بابا: بالسلامة.

ثم أطلق السيفون.

قلت: أيمكنني الاحتفاظ به؟

فكرت في هذا لتوي، حيواني الأليف المفضل.

دار الفأر مع المياه حول المرحاض وأخذته إلى الأسفل داخل المياه وخارج المرحاض، إلى الأنابيب. أراد سندباد أن يرى.

قلت: سيخرج عند الواجهة البحرية.

نظر سندباد إلى الماء.

قالت ماما: سيكون سعيدًا، هذا طبيعي بالنسبة إليه.

قلت: هل يمكنني الحصول على فأر؟

قال بابا: لا.

- في عيد ميلادي؟

- لا.

- في الكريسماس؟

- لا.

قالت ماما: إنهم يخيفون الغزلان، هيا بنا.

تريدنا أن نخرج من الحمام، ونحن ننتظر ظهور الفأر مجددًا.

قال بابا: ماذا؟

قالت ماما: الفئران، يفرعون غزلان بابا نويل.

وأومات إلى سندباد.

قال بابا: هذا صحيح.

قالت: هيا الآن يا شباب.

قال سندباد: أريد استخدام المرحاض.

قلت له: سيعضك الفأر.

قال سندباد: سأقوم برقم واحد⁽¹⁾، وأنا واقف.

قلت: سيعضك في بلبلك.

ماما وبابا كانا ينزلان الدرج.

وقف سندباد بعيداً عن المرحاض، فبَلَّ المقعد والأرض.

صحت: فرانسيس لم يرفع قاعدة المرحاض.

- بل رفعتها.

ركل القاعدة من على المرحاض.

قلت: رفعها الآن فقط، بعدما قلت إنه لم يفعل.

لم يعودا. ركلت سندباد بينما يمسخ القاعدة بكمه.

قال كيفين: لو أن العالم يتحرك، لماذا لا نتحرك معه؟

كنا ممدين فوق صناديق مفروشة فوق العشب الطويل. العشب كان مبتلاً. عرفت الإجابة لكني لم أقلها. كيفين يعرف الإجابة، لهذا ألقى السؤال، أعلم هذا، بوسعي التخمين من صوته. لا أجيء عن أسئلة كيفين أبداً، لا أتسرّع بالرد، في المدرسة أو في أي مكان، أعطيه دائماً الفرصة ليجيب أولاً.

(1) (رقم 1) هو تعبير طفولي مهذب شائع للإشارة إلى فعل التبول في كثير من الدول الناطقة بالإنجليزية، وبالتالي يُستخدم تعبير (رقم 2) للإشارة إلى فعل التغوط [المترجم].

أفضل قصة قرأتها على الإطلاق كانت عن الأب داميان والمجدومين. الأب داميان كان اسمه جوزيف دي فوستر قبل أن يصبح قسًا. وُلِدَ عام 1840 في مكان يُدعى تريميلو في بلجيكا.

أحتاج إلى بعض المجدومين.

عندما كان طفلًا نادوه باسم جيف، وكان ممتلئًا. كل الكبار كانوا يشربون البيرة الفلمنكية الداكنة. أراد جوزيف أن يصبح قسًا لكن أباه لم يوافق، ثم وافق.

سألت: كم يقبض القساوسة؟

قال بابا: كثيرًا جدًا.

قالت ماما لبابا: ششش يا بادي. ثم قالت لي: لا يقبضون شيئًا.

- لم لا؟

- الأمر مُعقَّد... إنهم يستجيبون لنداء الرب.

- ما هذا؟

التحق جوزيف بمجموعة قساوسة تُدعى كنيسة القلوب المقدسة ليسوع ومريم. القس الذي أسَّس تلك المجموعة عاش حياة مليئة بالهروب في آخر لحظة والمغامرات المثيرة خلال الثورة الفرنسية، عاش مهديدًا بظل المقصلة. توجب على جوزيف أن يُسمى باسم جديد، وسمّى نفسه داميان على اسم رجلٍ يُدعى داميان صار شهيدًا عندما كانت الكنيسة لا تزال في مهدها. كان الأخ داميان في البداية قبل أن يصير الأب داميان. ذهب إلى هاواي. في أثناء طريقه إلى هناك، خدعه قبطان السفينة، جاء بتليسكوب ووضع شعرة على عدسته، وجعل الأب داميان ينظر منه، وقال له إن هذا هو خط الاستواء. الأب داميان صدقه، لكن هذا لا يجعله أحمق، فهذه الأشياء لم تكن معروفة في تلك الأيام. اضطر الأب داميان إلى صنع خبز التناول المقدس من

الدقيق على السفينة، لأن رقاقت خبز التناول معه قد نفدت. لم يصبه دوار البحر، وجد نفسه قادرًا على الحياة في البحر فور أن ركبته. خبز فيينا ممتازٌ لصنع رقاقت التناول عندما يكون طازجًا، لست مضطرًا إلى أن تبلّله. خبز الباتش ليس سيئًا أيضًا، لكن شرائح الخبز العادية لا نفع منها، تنتفش كل مرة بعد ضغطها. يصعب تقطيع الرقاقت في أشكالٍ دائرية سليمة، أستخدم لذلك بنسًا أخذته من محفظة أبي، قلت لماما إني سأخذه حتى إذا رأته في مشكلة. أضغط البنس بقوة شديدة على الخبز المسطح، وأحيانًا ما يأخذ الخبز شكل البنس. رقاقت التناول التي أصنعها أفضل من الحقيقية. تركتها على عتبة النافذة ليومين فصارت ناشفة مثل الحقيقية، لكن لم يعد طعمها جيدًا. تساءلت إن كان صناعي لرقائق التناول خبيثة، لا أعتقد ذلك. إحدى الرقاقت على عتبة النافذة تعفّنت، تلك كانت خبيثة، أعني تركها تتعفّن. رددت صلاة السلام عليك يا مريم مرة ورددت أبانا الذي في السماوات أربعًا، لأني أفضل أبانا الذي في السماوات على السلام عليك يا مريم، لأنها أطول وأفضل. رددتهم في نفسي في الظلام.

- جسد حقيقي.

قال سندباد: آمين.

قلت: أغلق عينيك.

فعل كما قلت.

- جسد حقيقي.

- آمين.

رفع رأسه وأخرج لسانه، أعطيته الرقاقة المتعفنة.

سألت ماما: كيف يصنع القساوسة رقاقت التناول؟

قالت ماما: بالدقيق، إنه يظل خبزًا عاديًا حتى يباركوه.

- ليس خبزًا حقيقيًا.

قالت: خبز من نوع مختلف، خبز غير مختمر.

- وما هذا؟

- لا أعرف.

لا أصدقها.

الجزء الممتع فعلاً من القصة يبدأ عندما يزور الأب داميان مستعمرة المجذومين. اسمها كان مولوكاي. مستعمرة المجذومين هي المكان الذي يضعون فيه كل المجذومين كي لا يعدون به الآخرين. الأب داميان عرف جيداً ماذا كان يفعل، عرف أنه باقٍ هناك إلى الأبد. ارتسم على وجه الأب داميان تعبيرٌ غريبٌ عندما قال للأسقف إنه يريد الذهاب إلى هناك. ابتهج الأسقف وتأثر بشجاعة المبشر الشاب. كنيسة مولوكاي الصغيرة كانت متهدمة ومهملة، لكن الأب داميان أصلحها. كسر فرع شجرة وصنع منه 48 مكنسة وبدأ في كنس أرض الكنيسة الصغيرة، وزرع فيها الورود. المجذومون أخذوا يتمشون بالقرب من الكنيسة وظلوا يراقبونه لدهور. كان رجلاً صحيحاً ضخماً وهم ليسوا إلا مجذومين. مرَّ اليوم الأول ولم يأتِ المجذومون لمساعدته. عندما ذهب إلى السرير كان بوسعه سماع أنينهم في الظلام، وسماع تكسر الأمواج على الشاطئ القاحل. لم أشعر من قبل أن بلجيكا بعيدة إلى هذه الدرجة. بعد فترة جاء المجذومون لمساعدته، وصاروا أصدقاء، أطلقوا عليه اسم كاميانو.

- هل هناك مجذومون في أيرلندا؟

- لا.

- ولا واحد؟

- لا.

بنى الأب داميان كنيسة أفضل وبنى بيوتًا والعديد من الأشياء الأخرى، وعلمهم كيف يزرعون الخضروات. كان يعرف طوال الوقت أنه سيصاب هو أيضًا بالجذام، لكنه لم يابه. ذروة سعادته كانت في رؤية أبنائه، الأولاد والبنات الذين ضمهم تحت جناح رعايته. قضى معهم عدة ساعات من كل يوم.

تقع عن المجذومين قطع من أجسامهم، هذا ما يحدث لهم. هل سمعت عن راعي البقر المجذوم؟ هو من رمى ساقه من فوق حصانه. هل سمعت عن المقامر المجذوم؟ هو من رمى يديه مع الورق.

ذات مساء في ديسمبر 1884، وضع الأب داميان قدميه المتألمتين في بعض المياه ليخفف من وجعه. تناثرت في شتى أنحاء قدميه بثور حمراء، الماء ملتهب لكن قدميه مخدّرتان. عرف أنه مصابّ بالجذام. قال الطبيب بحزن: لا أحب أن أخبرك بذلك، لكنها الحقيقة. لكن الأب داميان لم يعترض، قال: أنا مجذوم، الحمد للرب.

قلت: الحمد للرب.

أخذ بابا يضحك.

قال: من أين جئت بما قلت؟

قلت: قرأتها، هذا ما قاله الأب داميان.

- من فيهم؟

- الأب داميان والمجدومون.

- آه، صحيح، كان رجلاً طيباً.

- هل كان هناك أي مجذومين في أيرلندا؟

- لا أظن ذلك.

- لم لا؟

- أعتقد أن ذلك يحدث فقط في الأماكن الحارة.

قلت: أحيانًا ما يكون الجو هنا حارًا.

- ليس بالدرجة الكافية.

- بل كافية.

قال بابا: لا ليست كافية، يجب أن يكون الطقس حارًا جدًا جدًا جدًا.

- حار أكثر منَّا إلى أي درجة؟

قال بابا: خمسين درجة.

لا يوجد علاج للجذام. لم يخبر أمه في خطابه لها، لكن الأخبار وصلت. أرسل الناس الأموال إلى الأب داميان، وبنى بها كنيسة أخرى. بناها من الحجارة. لا تزال الكنيسة موجودة ويمكن أن يراها المسافرون إلى مولوكاي اليوم. قال الأب داميان لأبنائه إنه يموت، وإن الراهبات سيرعونهم من الآن فصاعدًا. تعلّقوا بقدميه وقالوا: لا لا يا كاميانو، نريد أن نبقى معك ما دمت هنا. عادت الراهبات بأيدي خاوية.

- افعلها مجددًا.

تعلق سندباد بساقيّ.

- لا لا يا كام... كام...

- كاميانو!

- لا أستطيع حفظها.

- كاميانو.

- ألا يمكن أن أقول باتريك فقط؟

- لا، افعلها مرة أخرى، وعليك أن تفعلها أحسن.

- لا أريد.

أعطيته تعذيبًا صينيًا⁽¹⁾. تعلق بساقيّ.

- تحت أكثر.

- إلى أي مدى؟

- تحت.

- ستركلني.

- لن أركلك. سأركلك إن لم تفعل.

تعلق بي سندباد حول الكاحلين. قبض عليهما بإحكام حتى باتت قدماي ملتصقتين.

- لا لا يا كاميانو، نريد أن نبقي معك ما دمت هنا.

قلت: حسنًا يا أبنائي، يمكنكم البقاء.

قال سندباد: شكرًا جزيلاً يا كاميانو.

ظل متعلقًا.

مات الأب داميان في أحد السعف. جلس الناس على الأرض يضربون على صدورهم بحسب تقاليد أهل هاواي العتيقة، ويتأرجحون إلى الخلف والأمام وينوحون. ذهب عنه الجذام، لم تكن على جثته قشورٌ أو أي شيء آخر. كان قديسًا. قرأت القصة مرتين.

أحتاج إلى مجذومين. سندباد ليس كافيًا، يهرب كل مرة. قال لماما إنني أجعله مجذومًا وهو لا يريد أن يكون كذلك. لذا أحتاج إلى مجذومين. لا أستطيع أن أقول لكيفين، لأن هذا يعني أنه سيصبح الأب

(1) تعذيب صيني Chinese torture، وتُعرف أيضًا بالحرقة الصينية Chinese burn: من أساليب الإيذاء الشائعة بين الصبيان في الساحات، وتعني إمساك ساعد الضحية بكلتا اليدين بقوة، ثم ثني كل يد في اتجاه عكس الأخرى، ما يسبب ألمًا بالغًا في جلد الساعد. [المترجم]

داميان وأنا المجدوم، وتلك قصتي أنا. جئت بالتوأمين مكارثي وويلي هانكوك. حسبوا أن من الرائع أن يلعبوا مع الولد الكبير، أنا. جعلتهم يأتون إلى حديقتنا الخلفية، وقلت لهم من هم المجدومين. أرادوا أن يكونوا مجدومين.

سأل ويلي هانكوك: هل يستطيع المجدومون السباحة؟
قلت: نعم.

قال أحد التوأمين مكارثي: لا نستطيع السباحة.

قال ويلي هانكوك: يستطيع المجدومون السباحة.

قلت: ليس عليهم أن يسبحوا، ليس عليك أن تسبح، عليك فقط أن تتظاهر بأنك مجدوم، هذا سهل، عليك أن تكون مريضاً قليلاً وتترنج. ترنحوا.

- أيستطيعون الضحك؟

قلت: نعم، لكن عليهم أن يتمددوا أحياناً كي أستطيع أن أمسح على جبينهم وأصلي عليهم.

- أنا مجدوم!

- أنا مجدوم! ترنج، ترنج، ترنج!

- ترنج ترنج يا مجدوم.

- ترنج ترنج يا مجدوم.

- أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، لي...

- ترنج ترنج ترنج.

- اخرسوا قليلاً.

- ترنج ترنج ترنج.

كان عليهم العودة إلى بيوتهم لتناول العشاء. سمعتهم عبر السياج وهم في طريقهم إلى بيوتهم:

- أنا مجذوم، ترنح ترنح ترنح!

قلت لماما: لقد نوديت.

قلتها على سبيل الاحتياط، إذ ربما تأتي مسز مكارثي أو مسز هانكوك وتطرق بابنا.

كانت لا تزال تطبخ العشاء وتمنع كاثرين من تسلق الخزانة تحت الحوض حيث مساحيق التنظيف والفرش.

- وما هذا يا باتريك؟

قلت: لقد نوديت.

حَمَلْتُ كاثرين.

- هل كان هناك من يتحدث معك؟

لم يكن هذا ما توقعته.

قلت: لا، سأصبح مبشرًا.

قالت: فتى صالح.

لكن هذا لم يكن ما أردته، أردتها أن تبكي، أردت أن يصفحني أبي، قلت له هذا عندما عاد من عمله.

- لقد نوديت.

قال: - لا، أنت صغير على ذلك.

- بل نوديت، كلمني الرب.

كل شيء خطأ.

تحدث إلى ماما.

قال: قلت لك.

بدا صوته غاضبًا.

قال: لماذا تشجعيه على هذا الغباء؟

قالت: لم أشجعه.

قال: بل فعلتي.

بدت عازمة على رأيها.

قال صارخًا: فعلتي!

خرجت ماما من المطبخ تكاد تركز، حاولت فك عقدة مريلة الطبخ، ذهب بابا في إثرها، بدا مختلفًا، كأنه ضُبط متلبسًا بشيء ما. تركاني وحدي. لم أعرف ماذا حدث، لم أعرف ماذا فعلتُ. عادا. لم يقولا شيئًا.

الحلزونات والبزاقات بطنقدميات، أي أنهم عندهم أقدام في بطنهم. دلقت الملح على بزاق، وراقبته يتعذب ويتألم. التقطه بجاروف ومنحته دفنة محترمة. الاسم الحقيقي لرياضة الساكر هو كرة القدم الاتحادية. كرة القدم الاتحادية يلعبها فريقان من أحد عشر شخص بكرة مستديرة في ملعب مستطيل. الغرض هو إحراز الأهداف، أي إجبار الكرة على الدخول في مرمى الخصم، الذي يتشكّل من عمودين منتصبين تستقر فوقهما عارضة. حفظت كل هذا عن ظهر قلب، وأحببته، لا تبدو لي تلك كقواعد، بل أشياء ممتعة. أكبر نتيجة على الإطلاق في تاريخ كرة القدم كانت أربوروث 36 وبون أكورد 0. جو باين أحرز أكثر عدد أهداف في مباراة واحدة، عشرة، لصالح فريق لوتون عام 1936. جيرونيمو كان آخر الأباتشي المتمردين.

حملت الكرة. كُنّا في حديقة باريتاون، كان لها حاجزٌ طويلٌ يحمي الكرة من الضياع. الكرة كانت مفرقة.

قلت: الغرض هو إحراز الأهداف، أي إجبار الكرة على دخول مرمى
الخصم، الذي يتشكّل من عمودين منتصبين تستقر فوقهما عارضة.

انفجروا في الضحك.

- قل هذا مجددًا.

فعلت، وافتعلت لهجة متحذقة. ضحكوا مجددًا.

- جير-أو-نيمو!

كان آخر المتمردين الأباتشي، المتمرّد الأخير.

- أنت متمرّد يا مستر كلارك.

يلقبنا هينيسي أحيانًا بالمتمردين قبل أن يضر بنا.

- ماذا أنت؟

- متمرّد يا سيدي.

- بالضبط.

- متمرّد!

- متمرّد متمرّد متمرّد!

كان عندي صورة لجيرونيمو، كان راكعًا على ركبة واحدة، مرفقه
الأيسر يستقر على ركبته اليسرى. لديه بندقيّة، لديه وشاح يحيط
برقبته وقميص ذو بقع لم ألاحظها لدهور إلا بعدما علقت الصورة على
حائطي. لديه سوار يبدو مثل ساعة يحيط بمعصمه الأيمن، ربما سرقه،
ربما قطع ذراع أحدهم ليحصل عليه منه. أفضل شيء في الصورة هو
وجهه، ينظر مباشرة إلى الكاميرا، ينظر عبرها، لم يكن خائفًا منها، لم
يعتقد أنها ستقبض على روحه مثلما اعتقد بعض منهم. شعره أسود
يفترق في المنتصف، وينسدل على كتفيه ناعمًا مستقيمًا، لا هائشًا ولا
ثائرًا. بدا وجهه هرمًا جدًّا، لكن بقية بدا شابًا.

- بابا؟
- ماذا؟
- ما هو عمرك؟
- ثلاثة وثلاثون.

قلت له: جيرونيمو كان أربعة وخمسين.

قال: ماذا؟ دائماً؟

كان في الرابعة والخمسين عندما التقطت الصورة. ربما أكبر. بدا شرساً وحزيناً. خط فمه مقلوب مثل وجه كارتوني حزين. عيناه مغرورقتان وسوداوان، وأنفه كبير. ربما كان يعرف ما الذي سيحدث له. الجزء الظاهر من رجله في الصورة يبدو مثل البنات، بلا شعر ولا كدمات. يرتدي حذاءً طويل الرقبة. توجد حوله شجيرات. وضعت أصابعي فوق أعلى رأسه لتغطيته، وجهه مثل وجه امرأة عجوز، امرأة عجوز حزينة. رفعت أصابعي وعاد جيرونيمو مجدداً. كانت صورة بالأبيض والأسود، لكنني لوّنت قميصه بالأزرق. استغرق ذلك مني دهوراً.

رأيت صورة أخرى له في كتاب، جيرونيمو مع محاربيه. كانوا في حقلٍ واسعٍ، جيرونيمو في المنتصف، يرتدي معطفاً ووشاحاً مخططاً. ظل يبدو هرمًا وشاباً في نفس الوقت، كتفاه عجوزان، ورجلاه شابتان. لم تشبه أيُّ من الصور في الكتب أشكال الهنود في الأفلام. كانت هناك تلك الصورة (هنود الثعبان والسيوكس على طريق الحرب⁽¹⁾). هندي الرئيسي فيها شعره كان ذيل حصان فقط وبقية الرأس صلعاء ولامعة مثل تفاحة. يركب الحصان متعقلاً بجانبه كي يتفادى الأسهم

(1) Snake and Sioux Indians on Warpath: لوحة زيتية للفنان الأمريكي ألفريد ميلر

(1810 - 1874). [المترجم]

التي يطلقها الآخرون عليه. عين الحصان تنظر إليه، بدا الحصان خائفًا. تلك كانت لوحة مرسومة، أحببتها. هناك أخرى عظيمة لهندي يقتل جاموسًا. رأس الجاموس تحت الحصان، على الهندي أن يقتله بسرعة وإلا سيقلب الحصان برأسه. شيء ما بخصوص الهندي الراكب على الحصان، ظهره المنتصب وذراعه الحاملة للحربة الممدودة، جاهزة، جعلني أعلم أنه سيفوز. على أي حال اللوحة تُدعى آخر الجاموس⁽¹⁾. هناك هنود آخرون في حافة اللوحة يطاردون مزيدًا من الجاموس. الحقل مفروش بجماجم الجاموس، وهناك جاموس ميت ممدد في كل مكان. لم أستطع تعليق هذه اللوحة على حائط غرفتي لأنها كانت من كتاب مُستعار من مكتبة. أذهب إلى مكتبة بالدويل، أذهب مع بابا، هناك غرفة مخصصة للكبار وغرفة مخصصة للأطفال. كان دائمًا ما يتدخل. يأتي إلى ناحيتنا من المكتبة بعد أن يبذل كتبه ويبدأ في اختيار كتبٍ من أجلي، ولا يعيدهم إلى مكانهم الأصلي كما يجب أبدًا.

- قرأت هذا عندما كنت في سنك.

لا أريد أن أعرف ذلك.

يمكنني أن آخذ كتابين. نظر إلى الأغلفة.

- الهنود الأمريكيان.

أضف الكتاب إلى بطاقتي المكتبية، دائمًا ما يفعل ذلك أيضًا. نظر إلى الكتاب الآخر.

- دانييل بون، بطل. رجل ممتاز.

(1) The Last of the Buffalo: لوحة زيتية للفنان الأمريكي ألبرت بيرشتات (1830 - 1902).

أقرأ في السيارة. أستطيع القراءة في السيارة ولا يصيبني الغثيان ما دمت لا أرفع عيني عن الكتاب. دانييل بون كان أحد أعظم الرواد الأمريكيين، لكنه مثل العديد من الرواد الآخرين لم يكن شديد البراعة في الكتابة. نحت شيئًا ما على شجرة بعد أن قتل دُبًا.

”د. بون كتل دبة على الشجرة دي 1773“.

كتابته كانت أسوأ من كتابتي بكثير، بل أسوأ حتى من سندباد، أنا يستحيل أن أخطئ في هجاء كلمة قتل، وعلى أي حال ما الذي يجعل شخصًا ناضجًا يكتب أشياء على شجرة؟

دانييل بون كان كبير

بس الدب أكبر بكثير

دانييل جري زي الزوج

طلع الشجرة مع العصافير

كانت هناك صورة له، يبدو أحمرق. كان يمنع هندیًا من الوصول إلى زوجته وابنه حاملًا فأَسًا. للهندي شعر شائك ويرتدي مئزرًا ورديًا حول خصره ولا شيء أكثر من ذلك. ينظر الهندي إلى بون كأنه يرى أكثر شيء مرعب على الإطلاق. دانييل بون يقبض على معصمه ويقيد ذراعه الأخرى. لا يصل الهندي حتى إلى كتفي دانييل بون. يرتدي دانييل بون معطفًا أخضر ذا ياقة بيضاء وتتدلى شرائط صغيرة من أكمامه، وقبعة من الفرو ذات شريطة حمراء. يبدو مثل النساء في متجر الكيك في راهيني. كلبه ينبح. زوجته تبدو كما لو أنها منزعة من الضجة التي يتسبب فيها الرجلان. فستانها ينزل عن كتفيها وشعرها أسود ينسدل حتى مؤخرتها. حول عنق الكلب طوق يحمل بطاقة اسم. كل هذا في قلب البرية. لم أحب دانييل بون في التليفزيون كذلك، أطف من اللازم.

قال بابا: فيس باركر⁽¹⁾؟ ما هذا الاسم الغريب؟

أحب الهنود. أحب أسلحتهم. صنعت هراوة أباتشي مهشمة للرؤوس. وضعت كرة رخامية في فردة جورب وثبتها في عصا، وعلقت ريشة بالجورب. أزت عندما حرّكتها، ووقعت منها الريشة. ضربت بها الحائط فوق منه الفتات. كان ينبغي لي أن أتخلص من فردة الجورب الأخرى التي لم أستخدمها، ماما تضايقت عندما وجدتها وحدها.

قالت: بالتأكيد الفردة الأخرى غير بعيدة، ابحت تحت سريرك.

ذهبت إلى الطابق العلوي وبحثت تحت السرير مع أبي أعلم أن فردة الجورب غير هناك وماما لم تأت خلفي. كنت وحدي، وانحنيت ونظرت، زحفت تحت السرير، وجدت جنديًا، جنديًا ألمانيًا من الحرب العالمية الأولى ذا خوذة مسنّنة.

قرأت ويليام، قرأت كل كتبه. هناك أربعة وثلاثون واحدًا⁽²⁾، امتلكت منهم ثمانية، والبقية أستعيرهم من المكتبة. أفضلهم هو ويليام القرصان. شهبق ويليام، قال: لم أر قط كلبًا شاطرًا مثل هذا، شهبق، إنه مذهل. أهلاً تويي! تويي! تعال إلى هنا أيها الفتى الجميل. تويي لا يمانع، كلب مبهج حبّوب، جرى إلى ويليام ولعب معه ونبح عليه، تظاهر بأنه يعضّه ثم تدحرج.

- هل يمكنني أن أحصل على كلبٍ في عيد ميلادي؟

- لا.

- في الكريسماس؟

(1) (1924 - 2010) Fess Parker: الممثل الأمريكي الذي لعب دور دانييل بون في مسلسل

تليفزيوني. [المترجم]

(2) سلسلة كتب Just William للكاتبة البريطانية ريتشمال كرومبتون، وهي سلسلة مغامرات بطلها ولدٌ جامع اسمه ويليام براون، بدأت في الصدور عام 1922 وآخرها كان في

1970. [المترجم]

- لا.

- لعيد ميلادي والكريسماس معًا؟

- أنت تريدي أن أضربك، أليس كذلك؟

- لا.

طلبت من ماما وأجابت بالرفض أيضًا، لكن عندما قلت لعيد ميلادي والكريسماس معًا قالت: سأرى.

هذا جيد بما يكفي.

عصابة ويليام اسمها الخارجون عن القانون؛ هو وجينجر ودوجلاس وهنري. حان دور جينجر في دفع العربة، وفعل ذلك بحماس.

قلت: حماس!

- حماس!

- حماس حماس حماس!

ليومٍ كاملٍ صرنا نطلق على أنفسنا قبيلة الحماس. أخذنا أحد أقلام سندباد السميقة ورسمنا حرف ح ضخم على صدورنا، ح حماس. الجو بارد، والأقلام تدغدغ. حروف ح ضخمة من حلقات الصدر وحتى سرة البطن.

- حماس!

كيفين رمى غطاء قلم سندباد على الشاطئ، شاطئ قديم على طريق باريتاون قاعه طيني. ذهبنا إلى متجر توتسي وأريناها صدورنا.

- واحد اثنان ثلاثة...

- حمااااس.

لم تلاحظنا ولا قالت شيئاً. جرينا خارجين من المتجر. رسم كيفين بلبلاً كبيراً على عمود بيت كيرنان. ركضنا، عدنا إلى كيفين لرسم قطرات تنزل من البلبل، ركضنا مجدداً.

- حمااااس.

آل كيرنان هم فقط مستر ومسر كيرنان.

سألت ماما: هل أطفالهم ماتوا؟

قالت: لا، لم ينجبوا أطفالاً.

- لماذا؟

- الرب وحده يعلم يا باتريك.

- قلت:- هذا غباء.

لم يكونا عجوزين، يذهب كلٌ منهما إلى الشغل، في سيارته، وهي أيضاً تقود السيارة. دخلنا باحتهما الخلفية في أثناء غيابهما. البيت كان في الزاوية، الحوائط عالية لأنها في الزاوية، لذا نستطيع أن نبقى هناك لدهورٍ من دون أن يرانا أحدٌ. المخاطرة العظمى كانت في التسلق، وهذا كان جامداً. جميل أن تكون الثاني، لكن أن تكون الأول فهو شيء مرعب، قد تكون مامتك تمشي قريباً تدفع عربة البيبي. القاعدة هي: من غير المسموح لك أن تنظر أولاً. عليك أن تتسلق مباشرة وتنزل عبر السور دون أن تنظر لترى إن كان هناك أحدٌ بالداخل. لم يُقبض علينا قطٌ. لباس مسز كيرنان الداخلي كان معلقاً على الحبل ذات مرة، نزعت عمود الحبل فتدلى قريباً منّا. أمسكنا أيدان، لم نقل شيئاً لكننا كنّا جميعاً متفقين دون كلام، أجبرناه، حشرنا وجهه في اللباس، بدا أنه أصابه الغثيان.

- من حسن حظك أنه ليس متسخاً.

أعدت العمود إلى مكانه وعاد الجبل عاليًا. تناوبنا على الجري بسرعة والقفز، وضرب اللباس بالرأس. كان هذا جامدًا، فعلناها لدهور. لم ننزله من على الجبل.

رأت ماما الح عندما كنّا نغتسل يوم الأحد بعد تناول الشاي. أنا وسندباد معًا. تمحننا دومًا خمس دقائق للترشق بالمياه. رأيت حروف ح باهتة. سندباد أيضًا على صدره ح.

سألت: ما هذه؟

قلت: حاءات.

قالت: ما الذي تفعله هنا؟

قلت: رسمناهما.

نقعت ماما منشفة الوجه في الصابون. أمسكت بكتفي بينما أخذت تدعك بالمنشفة الحاء. أوجعتني.

كنت في متجر مستر فيتز أشتري علبة آيس كريم. اليوم هو الأحد. الآيس كريم مموج. قلت لمستر فيتز أن يضعه على حساب ماما، هذا يعني أنها ستدفع له يوم الجمعة. لفّ الآيس كريم بالورق الذي يلف به خبز فيينا. ابتلّت الورقة.

قال: تفضّل.

قلت: شكرًا جزيلاً.

مسز كيرنان كانت على الباب، دخلت المتجر. التهاب وجهي. سترى وجهي محمرًا وتمسكني، ستعرف لو رأته.

مررت بجوارها. ستوقفني، ستمسكني من كتفي. هناك أشخاص يتبادلون الحديث في الشارع، معهم الجرائد وعلب الكريم. سيرون. هناك بابا كيفين ومامته، وبنات كثيرات. ستقبض عليّ وستصرخ عاليًا.

عبرت الشارع واتجهت إلى البيت من الناحية الخاطأ. إنها تعرف، أخبرها أحدهم، إنها تعرف بلا شك، إنها تنتظرنني، لقد دخلت المتجر خلفي لترى إن كان وجهي سيحمر، ورأنتني، وجهي لا يزال أحمر، أشعر بهذا. شعرها أطول من شعر ماما، وأسمن أيضاً، أسمك، بني. إنها لم تقل مرحباً قط، ولا تمشي على قدميها إلى المتاجر. دائماً ما تقود هي وزوجها سيارتهما، وبيتهما غير بعيدٍ في شارعنا. زوجها الرجل الناضج الوحيد في باريتاون الذي عنده صفائر، وعنده شارب أيضاً.

نظرتُ خلفي. أمان. لم تكن تتبعني. عبرت الشارع عائداً إلى ناحيتنا. كانت جميلة، كانت مذهلة، كانت ترتدي الجينز يوم الأحد. ربما تنتظر اللحظة المناسبة لتقبض عليّ.

أخفق الآيس كريم بالملعقة حتى يصبح مائعاً. أصنع منه جباًلاً. ذهب التموج، وصار الآيس كريم كله وردياً. أستخدم دائماً ملعقة صغيرة، تجعله يدوم أكثر. سخن وجهي مرة أخرى، فكرت أنه ليس بسخونة المرة السابقة. أكاد أرى نفسي أفتح الباب فأرى مسز كيرنان أمامي، تريد مقابلة ماما وتحكي لها عمّاً فعلته بلباسها، وباباً أيضاً. أستطيع سماع خطواتها. أنتظر سماع جرس الباب.

لو لم يدق الجرس قبل انتهائي من الآيس كريم لن تأتي بعد ذلك. لكن لا يمكن أن أتعجل في أكله، عليّ أن أكله بذات البطء الذي أكله به دوماً، أنا آخر من ينتهي كل مرة. من المسموح لي أن ألعق الطبق. لم يدق الجرس طوال كل هذا. شعرت أنني فعلت شيئاً ما، مهمّتي تمّت بنجاح. انتظرت حتى عاد وجهي إلى الشعور العادي. ساد السكون، أنا الوحيد الذي ما زال على الطاولة معهما. لم أنظر إليهما وأنا أسأل.

- هل من المسموح لبس الجينز يوم الأحد؟

قال بابا: لا.

قالت ماما: على حسب الظروف، ليس في القداس على أي حالٍ.

قال بابا: لا.

نظرت إليه ماما بالطريقة التي تفعل بها عندما تضبطنا نفعل شيئاً ما خاطئاً، غير أنها أكثر حزنًا.

قالت: ليس عنده جينز أصلاً، إنه يسأل فقط.

لم يقل بابا شيئاً. لم تقل ماما شيئاً.

ماما تقرأ الكتب، ليلاً في الغالب. تلعق طرف إصبعها عندما تبلغ نهاية الصفحة، ثم تقلبها؛ تسحب ركن الصفحة بإصبعها المبتل. في الصباح أجد العلامة التي وضعتها في الكتاب، عادة ورقة من جريدة، وأعدّ الصفحات التي قرأتها في الليلة المنقضية. أعلى رقم كان اثنين وأربعين صفحة.

كانت هناك رائحة كنيسة تفوح من مكاتب مدرستنا. عندما ثبتت ذراعِي ووضعتُ رأسي في الفراغ المتشكل بينهما، عندما طلب منّا هينو أن ننام، استطعت شمّ نفس الرائحة التي تشمها من مقاعد الكنيسة. أحبها. حارقة وتبدو مثل رائحة الأرض تحت شجرة. لعقت المكتب لكن طعمه كان مريعاً.

ذات يومٍ نام إيان مكيفوي فعلاً عندما أمرنا هينو أن ننام. هينو كان يتحدث مع مستر أرنولد عند الباب فطلب منّا أن نعقد أذرعنا وننام. هذا ما يحدث دومًا عندما يتحدث هينو مع أي شخصٍ أو يقرأ الجريدة. مستر أرنولد عنده صفائر كبيرة تكاد تتلاقى تحت ذقنه. كان في برنامج زاليت شو ذات مرة، يغني أغنية ويعزف الجيتار مع رجلٍ آخر وسيدتين. سُمح لي أن أظل مستيقظاً وأشاهده. إحدى السيدتين عزفت على الجيتار أيضًا، هي ومستر أرنولد كانا على

الطرفين والرجل والمرأة الآخرين كانا في المنتصف. ارتدوا جميعًا نفس القمصان، لكن الرجلين ارتديا ربطات عنقٍ والسيدتين لم تفعلوا.

قال بابا: عليه أن يلتزم بشغله الصباحي.

طلبت منه ماما أن يسكت.

قدم جيمس أوكيف نقرت مقعد مكتبي. حركت ذراعِي كي أستطيع رفع رأسي، ونظرت إلى الخلف بسرعة.

قال: مررها.

عادت رأسه بين ذراعيه.

انزلقت في مقعدي لأسفل كي أستطيع أن أصل إلى مكتب مكيفوي، نقرت على مقعده، لم يتحرك، فعلتها مرة أخرى. انزلقت أكثر وتجاوزت قدمي الكرسي وركلت قدمه، لم يلتفت. جلست معتدلًا وانتظرت، ثم استدرت إلى جيمس أوكيف.

- مكيفوي نام.

عَضَّ جيمس مكيفوي على كنزته كي يمنع نفسه من الضحك. شخص غيره في الفصل وقع في مشكلة، وهو ليس الملام.

انتظرنا جميعًا. أسكتنا بعضنا بقول (شششش) كي لا نوقظ إيان مكيفوي، مع أننا لم نكن نصنع أي ضجة على أي حالٍ.

أغلق هينو الباب.

- اجلسوا معتدلين الآن.

فعلنا ذلك بسرعة، جلسنا منتصبين. نظرنا إلى هيني سي لنرى متى سيلاحظ إيان.

كانت حصة هجاء، هجاء إنجليزي. أخرج هينو كشكوله ووضعته على مكتبه. يضع درجاتنا في الكشكول ويجمعهم في أيام الجمعة،

ويجعلنا نغيّر أماكننا. صاحب أفضل درجة يجلس في المكتب بجوار النافذة، والأسوأ يجلس في الخلف بجوار المعاطف. أنا كنت دومًا في مكان ما في المنتصف، أحيانًا بالقرب من المقدمة. من يجلسون في الخلف ينالون أصعب أسئلة الهجاء، بدلًا من أن يطلب منهم كلمات عادية يطلب منهم كلمات معقدة. لو أنك وصلت إلى الصف الأخير بعد جمع درجاتك، يصبح الخروج من هناك شديد الصعوبة، ولا تُرسل أبدًا بأمورية خارج الفصل.

- ميديتيرنيان⁽¹⁾.

- إم. إي. دي....

- هذا هو الجزء السهل، استمر.

- أي. تي....

- استمر.

سيخطئ. إنه ليام. عادة ما يجلس خلفي أو في الصف المجاور لي القريب من المعاطف، لكنه حصل على عشرة من عشرة في الحساب يوم الخميس، لذا يجلس أمامي، أمام إيان مكيفوي. أنا حصلت على ستة من عشرة فقط في اختبار الحساب لأن ريتشارد شيلز رفض أن يجعلني أنظر في ورقته، لكنني أعطيته رجل مائة جراء ذلك.

- تي. إي. أر. ... إيه.

- خطأ، أنت حشرة. ماذا أنت؟

- حشرة يا سيدي.

قال هينو: بالضبط... ثم قال وهو يسجل خطأ ليام في الكشكول:
خطأ !

(1) Mediterranean: البحر الأبيض المتوسط. [المترجم]

لا يكتفي بتبديل أماكننا أيام الجمعة، بل يضربنا أيضًا. قال لنا إن هذا يفتح نفسه على العشاء، يجعل شهيتته متأججة، وهو بحاجة إلى هذا لأنه لا يحب السمك. ضربة لكل غلطة، بقطعة الجلد التي ينقعها في الخل خلال عطلة الصيف.

الدور كان على كيفين، ثم إيان مكيفوي.

قال كيفين: - إم. إي. دي. أي. تي. إي. أر. إيه. إن ...

- ثم ماذا...؟

- أي. إيه. إن.

- خطأ! ... مستر مكيفوي!

إيان مكيفوي كان لا يزال غارقًا في النوم. كيفين يجلس في نفس مكتبه، وقال لنا لاحقًا إن إيان مكيفوي كان يتسم خلال نومه.

قال جيمس أوكيف: يحلم بمولي.

نهض هينو وحدق إلى إيان مكيفوي من فوق ليام.

قال كيفين: إنه نائم يا سيدي، هل أوقظه؟

قال هينو: لا.

وضع إصبغه على شفتيه، كئنا ساكنين تمامًا.

تبادلنا الضحكات المكتومة وأصوات ال(هششش). مشى هينو بهدوءٍ إلى ناحية إيان مكيفوي من المكتب، راقبناه، لم يبد أنه يمزح.

- مستر مكيفوي!

لم يكن مضحكًا، لم نستطع أن نضحك، أحسست باندفاع الهواء عندما طوح هينو يده ليصفع مؤخرة رقبة مكيفوي. انتفض مكيفوي

صاحيًا وشهق، تأوّه، لم أستطع أن أراه، رأيت جانب وجهه كيفين فقط؛
أمسى شاحبًا، شفته السفلى تدلّت بعيدًا عن العليا.

حذرنا هينيسي من المرض في أيام الجمعة. لو لم نكن في المدرسة
يوم الجمعة لننال عقابنا، سينال منّا يوم الاثنين، لا أعدار.

رائحة المكاتب كلها متماثلة، في كل الغرف. أحيانًا ما يكون
المكتب أفتح لوئًا لو كان قريبًا من النافذة فيتعرض للشمس. لم تكن
من تلك المكاتب القديمة التي يُثبت سطحها بمفاصل كي تستطيع
أن ترفعه فتجد تحته مكانًا لكتبك، بل السطح مثبتًا بالمسامير في
المكتب، وتحته يوجد رفٌّ للكتب والمتعلقات. هناك تجويّفٌ للقلم
وتجويّفٌ للمحبرة. بوسعك أن تدحرج القلم على المكتب. نفعل ذلك
على سبيل التحدي، لأن هينو يكره الضجة الناجمة عن ذلك.

جيمس أو كيف شرب الحبر.

عندما يكون علينا أن نهض، عندما نؤمر بذلك، يتوجب علينا
أيضًا رفع المقاعد، ولا يُسمح لنا بأن يصدر عن ذلك أي صوتٍ. عندما
نسمع طرقًا على الباب، لو كان صاحبه مدرسنًا أو مستر فينوكان
الناظر أو الأب مولوني، يجب أن نقف.

نقول: - ⁽¹⁾ Dia duit.

هينو يرفع يده كأنه يحمل شيئًا ما في راحته، وقلناها جميعًا معًا.

هناك صبيان في كل مكتب. عندما ينهض الولد الذي أمامك
للكتابة على السبورة أو إلى الـ ⁽²⁾ leithreas يمكنك أن ترى علامة حمراء
من المقعد على ظهر رجليه.

(1) مرحبًا / ليكن الرب معك.

(2) المرحاض.

اضطرت إلى النزول إلى بابا وماما، سندباد لا يكف عن البكاء،
يعوي ويعوي مثل قطار، لا يخرس.

- سأنفجر إن لم تتوقف.

لا أعلم إن كانا يسمعانه. ضوء الردهة مطفأ، كان يفترض بهما أن
يتركاها مضاءً. وصلت إلى آخر درجات السلم. المسمع على أرض الردهة
مثلج. أنصتُ مرة أخرى: لا يزال سندباد يبكي.

أحب أن أوقعه في المشاكل، هذا أفضل شيء، أستطيع التظاهر
بأنني أساعد.

كانا يشاهدان فيلم رعاة بقر، بابا لم يكن يتظاهر بقراءة الجريدة.

- فرانسيس يبكي.

نظرت ماما إلى بابا.

- لا يتوقف عن البكاء.

نظرا إليّ، قامت ماما، استغرقت دهوراً لتقف منتصبه.

- ظل يبكي طوال الليل.

- عُد إلى أعلى يا باتريك، هيا.

صعدت أمامها. انتظرت عند بداية الظلام الحقيقي لأتأكد من
أنها قادمة خلفي. وقفت بجوار سرير سندباد.

قلت له: ماما قادمة.

كنت أفضل أن يأتي بابا، إنها لن تفعل له شيئاً، ستحدث معه
وهذا كل شيء، وربما تعانقه. لكنني لم أكن محبباً، لا أريد أن أؤذيه
الآن. أشعر بالبرد.

قلت له مجدداً: إنها قادمة.

أنا أنقذته.

ارتفع صوت بكائه. دفعت ماما الباب ودخلت. دخلت في سريري، لم يذهب دفوه بالكامل.

بابا أيضًا ما كان ليفعل شيئًا، كان سيفعل مثل ماما.

- ما المشكلة يا فرانسيس؟

لم تقلها على طريقة: ماذا هناك هذه المرة؟

قال لها سندباد: عندي وجع في رجلي.

هدأ إيقاعه، فقد جاءت.

- أي نوع من الوجع؟

- وجع سيئ.

- في كلتا رجلك؟

- نعم.

- وجعين؟

- نعم.

كانت تتحسس وجهه لا رجليه.

- مثل المرة السابقة؟

- نعم.

- هذا سيئ يا طفلي المسكين.

تداعى بكاؤه إلى شهيقٍ متقطعٍ.

قالت له: إنها أوجاع النمو، أتعرف ذلك؟ ستصبح طويلًا جدًا.

لم تؤلمني رجلاي قطُّ.

- طويل جداً، ألن يكون ذلك رائعاً؟ سيسهل عليك سرقة التفاح.

ذلك كان جامداً، ضحكنا.

سألته: هل ذهب الآن؟

- أعتقد ذلك.

- جيد... ستكون طويلاً ووسيمًا، وسيمًا جداً، ستكونان كذلك أنتما الاثنان.

عندما فتحت عينيَّ مجددًا، كانت لا تزال هنا، وسندباد غارق في النوم.

*

تكدسنا في القاعة، دفع كلُّ منَّا لمستر أرنولد ثلاثة بنسات، ثم دخلنا. المقاعد الأمامية كلها ممتلئة بالأطفال الصغار من الصفوف الأذنى، لا يهتم، لأن عندما تُطفأ الأنوار نقف فوق مقاعدنا، من الأفضل أن نكون بالخلف. سندباد كان هناك مع صفه الدراسي، يرتدي نظارته الجديدة. إحدى عيني النظارة معتمة، مثل نظارة مسز بايرن التي تعيش على الطريق. بابا قال إن هذا من أجل إعطاء الفرصة للعين الأخرى لتنشط، لأنها كسولة. اشترينا مثلجات جولي بارز في طريقنا إلى البيت من نفس المكان في المدينة الذي اشتري منه سندباد نظارته. عدنا بالقطار، قال سندباد لماما إنه عندما يصبح رجلاً ويقبض أول خمسة جنيهات في حياته، سيركب القطار ويشد حبل الطوارئ، وسيدفع الغرامة.

- من أي وظيفة يا فرانسيس؟

قال لها: مزارع.

قلت: المزارعون لا يركبون القطار.

قالت ماما: ولم لا؟ يركبونه بالطبع.

نظارة سندباد كان يخرج منها أسلاك تدور حول أذنيه فتجعلهما تبرزان، كي تحافظ على النظارة من الضياع، لكنه أضعها مع ذلك.

بعض أيام الجمعة لم تكن حصص المدرسة العادية تحدث بعد الاستراحة، نذهب بدلاً منها إلى السينما في القاعة. كانوا ينبهوننا أيام الخميس لنحضر معنا ثلاثة بنسات، لكن أيدان وليام نسيا أن يجلبا بنساتهما الستة ذات مرة، ومع ذلك دخلا، لكنهما فقط اضطررا إلى الانتظار حتى يدخل الجميع قبلهم. قلنا إن ذلك حدث لأن مستر أوكونيل لا يملك ستة بنسات يعطيها إياهم، أنا من فكرت في ذلك، لكنهما أحضرا النقود يوم الاثنين. بكى أيدان عندما تابعنا قول ذلك.

هينو هو المسؤول عن آلة العرض. يحسب أنه عظيم، يقف بجوارها كأنها سببتيفاير⁽¹⁾ أو شيء مماثل. آلة العرض على طاولة في مؤخرة القاعة، في المنتصف بين صفوف المقاعد. على سبيل التحدي ننهض عندما ينطفئ النور، ونزحف إلى الممر وننهض قليلاً، ونصنع أشكالاً بأيادينا في مسار النور المشع من آلة العرض، الشكل -وهو عادة كلب ينبح- يظهر على الشاشة التي على المنصة في أعلى القاعة. ذلك كان الجزء السهل. الجزء الصعب هو أن تعود إلى مقعدك قبل أن يضيئوا النور مرة أخرى، سيحاول الجميع منعك وإبقاءك عالقاً في الممر، سيركلونك ويدوسون على يدك وأنت تزحف تحت المقاعد... جامد.

قال هينو: أخرجوا كتب اللغة الإنجليزية.

انتظرنا.

(1) Supermarine Spitfire سوبرمارين سببتيفاير: طائرة حربية بريطانية شهيرة استخدمها الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية. [المترجم]

أخرجناهم. نسختي مجلدة بورق الحائط الذي تبقي من عمتي موريل بعدما غطت به حمامها، وأعطت أبي نحو عشر بكرات منه. قال: لا بد أنها حسبت أنها ستغطي حوائط تاج محل بكل هذا.

قالت ماما: ششش!

استخدمت قطعة ستينسل⁽²⁾ بلاستيكية لكتابة الأسماء: باتريك كلارك، مستر هينييسي، اغرب عن وجهي.

قال هينو: الصفوف هنا وهنا وهنا، اجلبوا كتبكم و⁽³⁾ Seasaígi suas.

عندما وصلنا إلى القاعة أعطينا كتبنا إلى هينو، فوضعهم تحت المساند الأمامية لآلة العرض، فارتفعت الصورة ووصلت إلى الشاشة. يقف المعلمون بجوار الشاشة، ويظنون يسكتوننا طوال العرض. يستندون إلى الحائط في مجموعات من اثنين أو ثلاثة ويدخنون، بعضهم يفعل. مس واتكنز فقط هي من تمر في دوريات، لكنها لم تقبض على أحد قط، لأننا نرى رأسها على الشاشة عندما تأتي في الممر.

- ابتعدي عن الطريق.

- ابتعدي عن الطريق.

لو كان اليوم مشمسًا بالخارج لا نكاد نرى شيئًا على الشاشة، لأن الستائر على النوافذ لم تكن سميكة بما يكفي. نهلل عندما تأتي غيمة

(1) الآن.

(2) الستينسل stencil: أسطح رقيقة من الورق أو الخشب أو البلاستيك أو المعدن، فيها الأشكال أو الحروف مُفرغة، تستخدم للرسم على الأسطح بملء الفراغات بالحبر أو الألوان [الترجم]

(3) انهضوا.

فتحجب الشمس، ونهلل عندما تعود الشمس مرة أخرى. أحياناً نسمع الفيلم فقط، لكن يسهل فهم ما الذي يحدث. يبدأ العرض عادة بمقطعين أو ثلاثة لوددي نقار الخشب، أستطيع تقليد صوت ووددي نقار الخشب.

يقول أحد المدرسين: توقف!

- شششش!

لكنهم يملّون بسرعة. مع انتهاء عرض ووددي نقار الخشب وبدء المضحكين الثلاثة⁽¹⁾ يكون أغلب المدرسين خارج القاعة، لا يتبقى إلا هينو ومستر أرنولد ومس واتكنز. تأديتي لصوت ووددي نقار الخشب يؤلم حنجرتي، لكنه يستحق.

- أعلم أنه أنت يا باتريك كلارك.

يمكننا رؤية مس واتكنز تضيق أعينها وتحقق إلينا، لكنها لا تستطيع رؤية شيء.

- افعلها مرة أخرى.

انتظرت حتى صارت تنظر إلينا مباشرة، ثم فعلتها.

- وووووو هي هي، وووووو هي هي، و...

- باتريك كلارك!

- لست أنا يا مس.

- إنه الطائر في الفيلم يا مس.

- لا نستطيع الرؤية من رأسك يا مس.

(1) The Three Stooges: فرقة كوميديين أمريكيين اشتهروا بأفلامهم القصيرة وعروضهم المسرحية، اشتهروا في الفترة بين 1922 و1970. [المترجم]

أُصبت بأعين دامية مرتين وعين سوداء مرة واحدة.

أفضل شيء في المضحكين الثلاثة كان أنه لا توجد فواصل. يضطر هينيسي في الفيلم الأساسي إلى أن يغير البكرة ويعيد لف البكرة القديمة. تبهت الصورة وتحدث فيها انفجارات لونية صغيرة ويضيع الصوت، ونسمع الفيلم يقطع ويتخبط في البكرة. يستغرق دهوراً حتى يشتغل مرة أخرى.

أوقدوا النور كي يستطيع هينو رؤية ما يفعله. نزلنا من الكراسي في الوقت المناسب. كنا نلعب لعبة الدجاجة: أول من ينزل أحرق.

مرة، في أثناء عرض الفيلم الرئيسي، دخل فلوك كاسيدي في إحدى نوبات الصرع التي تأتيه أحياناً، ولم يلاحظ أحد. كان فيلم الفايكينج⁽¹⁾. الغيوم غطت الشمس في الخارج ورأينا الفيلم كله. وقع فلوك عن كرسيه، لكن هذا يحدث طول الوقت. كان فيلماً عظيماً، أفضل شيء رأيته على الإطلاق. ضربنا الأرض بأقدامنا لنجعل هينو يسرع عندما انتهت أول بكرة، ثم رأينا فلوك.

- سيدي، فلوك كاسيدي عنده نوبة.

ابتعدنا جميعاً عنه كي لا يلام أحدنا على ما أصابه.

توقف فلوك عن الارتجاف. كان قد أوقع ثلاثة كراسٍ، ووضع مستر أرنولد معطفه فوقه.

- ربما لن يكملوا الفيلم.

- لماذا لا يفعلون؟

- بسبب فلوك.

مستر أرنولد طلب معاطف.

(1) (1958) The Vikings فيلم أمريكي من إخراج ريتشارد فليشر، Richard Fleischer. [المترجم]

- معاطف يا شباب، هيا.

قال كيفين: لنذهب ونرى.

تقدمنا صفين إلى الأمام كي نستطيع أن نرى فلوك جيداً، بدا كأنه نائم، كان أبيض أكثر من العادي.

- وسّعوا له يا شباب.

هينو كان مع مستر أرنولد، وضعاً فوق فلوك أربعة معاطف. لو وضعوا معطفاً فوق رأسه سيعني هذا أنه مات.

- فليذهب أحد إلى مستر فينوكان.

مستر فينوكان هو الناظر.

- أنا يا سيدي!

- أنا يا سيدي!

- أنا أنا يا سيدي.

هينو اختار إيان مكيفوي: أخبر مستر فينوكان بما حدث. ماذا حدث؟

- لوك كاسيدي أصابته نوبة يا سيدي.

- بالضبط.

- أتريدنا أن نحمله يا سيدي؟

- لا أريد أن أرى أحداً واقفاً ولا أسمع أحداً يتحدث.

- اسكت... اجلس... ابتعد...

- هذا مكاني...

- اخرس!

صرنا جميعاً جالسين، استدرت إلى كيفين.

قال هينو: ولا صوت يا مستر كلارك، عينك على الشاشة، أعينكم جميعًا على الشاشة.

شقيق كيفين الأصغر، سيمون، رفع يده. كان يجلس بعيدًا في الأمام.

- نعم؟ أنت يا من ترفع يدك.

- مالاكي أوليري يريد الذهاب إلى المرحاض.

- اقعد مكانك.

- رقم اثنين.

- قلت اقعد مكانك!

موسيقى الفايكينج كانت أفضل شيء فيه، كانت جامدة. كل مرة يظهر فيها قارب فايكينج يخرج شخص ما على قمة جبل ليراقبه، ثم ينفخ الموسيقى في بوق عملاق، فيخرج الجميع من أكواخهم ويهرعون للقاء القارب. كلما كانت هناك معركة تُعزف الموسيقى ذاتها، جامدة جدًا، تظل تتذكرها إلى الأبد. في النهاية قُتل أحد الشخصيات الأساسية -لست متأكدًا أيهم- ووضعه في قاربٍ وغطوه بالأخشاب، أشعلوا النار فيه ودفعوه إلى المياه. بدأت أذندن الموسيقى ببطء، عرفت أنها ستشتغل في الفيلم، وهو ما حدث.

قتلتُ فأرًا بمضرب الهوري⁽¹⁾. كانت ضربة حظ، أنا فقط طوحت المضرب، لم أعلم يقينًا أن الفأر كان قادمًا ناحيتي، تمنيت ألا يفعل. لكنه كان شعورًا عظيمًا مع ذلك، خاصة تلك اللحظة التي ضرب فيها المضرب جانب الفأر وأطاح به عاليًا، ممتاز.

(1) الهوري Hurling: رياضة أيرلندية محلية ذات شعبية ضخمة، هي مزيج بين الهوكي وكرة القدم، يطارد فيها اللاعبون الكرة على أرض الملعب بمضربٍ من نوعٍ خاص ويمكن حملها على المضرب، بهدف إحراز أهداف في المرمى، سواء تحت العارضة لإحراز ثلاث نقاط أو فوقها لإحراز نقطة واحدة. [المترجم]

هتفت.

- رأيتم ذلك؟

كان ذلك مثاليًا، يرقد الفأر هناك في الطين منتفضًا، تخرج من فمه أشياء.

- أنا البطل! أنا البطل! أنا البطل!

زحفنا إلى حيث هو، لكنني أردت أن أصل إليه قبل البقية فزحفت أسرع. لا يزال ينتفض.

- إنه لا يزال ينتفض.

- لا، بل هي فقط أعصابه.

- تموت الأعصاب بعدما تموت بقية أجزائه.

- رأيتم كيف نلت منه؟

قال كيفين: كنت أنتظره، كنت لأنال منه.

- أنا من نال منه.

- ماذا سنفعل به؟

- نقيم جنازة.

- رالالالالالالال.

لم يشاهد إدوارد سوانويك الفايكينج، فهو لا يذهب إلى مدرستنا.

كنّا في ساحة آل دونيلي، خلف الحظيرة. نحتاج إلى تهريب الفأر خارجها.

- لماذا؟

- لأنه فأرهم.

الأستلة المشابهة تفسد كل شيء.

العم إيدي كان أمام المنزل يكنس الحصى، مسز دونيلي في المطبخ. اتجه كيفين إلى جانب الحظيرة وألقى حجرًا على السياج، تمويهًا، ونظر.

- إنها تغسل البناطيل.

- العم إيدي وسخ بنطاله.

- العم إيدي شخَّ على روحه ومستر دونيلي يزرع الكرنب.

كلا الطريقين مسدودان، علينا أن نهرب من فوق الحائط الخلفي، بنفس الطريقة التي دخلنا بها.

لم يلتقط أحدُ الفأر بعد.

سندباد كان ينكز الأشياء بعصاه، الأشياء التي تخرج من فم الفأر. أمرته: احملة. وعرفت أنه لن يفعل.

لكنه فعل، حملة من ذيله، رفعه وتركه يدور في بطاء.

قال ليام: أعطنا إياه. لكنه لم يمد يده ليحاول أخذه من سندباد.

لم يكن فأرًا كبيرًا جدًّا، ذيله جعله يبدو أكبر عندما كان على الأرض، لكنه لا يبدو كذلك بالطريقة التي يحمله سندباد بها. وقفت بالقرب من سندباد، إنه أخي، وها هو يحمل فأرًا ميتًا بيده.

المد كان ينحسر، هذا جيد، هكذا سيأخذ معه لوح الخشب بعيدًا. نظَّف سندباد الفأر؛ وضعه على الأرض تحت المضخة عند الأكواخ، وضخَّ عليه أربع ضخات من المياه، ثم لفَّ الفأر في كنزته تاركًا رأسه بارزة.

تشبَّث كيفين بطرف لوح الخشب، محاولًا منعها من التمايل.

بَدَأْتُ.

- السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة الرب معك، مباركة أنت...
بدا الصوت مذهلاً، أصواتنا نحن الخمسة معاً بالإضافة إلى الريح.
رفع كيفين اللوح خارج المياها؛ كانت هناك موجة قادمة.
- ... الآن وفي ساعة موتنا آمين.

كنت الكاهن لأني فاشل في استخدام الكبريت، انتهى دوري. جلس
إدوارد سوانويك على الدرجات المبتلّة وثبّت اللوح لكيفين. كيفين أدار
ظهره للبحر والريح وأشعل عود كبريت، استدار وحمى بيده اللهب
من الهواء. أحبّ الطريقة التي يفعل بها ذلك.

دام اللهب فترة كافية. لوهلة بدا مثل بودنج عيد الميلاد. بوسعي
رؤية النار لكنها لم تكن تفعل شيئاً في الفأر. دفعوا لوح الخشب
إلى المياها، ليس بقوة شديدة مثل السفن الحربية، فنحن لا نريد أن
تنطفئ النيران. ظلّ الفأر على اللوح والنار لا تزال مشتعلة، لكن
الفأر لا يتغير.

صنعنا جميعاً أبقافاً حول أفواهنا بأيادينا، حتى إدوارد سوانويك
فعل مع أنه لا يعرف ما الذي يحدث.

- الآن.

قلدنا موسيقى الفايكينج.

- د ا ا ا ا ا د ي ي ي ي د ا ا ا ا ا

د ا ا ا ا ا د ي ي ي ي د ا ا ا ا ا

د ا ا ا ا ا د ي ي ي ي د ا ا ا ا ا

د ا ا a a ا د ي ي ي ي د a a a a a.

دامت النار فترة كافية لنكررها مرتين.

جعلت فوق رأسي كتابًا. عليّ أن أصعد السلم دون أن يقع. لو وقع الكتاب سأموت. كان مجلدًا ذا غلافٍ مقوّى، ثقيلًا، أفضل نوع تحمله فوق رأسك. لم أستطع تذكر أي كتاب كان هذا. أعرف كلّ الكتب التي في البيت، أعرف أشكالهم وروائعهم، أعرف الصفحات التي ستنتفح عليها لو جعلت عمود الكتاب الفقري على الأرض وتركت دفتيه تقعان. أعرف كل الكتب لكنني لم أستطع تذكر اسم الكتاب الذي على رأسي. أستطيع أن أعرف فقط بعد أن أصل إلى الدور العلوي وأمس باب غرفة نومي وأنزل مجددًا، عندها فقط أستطيع إنزاله عن رأسي -أميل برأسي إلى الأمام ببطء وأتركه ينزلق وألقفه- ورؤية أي كتاب هذا. كان بوسعي رؤية ركن الغلاف لو أني نظرت إلى الأعلى بحذرٍ شديد، يمكنني لو فعلت أن أتذكر الاسم من لون طرف الكتاب، لكن هذا خطير جدًا. عندي مهمة أحتاج إلى إتمامها. التقدم بثباتٍ أفضل من البطء الشديد، لو أني مضيتُ ببطء شديد لن أكون ثابتًا، وأعتقد أني حينها لن أنجح وسيقع الكتاب. وأموت. هناك قبلة في الكتاب. الثبات أفضل، درجة ثم درجة، لا تعجل، التعجل شيء سيئ مثل البطء الشديد بالضبط. يصيبك الذعر عندما تقترب من النهاية، مثل كاثرين وهي تمشي عبر غرفة المعيشة. تمشي جيدًا لأربع أو خمس خطوات، ثم يمكنك أن ترى وجهها يتبدّل عندما تدرك أن أمامها دهورًا قبل أن تصل إلى الناحية الأخرى، تبهت ابتسامتها، تدرك أنها لن تنجح، فتحاول أن تصل هناك أسرع، فتقع. عرفت أنها ستقع، وجهها استعد لحدوث هذا، بكت. اثبت، كدت تصل إلى الأعلى، نقطة اللا عودة. أنت نابليون سولو. عندما تصل إلى الأعلى عليك أن تستوعب أنه لا مزيد من الدرجات الصاعدة أمامك، يشبه هذا شعور الوقوع.

انفتح باب الحمام.

خرج بابا وفي يده جريدته، نظر إليّ وتجاوزني.

قال: القرد يرى، القرد يقلد.

كان ينظر إلى الأسفل، إلى ما ورائي.

أدرت رأسي، وقع الكتاب، التقطته، كتاب رجلنا في هافانا⁽¹⁾. سندباد كان على السلم خلفي وعلى رأسه كتاب، إيفانهو⁽²⁾. كتابي انزلق من غلافه الخارجي ووقع على الأرض. مثلاً.

كسر ليام أسنانه في أثناء لعبة الجرانند ناشيونال⁽³⁾. لم يكن ذلك خطأ أي شخص عداه. هذه أسنانه الثانية، الأسنان التي يفترض أن تظل معه بقية حياته. وقطع شفته أيضاً.

- شفته راحت!

هيئته بدت كذلك عندما حدث ما حدث. الدماء والطريقة التي رفع بها يده على فمه جعلوه يبدو كأن فمه بالكامل قد اهترأ. كل ما ظهر منه كان السن الأمامي الكبير وقد أمسى وريدياً بسبب الدماء، والوردي يغمق حتى يصبح أحمر في أسفل السن، ثم ينسكب على يده حتى مرفقه. مكتبة سر من قرأ

أعينه بدت كأعين المجانين. في البداية، عندما خرج من السياج، بدت عيناه مثل من كان في الظلام ثم انفتح النور، لكنهما تبدلتا إلى الجنون والرعب وبدأتا تجحطان.

(1) رجلنا في هافانا Our Man In Havana: رواية صدرت عام 1958 للكاتب البريطاني جراهام جرين Graham Greene، تدور أحداثها في كوبا، وتسخر من جهاز المخابرات البريطاني واستعداده لتصديق أي شيء يقوله الجواسيس. [المترجم]

(2) إيفانهو Ivanhoe: من كلاسيكيات الروايات الفروسية الرومانسية، نشرها المؤلف والتر سكوت Walter Scott عام 1819. [المترجم]

(3) السباق الوطني الكبير Grand National: سباق فروسية وقفز حواجز ضخم يُقام في إنجلترا سنوياً، والمقصود هنا لعبة أطفال تحاكي ركض الأحصنة وقفزهم فوق الحواجز في الجرانند ناشيونال. [المترجم]

ثم شرع في العويل.

لم يتحرك، لم يحرك حتى يده التي تغطي فمه. فقط سمعنا الضجة. عيناه قالتا لي إنها تصدر عنه.

- أوه ماميببيي....!

- أسمعون؟

كان كأن أحدهم يتظاهر بأنه شبحٌ لكن دون أن يجيد الدور، كأنه يحاول إخافتنا لكننا نعلم أنه غير حقيقي ولا نقرب حتى من حافة الخوف. لكنه كان مرعبًا، كان مريعًا. الواقف أماننا مباشرة هو ليام، وليس أحدهم يختبئ في ملاءة. يصرخ لكنه لا يتظاهر، عيناه قالتا ذلك، إنه غير قادرٍ على فعل أي شيء آخر.

لو كان ذلك شيئًا عاديًا، لو كانت حادثة عادية، كنَّا سنجري؛ كنَّا سنجري قبل أن يُلقى باللوم علينا جميعًا لمجرد أننا هناك. هذا ما يحدث دومًا. يركل ولد الكرة فتكسر نافذة ويُلام على ذلك عشرة أولاد.

- أنتم جميعًا مسؤولون.

هذا ما قالته مسز كويجلي عندما كسر كيفين نافذة حمامها. صرخت علينا من وراء حائطها العالي، لا تستطيع رؤيتنا لكنها تعرف من نحن.

- أعلم من أنتم.

مستر كويجلي ميت ومسز كويجلي ليست عجوزة جدًّا، لذا هي على الأرجح فعلت فيه شيئًا، هذا ما يظنه الجميع. قررنا أنها طحنت كأس نبيذ زجاجيًا ووضعت المسحوق في الأومليت، لقد رأيت ذلك

في هيتشكوك يقدم⁽¹⁾ ويبدو منطقيًا. كيفين أخبر باباه بهذا وباباه قال إنها فقط أضجرت زوجها حتى الموت، لكننا التزمنا بنسختنا من الحكاية، فقد كانت أفضل. لكن هذا لم يجعلنا نخاف منها. كانت تكره جلوسنا على حائطها، فتأخذ تنقر على نافذتها لتجعلنا نرحل، ليس من نفس النافذة كل مرة، أحيانًا من الطابق العلوي وأحيانًا من السفلي.

- تفعل هذا فقط كي لا نحسبها جالسة في الغرفة الأمامية ننظر من النافذة طوال الوقت.

لم نخشاها.

- إنها لا تستطيع أن تجعلنا نأكل أي شيء.

تلك هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها النيل منّا، أن تسممنا، لا تعرف أي طريقة غيرها. لم تكن ضئيلة ومكرمشة كفاية لتثير الخوف، كانت أضخم من ماما. السيدات الكبيرة - وليس الكبيرة السمينة - لا خوف منهن، لكن النساء الضئيلة خطيرة جدًا، النساء الضئيلة والرجال الضخام.

ليس عندها أطفال.

- لأنها أكلتهم.

- لا لم تفعل!

هذه مبالغة.

شقيق كيفين يعرف السبب.

- مستر كويجلي لم يتمكن من جعل بلبله ينتصب.

(1) ألفريد هيتشكوك يقدم Alfred Hitchcock Presents: مسلسل تليفزيوني أمريكي عُرض بين 1955 و1965، فكرة وتقديم مخرج الإثارة والغموض الشهير ألفريد هيتشكوك، وإن كان هيتشكوك لم يخرج من مواسمه العشرة سوى 18 حلقة فقط. [المترجم]

لم نعبر سور بيتها أبدًا. قلت هذا لبابا وماما عندما اشتكت لهم مسز كويجلي مني. إنها لم تفعل أي شيء من قبل. وفعلا هما ما يفعلانه عادة، جعلاني أظل في غرفتي حتى يصبحا جاهزين للتعامل معي. كرهت هذا، ينجح في مضايقتي كل مرة. يجعلاني أظل في الغرفة لساعات. معي في الغرفة كل شيء، كتبي وسياراتي وأشياء، لكنني لا أستطيع التركيز على جملة في الكتب، ومن الغباء أن أكون على الأرض ألعب بالدينكيز⁽¹⁾ وأنا على وشك أن أعاقب من بابا. كان يوم سبت، ولم أحب أن أكون على الأرض ألعب عندما يدخل، لا أريده أن يأخذ فكرة خاطئة، أردت أن أبدو في شكل سليم، أردت أن أبدو كأني تعلمت الدرس بالفعل. الشمس تغرب، لكنني لم أقترب من زر الإضاءة، إنه قريب من الباب أكثر من اللازم. جلست على سريري في الركن عند زاوية التقاء الحوائط، ارتجفت، وتركت أسناني تصطك. أخذ فكي يؤلمني.

- وضح ما فعلت.

كان سؤالاً مريعاً، فحاً، أي شيء سأقوله سيكون خطأً.

- قلت وضح ما فعلت.

- لم أفعل شيء..

قال بابا: أنا من سأقرر ذلك... تكلم.

- لم أفعل شيئاً.

- لا بد أنك فعلت.

قلت: لم أفعل.

ساد صمت لوهلة. حدق إلى عيني اليسرى، ثم اليمنى.

(1) Dinkies: ماركة ألعاب كانت تُصنع في إنجلترا وكانت من أشهر مصنعي نماذج السيارات للعبة المصبوبة من المعدن في العالم. [المترجم]

قلت: لم افعل شيئاً، صدقاً.

- إذن لماذا جاءت مسز كويجلي كل هذه المسافة...

إنها مسافة خمسة بيوت فقط.

- ...لتشتكي منك؟

- لا أعرف شيئاً، لم يكن أنا.

- ما الذي لم يكن أنت؟

- ما قالته.

- ما الذي قالته؟

- لا أعرف، لم أفعل أي شيء، أقسم لك يا بابا، يا بابا... أقسم

بقلبي ويا رب أموت لو كنت كاذب.

رسمت الصليب على قلبي. أفعل هذا طوال الوقت، لم يحدث لي

شيء قط مع أني أكذب عادة.

لكني لم أكن أكذب هذه المرة. لم أفعل شيئاً. كيفين هو من كسر

النافذة.

قال بابا: بالتأكيد عندها سبب.

تمضي الأمور على ما يرام، لم يكن في مزاجه المعتاد عندما يريد أن

يضر بني، بل يحاول أن يكون عادلاً.

قلت:- هي على الأرجح تحسبني فعلت شيئاً.

- لكنك لم تفعل.

- أها.

- هذا هو قولك.

- أها.

- قل نعم.

- نعم.

ذلك كان الشيء الوحيد الذي قالته أُمي، قل نعم.

- أنا فقط...

لم أكن متأكدًا أن هذا صائبٌ -حكيمٌ- لكن فات أوان التوقف؛ عرفت هذا من النظر إلى وجهه. اعتدلت ماما في جلستها ونظرت إلى بابا. فكرت في تغيير كلامي وإخباره أن مسز كويجلي سممت مستر كويجلي، لكنني لم أفعل. بابا ليس من هذا النوع، إنه لا يصدق الأشياء.

قلت: أنا فقط جلست على حائط بيتها.

كان بوسعه أن يضربني حينها. تحدث أخيرًا.

- طيب لا تجلس على حائطها مرة أخرى، حسنًا؟

- أها.

قالت ماما: نعم.

- نعم.

لا شيء آخر، هذا كل شيء. نظر حولي باحثًا عن شيء يفعله يخرج به من الموضوع. وصل مشغل التسجيلات بالكهرباء، بات ظهره لي، أستطيع أن أذهب. بريئًا، متهمًا ظلمًا، دربت الطيور وأنا في السجن وصرت خبيرًا فيهم.

عويل ليام ثبتنا في الحديقة؛ لم نستطع أن نتحرك. لم أقدر على لمسه أو الركض مبتعدًا. عويله اخترقني، صرت جزءًا منه. كنتُ عاجزًا، لم أقدر حتى على الوقوع.

إنه يموت.

لا شك أنه يموت.

يجب أن يأتي أحدهم.

السياج الذي وقع منه لم يكن لمسز كويجلي، لم يكن له علاقة
بمسز كويجلي. كان السياج الضخم الوحيد في شارعنا. سياج بيت ليام
وأيدان أكبر وأكثر تفرعًا، لكنهم لم يسكنوا في شارعنا. هذا السياج ينمو
أسرع من البقية، وأوراقه أصغر وليست لامعة ولا بخضار العادية.
الأوراق تكاد تكون بلا خضار على الإطلاق، بل ظهرها كان رماديًا.
أغلب السياجات لم تكن كبيرة لهذه الدرجة، البيوت ليست قديمة بما
يكفي. هذا السياج فقط كان الأعلى، كان القفزة الأخيرة، احتفظنا به
لآخر اللعبة.

السياج كان في حديقة آل هانيلي الأمامية، سياجهم، سياج مستر
هانيلي، هو من يفعل كل شيء في الحديقة. كانت عندهم بحيرة في
الخلف، لكن لا شيء فيها. كانت هناك أسماك ذهبية لكنها تجمّدت
حتى الموت.

- تركهم هناك حتى تعفنوا.

لم أصدق ذلك.

- طفوا على السطح متعفنين.

لم أصدق. مستر هانيلي كان دائمًا في حديقته، يلتقط أشياء؛ أوراق
أشجار وبزاقًا، يلتقطهم بيده، رأيته، بيديه العاريتين. دائمًا ما يحفر
مستندًا إلى الحائط القريب. رأيت يدًا على الحائط عندما كنت ذاهبًا
إلى المتاجر، يد مستر هانيلي، يسند نفسه بينما يحفر. حاولت أن
أذهب قبل أن ينهض، لكنني لم أستطع أن أجري، استطعت فقط أن
أمشي بسرعة. لم أكن أحاول أن أنأى بنفسني عن أن يراني، لست خائفًا

منه، أنا فقط مشيت بسرعة. لم يعرف مستر هانيلي أنني فعلت ذلك. ذات مرة رأيته ممدًا على الأرض في الحديقة الأمامية، على ظهره، قدماه كانتا في بيت الزهور. انتظرت لأرى إن كان ميتًا، ثم خفت أن يكون هناك من يراني عبر النافذة. عندما عدت لم يكن هناك. لم يكن يعمل.

- لماذا؟

قالت ماما: لأنه متقاعد.

- لماذا هو كذلك؟

لهذا كانت حديقته هي الأفضل في باريتاون، ولهذا كان اقتحام حديقة آل هانيلي هو أكبر تحدٍّ على الإطلاق، ولهذا ينتهي الجراندي ناشيونال هنا، فوق سياجه، وعبر البوابة، من يفعلها هو الفائز. ليام لم يكن يفوز.

بشكلٍ ما الفوز هو الأسهل، الفائز هو أول من يخرج إلى الممشى. لا يستطيع مستر هانيلي أن ينال منك هناك، ولا ابناه بيلى ولورنس. بل من يقفز من فوق السياج أخيراً هو المعرض لأخطر خطر. أعصاب مستر هانيلي تنهار ويبدأ اللعب يتناثر من فمه، وتصبح هناك أشياء بيضاء في ركني الفم. الكثير من كبار السن توجد أشياء بيضاء في ركن فمهم. بيلى هانيلي وخصوصًا لورنس هانيلي سيقتلانك لو وضعا أيديهما عليك.

- حان الوقت أن يذهب هذان الغبيان ويتزوجا أو شيء مشابه.

- من ترضى بأمثالهم؟

لورنس هانيلي سمين لكنه سريع. يقبض علينا من شعرنا. إنه الشخص الوحيد الذي يفعل ذلك من بين من أعرفهم. يفعل ذلك لأنه سمين ولا يستطيع أن يقاتل جيدًا. وهو شرير كذلك. أصابعه

قاسية وتشبه الخناجر، أسوأ بكثيرٍ من اللكمات، أربع طعنات في صدرك بينما يمسكك من شعرك.

- اخرجوا من حديقتنا.

ضربة أخرى قوية، ثم يتركك.

- والآن، إياكم والعودة.

أحياناً يركل لكن مدى ركلته قصير. يتعرق في بنطاله.

هناك عشرة سياجات في الجراندي ناشيونال. كل حوائط الحدائق الأمامية بنفس الارتفاع بالضبط، لكن السياجات والشجر يجعلونهم مختلفين. أما الحدائق بين السياجات فنجري عبرها. التدافع مسموح في الحدائق، لكن الشدّ والعرقلة لا. إنه جنون، إنه جامد. نبدأ في حديقة إيان مكيفوي، خط مستقيم. لم تكن هناك إعاقة⁽¹⁾، ليس من المسموح لأي أحدٍ أن يبدأ أمام البقية، لا أحد يريد ذلك على أي حالٍ، أنت بحاجة إلى مسافة جري محترمة قبل القفز من فوق الحاجز الأول، ولا أحد يرغب في أن يقف في الحديقة التالية وحده منتظراً بدء السباق. إنها حديقة آل بايرن. إحدى عدستي نظارة مسز بايرن سوداء، كان لقبها سبيكي ذات الثلاث أعين، لكن هذا الشيء الوحيد المثير للضحك بخصوصها.

نستغرق دهوراً كي تصبح الخطوط المستقيمة مستقيمة فعلاً، هناك دومًا بعض التدافع، التدافع مسموح، ما لم ترتفع المرافق أكثر من اللازم فوق الرقاب.

قال أيدان: إنهم جاهزون للبدء.

(1) الإعاقة Handicapping في سباقات الخيول، مثل سباق الجراندي ناشيونال، تعني إضافة حمولة أوزان إضافية للأحصنة الأقوى لإبطائها أمام الأحصنة الأضعف. [المترجم]

زحفنا إلى الأمام. أي شخص يُضَبَط متأخرًا عن بقية المجموعة عندما يبدأ السباق لا يمكن أن يفوز، وسيكون على الأرجح من يقبض عليه لورنس هانيلي.

- ها هم قد انطلقوا!

لا يقوم أيدان بمزيد من التعليق بعد ذلك.

السياج الأول سهلٌ. الحائط بين آل مكيفوي وآل بايرن، لا شجيرات هناك. عليك فقط أن تتأكد أن هناك مساحة كافية تطوح فيها رجلك. بعضنا يستطيع أن يطير فوق الحائط دون أن تلمس رجلاه أعلى الحائط -أنا أستطيع- لكنك تحتاج إلى مساحة كبيرة كي تفعل هذا. نعبر بايرن، اصرخ وصِح، هذا جزء من السباق، حاول ضبط أولئك المتخلفين في الخلف. عبر العشب، عبر بيت الزهور، عبر الممشى، من فوق الحائط... سياج. اقفز على الحائط، اقبض على السياج، قف منتصبًا، اقفز من هناك. خطر، خطر، بيت آل ميرفي، أكوام من الزهور، اركل بعضها، حول السيارة، سياج فوق الحائط، ضع قدمًا على ممتص صدمات السيارة، اقفز، انزل على السياج، تدرج. بيتنا، حول السيارة، لا سياج، اقفز من فوق الحائط، لا مزيد من الصراخ، ليس في الرئة مكان للصراخ. شعور بالحكة في الرقبة بسبب السياج، لا مزيد من السياجات.

ذات مرة، كان مستر مكلوكلين يجزُّ العشب عندما قفزنا جميعًا من فوق سياجه، كاد أن يُصاب بأزمة قلبية.

اقفز عبر حائط هانيلي، تمسك بالسياج. افرد رجلك، هذا صعب الآن، متعب للغاية. اقفز من السياج، تدرج، انهض واخرج من بوابتهم.

كسبت.

نظرت فوق رؤوسهم.

- اتجوزت واحدة جميلة... وبعدين؟

اتجوزت واحدة جميلة... وبعدين؟

ينظر إليّ خالي وخالتي وأربعة من أبنائهم، كلهم جالسون على الكنب، واثان آخران من الأبناء على الأرض.

- اتجوزت واحدة جميلة...

خلت حياتي بقت نيّلة...

أحب الغناء، أغني أحياناً دون أن يُطلب مني ذلك.

- نفسي أرجع وحدي من تاني...

فايق ورايق ولا بعاني..

كُنّا في بيت خالتي وخالي في مدينة كابرا، وإن كنت لا أعلم أين هذه بالضبط. إنه التناول المقدس الأول لسندباد. أحد أبناء خالتي أراد أن يرى كتاب صلواته، لكن سندباد لم يدعه يراه. غنيت بصوت أعلى.

- اتجوزت تاني واحدة غيرها... وبعدين؟

ماما استعدت للتصفيق. سندباد سيأخذ النقود من خالي، يداه كانتا تعبشان داخل جيبه، أستطيع أن أراه. فرد ساقه كي تستطيع يده بلوغ العملات في قاع الجيب.

عمتي تخبّي منديلاً في كمّها، أستطيع رؤية الانتفاخ حيث يكمن. لا يزال أمامنا اثنان من بيوت الخالات والأخوال لنزورهما، بعد ذلك نذهب إلى السينما.

- اتجوزت تاني واحدة غيرها...

راس حياتي بقت ديّلهما...

نفسى أرجع وحدي من تاني...

صفقوا جميعًا. أعطى خالي لسندباد شلنين، وذهبنا.

عندما يموت الهنود -الحمير منهم- يذهبون إلى أراضي الصيد السعيدة. الفايكينج يذهبون إلى فالهالا عندما يموتون أو يُقتلون. نحن نذهب إلى الجنة، ما لم نذهب إلى الجحيم. تذهب إلى الجحيم لو كانت روحك ملوثة بخطيئة كبرى عندما تموت، حتى لو كنت في طريقك إلى الاعتراف عندما دهسك اللوري. قبل أن تذهب إلى الجنة عادة ما تذهب إلى المطهر قليلًا، لتتخلص من الخطايا العالقة بروحك، لملايين قليلة من السنين غالبًا. المطهر مثل الجحيم لكنه لا يدوم إلى الأبد.

- هناك باب خلفي يا شباب.

تقضي نحو مليون سنة مقابل كل خطيئة صغرى، يعتمد هذا على نوع الخطيئة التي ارتكبتها، وعلى إذا ما كنت قد وعدت قبلها بألا تفعلها مجددًا. الكذب على والديك، السباب، الحديث باسم الرب عبثًا... كل منها مليون سنة.

- يا للمسيح!

- مليون!

- يا للمسيح.

- مليونان.

- المسيح.

- ثلاثة ملايين.

- المسيح.

سرقة الأشياء من المتاجر أسوأ، وسرقة المجلات أسوأ من سرقة الحلوى. أربعة ملايين عام لمجلة كرة القدم الشهرية، ومليونان للأهداف والكرة الأسبوعية. لو أنك اعترفت بكل شيء قبل أن تموت مباشرة، ليس عليك أن تذهب إلى المطهر على الإطلاق، تذهب إلى الجنة مباشرة.

- حتى لو قتلت الكثير من الأشخاص؟

- حتى لو قتلت الكثير...

هذا ليس عدلاً.

- القواعد نفسها تنطبق على الكل.

يفترض أن الجنة مكان رائع، لكن لا أحد يعلم عنها شيئاً. هناك قصور عديدة.

- قصر لكل واحد؟

- نعم.

- هل عليك أن تعيش في قصرك وحدك؟

لم يُجب الأب مولوني بسرعة كافية.

- هل لا يمكن لمامتك أن تعيش معك؟

- بالطبع يمكنها.

يأتي الأب مولوني إلى فصلنا أول أربعاء من كل شهر للدردشة. نحبه، إنه لطيف، في رجله عرج.

- ما الذي يحدث إذن لقصرها يا أبتاه؟

رفع الأب مولوني يده ليوقف أسئلتنا، وضحك كثيراً، لم نعرف السبب.

- في الجنة يا شباب... ثم انتظر قليلاً، - في الجنة، يمكنك أن تعيش مع أي شخص تريده أينما أحببت.
قلق جيمس أوكيف.

- أبتاه، ماذا لو لم تحب أمك أن تعيش معك؟

جلجلت ضحكة الأب مولوني، لكن هذا لم يكن مضحكاً.

- يمكنك إذن أن تذهب أنت وتعيش معها، ببساطة.

- ماذا لو أنها لم ترغب في مجيئك؟

قال الأب مولوني: بل هي سترغب.

قال جيمس أوكيف: ربما لن تفعل، لو أنك شقي.

قال الأب مولوني: أها، هنا تكمن الإجابة، لا يوجد أشقياء في الجنة.

الطقس في الجنة رائع على الدوام، والأرض كلها عشبية، والوقت دوماً نهار، لا ليل أبداً. لكن هذا هو كل ما أعرفه عنها. جدو كلارك هناك بالأعلى.

سألت أمي: هل أنت متأكدة؟

قالت: نعم.

- أكيد؟

- نعم.

- خرج من المطهر بعد هذا الوقت القصير.

- نعم، لم يكن بحاجة إلى دخول المطهر لأنه أدلى باعترافٍ وافيٍ.

- كان محظوظاً، أليس كذلك؟

- نعم.

سعدت بذلك.

أختي بالأعلى هناك أيضًا، الأخت التي ماتت، أنجيلا. ماتت قبل أن تخرج من ماما، لكن ماما قالت إنها وجدت وقتًا كافيًا لتعميدها، وإلا كان سينتهي بها الحال في الليمبو.

سألت ماما: هل أنت متأكدة أنها دخلت الماء قبل أن تموت؟

- نعم.

- أكيد؟

- نعم.

تساءلت كيف تمكنت وحدها من فعل ذلك لرضيعة لم يبلغ عمرها ساعة واحدة.

قالت ماما: جدو كلارك يعتني بها.

- حتى نذهب إليهما بالأعلى؟

- نعم.

الليمبو مكان للرضع الذين لم يعمدوا، وللحيوانات الأليفة. إنه مكان لطيف كالجنة، لكن الرب ليس هناك. يزوره المسيح أحيانًا، وأمه مريم أيضًا، عندهما بيت فيه. هناك القطط والكلاب والأطفال الرضع وخنازير غينيا والأسماك الذهبية. الحيوانات غير الأليفة لا تذهب إلى أي مكان، فقط تتعفن وتختلط بالتربة وتجعلها أفضل، ليس لديهم أرواح، أما الحيوانات الأليفة فلها. لا حيوانات في الجنة، عدا الأحصنة والأحصنة المخططة والقردة الصغيرة.

كنت أغني مجددًا. بابا يعلمني أغنية جديدة.

- ذهبت إلى النهر

لأشاهد الأسماك تعوم وتعوم وتعوم

لم أحبها.

- لكن لما بلغت النهر

وجدتني وحيدًا أريد أن أموت أموت أموت

لم أتمكن من اتقان غناء أمووووت، لم أستطع رفع وخفض صوتي
مثلما يفعل هانك ويليامز⁽¹⁾ في التسجيل.

لكني أحببت المقطع التالي.

- فقفزت في النهر

لكن النهر اللعين كان جاف جاف جاف

قال بابا: ليس سيئًا.

كان اليوم الأحد، مساء الأحد، وأنا أشعر بالملل. ذلك هو الوقت
الذي تعلمني فيه دومًا أغنية جديدة. جاء يبحث عني، أول مرة
فعل كان مع أغنية براين أولين. ليس لها تسجيل، بل مجرد كلمات
في كتاب يُدعى (أغاني الشارع الشعبية الأيرلندية). تتبعت إصبع بابا
وغنينا الكلمات معًا.

- براين أولين وزوجته وحماته

ينامون جميعًا في السرير ذاته

الملاءة قديمة والبطانية خفيفة

لكن الحائط يحميهم من العالم وويلاته

الأغنية كلها تشبه ذلك، مسلية وسهلة. غنيتها في المدرسة وأوقفتني
مس واتكينز بعد المقطع الذي ذهب فيه براين أولين ليخطب
عروسًا، لأنها حسبت أن الاغنية ستصبح بذئنة بعد ذلك، هذا غير
صحيح، لكنها لم تصدقني.

(1) هانك ويليامز (1923 - 1953): Hank Williams: مغني بلوز وكنتري أمريكي، ويُعد من
أكثر المغنيين وكتاب الأغاني المؤثرين في أمريكا بالقرن العشرين. [المترجم]

غنيت المقطع الأخير خلال الاستراحة في ساحة المدرسة في الحادية عشرة.

حذرتهم: إنها ليست بذينة.

- غنّها على أي حال، هيا.

- حسنًا...

براين أولين وزوجته وأمها

ضحكوا.

- ليست...

- اخرس وتابع الغناء.

- كانوا على الجسر في الليلة ذاتها

الجسر انكسر ووقعوا في الماء

السباحة جميلة في الأوقات كلها

قال كيفين: هذا غباء.

قلت: أعرف، قلت لك.

لا أعتقد أن هذا غباء أبدًا.

جاء هينو وفرّقنا جميعًا لأنه حسب أن هناك شجارًا. قبض عليّ

وقال إنه يعرف أنني أحد قادة العصابة، وأنه سيرا قبني، ثم تركني

أذهب. لم يكن قد أصبح مسؤولاً عن فصلنا بعد، كان هذا قبل سنة

من ذلك، لذا لم يكن يعرفني.

قال: راع تصرفاتك يا ولد.

- ذهببت وترك...

لم أعرف كيف أفعلها، لم أعرف حتى ما الذي يغنيه هانك ويليامز.

بابا ضربني.

على كتفي. كنت أنظر إليه، وعلى وشك أن أقول له إني لا أريد أن أغني هذه الأغنية. الضربة مؤلمة جدًا. هذا مضحك؛ عرفت أنه سيضربني قبل أن يفعل من النظرة على وجهه قبل أن يفعلها بثوانٍ، ثم بدا كأنه غيرَ رأيه، كأنه تحكّم بنفسه، ثم سمعت الخبطة وشعرت بها، كأنه نسي أن يقول ليده ألا تذهب ناحيتي.

لم يرفع إبرة مشغل التسجيلات.

- يحتاج الرجل إلى امرأة يستند إليها

لكن مسندي ذهبت وتركتني

دعكت كتفي من فوق كنزتي وقميصي ومعطفي، بدت كأنها تتوسع وتنكمش، لم توجعني بشدة.

لم أبك.

قال بابا: هيا.

رفع الإبرة هذه المرة، وبدأنا مرة أخرى.

- ذهبت إلى النهر

لأشاهد الأسماك تعوم وتعوم وتعوم

وضع يده على كتفي، كتفي الآخر. أردت أن أمْلص منه، لكن بعد فترة لم أمانع.

مشغل التسجيلات كان عبارة عن صندوق أحمر. جاء به إلى البيت وهو عائد من الشغل ذات مرة. يمكنك أن تضع عليه ست أسطوانات، على قرصه الدوار، لكن عندنا ثلاثة فقط: زا بلاك أند

وايت مينسترلز⁽¹⁾، وساوث باسيفيك⁽²⁾، وهانك ويليامز ملك موسيقى الكنتري. عندما جلب مشغل التسجيلات معه إلى البيت كانت عندنا أسطوانة واحدة: ساوث باسيفيك. شغلها طوال ليلة الجمعة وعطلت نهاية الأسبوع. حاول أن يعلمني أغنية (سأغسل شعري من هذا الرجل) لكن ماما منعتة، قالت إنني لو غنيت هذه الأغنية في المدرسة أو في أي مكان بالخارج، سيكون علينا أن نبيع البيت ونرحل عن هنا.

كان يُشغل تسجيلات بسرعات 33 و45 و78 لفة في الدقيقة. الأسطوانات الطويلة هي التي بسرعة 33، مثل الثلاث التي ممتلكها. كيفين ذات مرة سرق أسطوانة أخيه (أنا مؤمن، لفرقة المونكيز) من بيتهم، من النوع الذي يعمل بسرعة 45، لكن بابا لم يدعنا نشغلها. قال إنها مخدوشة. إنه لم ينظر حتى إليها، لم يكن حتى يستخدم المشغل وقتها. كان المشغل ملكه. كان في نفس الغرفة التي فيها التلفزيون. عندما يشغله يظل التلفزيون مطفأ. ذات مرة شغل أسطوانة زا بلاك أند وايت مينسترلز في نفس الوقت الذي كانوا فيه على التلفزيون، وخفض صوت التلفزيون، لكن هذا لم يفلح. فم المغني، ذاك الرجل الأسود الذي يغني الأغاني الجادة، ظل يفتح وينغلق على الشاشة بعد انتهاء التسجيل وبات يجب أن ترتفع الإبرة، لكنها لم ترتفع، ظلت تدور وتجرح الأسطوانة، فكان على بابا أن يرفعها.

قال لي: هل كنت تعبت فيه؟

- لا.

(1) The Black and White Minstrels: برنامج منوعات ترفيهي كوميدي بريطاني، بدأ عام

1958 واستمر عرضه عشرين عامًا على قناة BBC. [المترجم]

(2) South Pacific: مسرحية موسيقية أمريكية من تأليف أوسكار هامرشتاين الثاني Os-

car Hammerstein II وتلحين ريتشارد رودجيرز Richard Rodgers، عُرضت لأول مرة على

مسارح برودواي عام 1949 ولاقت نجاحًا ضخمًا. [المترجم]

- أنت إذن، هل فعلت؟

قال سندباد: لا.

قال: أحدهم فعل بالتأكيد.

قالت ماما: لم يلمسها.

اشتعل وجهي وأنا أنتظر حدوث شيء آخر، أن يرد عليها بقول أي شيء.

في مرة، شغّل هانك ويليامز في أثناء الأخبار، هذا كان جامدًا، كأن تشارلز ميتشيل⁽¹⁾ يغني: الآن تنظرون إلى رجل يتحول إلى الجنون، حالفني الحظ حينًا لكني كنت دائمًا مطحون. جلجلت ضحكاتنا جميعًا، وسمح لي ولسندباد بالبقاء مستيقظين لنصف ساعة بعد موعد نومنا.

عندما صارت عندنا سيارة، من نوع كورتينا مثل سيارة هينو، سوداء، أخذ أبي يقودها في شارعنا صعودًا ونزولًا كي يتعلم القيادة، يُعلم نفسه بنفسه. لم يسمح لنا بدخولها.

قال: ليس بعد.

ذهب إلى الواجهة البحرية، وذهبنا خلفه، بوسعنا موازاة سرعته. لم يستطع الدوران بها عائدًا إلى البيت. رأنا نراقبه ونادانا. حسبت أنه سيقتلنا. كنّا سبعة، تكدّسنا في المقعد الخلفي وعادت السيارة بنا بظهرها حتى وصلت إلى البيت. غنّى بابا موسيقى مسلسل باتمان. أحيانًا يكون مجنونًا، مجنونًا لكن جامد. نزفت أنف أيدان عندما ترجل، أخذ يتأوّه. نزل بابا على ركبتيه وأمسك أيدان من كتفيه، ومسح أنفه بمنديلته وجعله يتمخط فيه، وقال له إنه سيحظى بمتعة

(1) Charles Mitchel(1920 - 1996) : مذيع إخباري أيرلندي شهير. [المترجم]

كبيرة وهو يلتقط الدم اليابس من أنفه عندما يأوي إلى فراشه ليلاً، فضحك أيدان.

ذهبوا جميعاً إلى الحقل خلف المتاجر للبحث عن كوخ الفتية الكبار وتخريبه، لكنني لم أذهب، أردت البقاء مع بابا. جلست بجواره وهو يقطع الطريق صعوداً ونزولاً. ذهب إلى راهيني. احتك بالمصرف بينما يدور يمينا.

قال: أغبى مكان لوضع المصارف.

شخص ما ضرب عليه الكلاكس.

قال بابا: أحقق لعين.

وردَّ ضربة الكلاكس بعدما ذهب ذاك الشخص.

عدنا إلى شارع باريتاون الرئيسي. فتحنا نوافذنا، أخرجت مرفقي من النافذة لكن بابا لم يتركني أفعل ذلك. ركن السيارة بالخارج على حافة الطريق، على بُعد بوابتين من بيتنا.

قال: يكفيننا هذا.

سندباد كان في الخلف.

خرجنا في نزهة في اليوم التالي، خرجنا مع أنها كانت تمطر. جلست أنا وسندباد في الخلف، وماما جلست بجوار بابا وكاثرين على ركبتيها. ديردري لم تكن قد وُلدت بعد حينها، بطن ماما كانت منتفخة، ممتلئة بها. ذهبنا إلى دوليماونت.

أردت أن أعرف: لماذا لا نذهب إلى الجبال؟

قالت ماما: ابق هادئاً يا باتريك.

بابا كان يستعد للخروج من باريتاون إلى الطريق الرئيسي. كان يمكننا أن نتمشى إلى دوليماونت، بوسعنا رؤية الجزيرة من مكاننا بالسيارة.

اهتزّت الكورتينا قليلاً وصدر عنها صوتٌ مثل ذلك الذي يخرج منك عندما تضغط شفّتيك معاً وتنفخ، وحدث احتكاك ما عندما دخلنا في الرضيع.

- ما مصدر ذلك الصوت؟

قالت ماما: هشششش.

لم تكن مستمتعة، أستطيع رؤية ذلك، إنها تحتاج إلى يومٍ جيدٍ بالخارج.

قلت: ها هي الجبال.

ذهبت إلى ما بين مقعديهما وأشارت إلى الجبال ليروها، إنها عبر المرفأ، ليست بعيدة إلى هذه الدرجة.

- انظرا.

- اجلس مكانك!

سندباد على الأرض.

- هناك غابات.

- ابق هادئاً يا باتريك.

- اجلس مكانك أيها الأحمق اللعين.

دوليامونت على بُعد ميلٍ واحدٍ فقط، ربما أكثر، لكن ليس بكثيرٍ عليك أن تقطع جسراً خشبياً لتصل إلى الجزيرة، باقي الطريق مملٌ.

قال سندباد: أريد الذهاب إلى الحمام.

- يا للمسيح!

قالت ماما لبابا: بات!

قلت: لو أننا ذهبنا إلى الجبال، يمكنه أن يفعلها خلف شجرة.

- سأطوحك من فوق شجرة لو لم تجلس وتختفي من مجال نظري.
- أباكم منفعل...
- لست كذلك.
- هو كذلك.
- لا أرغب إلا في بعض الهدوء.
- الجبال هادئة جداً.

سندباد هو من قال ذلك. ضحكا، بابا وماما، خاصة بابا.

وصلنا هناك، أعني دوليماونت، لكنه كان عليه أن يعبر الجسر مرتين قبل أن يتمكن من الإبطاء في اللحظة المناسبة لينعطف ولا يفوت المخرج. لا تزال تمطر بالخارج. ركن السيارة في مواجهة البحر. كانت لحظة جزر والمياه منحسرة فلم نستطع رؤيتها. على أي حال المحرك مطفاً والمساحات لا تعمل. أفضل شيء هو صوت المطر على سطح السيارة. ماما جاءتها فكرة: نستطيع العودة إلى البيت ونحظى بالنزهة هناك.

قال بابا: لا.

قبض على عجلة القيادة.

قال: نحن هنا الآن...

نقر على العجلة.

أخرجت ماما حقيبة قشية من بين قدميها ووزعت طعام النزهة.

قال بابا: لا تنثرا الفتات والبقايا في السيارة.

كان يتحدث إليّ وسندباد.

توجب علينا أكل السندوتشات. كانت لطيفة، بيض، باتت السندوتشات مسطحة تمامًا، لم يتبق في الخبز أي فتحات. بيني وبين سندباد علبة فانتا، لم تتركنا ماما نفتحها، الفتاحة معها. وضعت الفتاحة تحت حافة العلبة وضغطت مرة لتصنع الفتحة المثلثة التي نشرب منها، ومرة ثانية للفتحة في الناحية الأخرى ليدخل منها الهواء. بعد بضع رشقات صار بوسعي الشعور بفتات الطعام في الفانتا، أستطيع الشعور بها وأنا أبلع. الفانتا كانت دافئة.

ماما لم تقل شيئًا. معهما ترموس مليء بالشاي، نزعنا من على قمة الترموس كوبًا، وأخرجت من معها كوبًا آخر كانت قد لفتته بالمناديل الورقية. رفعت الكوبين إلى بابا كي يحملهما بينما تصب فيهما الشاي، لكنه لم يأخذهما منها. كان ينظر أمامه مباشرة على المطر المتساقط على الزجاج الأمامي. لم تقل شيئًا، وضعت أحد الكوبين جانبًا وملأت الآخر، فوق رأس كاثرين، وقدمته إلى بابا، أخذه. كان الكوب الكبير، ذلك الذي كان على قمة الترموس. رشف الشاي، وقال شكرًا. قالها كأنه لا يعينها.

- هل يمكننا الخروج؟

- لا.

- لم لا؟

- لا.

- المطر أكثر من اللازم، ستموتان لو خرجتما.

وضع سندباد يده تحت إبطه وأغلق ذراعه عليها. صدر عنها صوت ضرطة. مارجريت، صديقة مستر أوكونيل، علمتنا كيف نفعلها. كرر سندباد فعلته.

قال بابا: - افعلها مجددًا...

لم يلتفت إلينا.

- ...وانظر ماذا سيحدث.

وضع سندباد يده تحت إبطه مجددًا. قبضت على ذراعه كي لا يستطيع إكمالها، سيُلقي باللوم عليّ. ابتسم لي وأنا أحاول منعه. إنه غير معتادٍ الابتسام على الإطلاق، حتى عندما يلتقط لنا بابا الصور الفوتوغرافية، لا يبتسم سندباد. علينا أن نقف متجاورين أمام ماما -بنفس الشكل كل مرة- وبابا يمشي في الاتجاه المعاكس ثم يدور وينظر إلينا بالكاميرا، كاميرا من النوع الصندوق، ماما اشترتها بأول راتب لها قبل أن تتزوج، قبل أن تلتقي بابا، ثم يقول لنا أن نتحرك قليلًا، ثم يستغرق دهورًا في النظر عبر الكاميرا ثم النظر إلينا مجددًا، ثم يلاحظ أن سندباد لا يبتسم.

عندها يقول: ابتسموا. يقولها لنا جميعًا في البداية.

الابتسام سهل.

ثم يقول بصوتٍ يحاول أن يجعله يبدو عاديًا: فرانسيس، ارفع رأسك، هيا.

ماما عندها تضع يدها على كتف سندباد وتظل تحاول التمسك بإحدى الرضيعتين.

- تبًا لذلك! غطت الشمس غيمة.

لكن سندباد لا يرفع رأسه، فيفقد بابا أعصابه. كل الصور كانت كذلك، أنا وماما نبتسم كالمجانين وسندباد ينظر إلى الأرض، نحافظ على الابتسامة لفترة طويلة حتى لا تعود ابتسامه. عندما تبادلا الأدوار وماما أخذت الكاميرا كي يصبح هو في الصورة، بدا بابا كأنه يبتسم فعلاً ووجه سندباد اختفى بالكامل، جعل ينظر إلى الأرض أكثر.

لم يكن في هذا اليوم أي صور.

ماما لفت لكل من البسكويت في أوراق الألومنيوم، بهذه الطريقة لن يكون علينا أن نتشارك وبالتالى لن نتشاجر. أستطيع معرفة نوع البسكويت الملفوف من شكل التغليف: أربعة بسكويتات مارييتاس، كل اثنتين منهما معاً وبينهما الزبد مثل السندوتش، والشكل المربع في القاع بسكويتة بولو، سأحتفظ بالبولو إلى النهاية.

قالت ماما شيئاً لبابا، لم أسمعها. أستطيع أن أخمن من النظرة على جانب وجهها أنها تنتظر منه إجابة، لكن وجهها يقول ما هو أكثر.

عندما تضغط بسكويتي المارييتاس معا تخرج الزبدة من الثقوب. نسميه أحياناً بسكويت المؤخرات، نظراً إلى الشكل الذي تخرج به الزبدة، لكن ماما لا تدعنا نسميها ذلك.

أخذت الفانتا من سندباد، وتركني أخذها، كانت خاوية، لا يفترض بها أن تكون خاوية.

نظرت إلى ماما مجدداً، لا تزال تنظر إلى بابا. كاثرين عضت على إحدى أصابع ماما بفمها وضغطت عليها بقوة -عندها القليل من الأسنان- لكن ماما لم تفعل شيئاً حيال ذلك.

سندباد كان يأكل البسكويت بالطريقة التي يأكله بها دائماً، وأنا كذلك؛ قرض الأطراف حول الحافة بشكل دائري حتى تعود المارييتاس إلى نفس شكلها مجدداً، لكن أصغر. لعق الزبدة الخارجة من الثقوب. عندما انتهى من تناول اللفة الأولى، أوقفته. قبضت على يده التي تحوي البسكويتة السندوتش، وسحقها بيدي، فجعلته يهشم بسكويته إلى فتات أصغر من أن يستطيع إنقاذها. هذا لأنه شرب الفانتا كلها.

ماما خرجت من السيارة. كان هذا غريباً لأنها تحمل كاثرين. حسبت أننا سنخرج جميعاً، وأن المطر قد توقف.

لكنه لم يتوقف، ظل يهطل بغزارة.

حدث شيء ما، شيء ما.

تركت ماما الباب مفتوحًا، انغلق خلفها قليلاً لكنه ظل مفتوحًا. انتظرت أنا وسندباد أن يتحرك بابا، لرؤية ما الذي يفترض بنا أن نفعله. انحنى وقبض على باب المقعد المجاور وأغلقه. صدرت عنه زمجرة وهو يعتدل.

سندباد كان يلعب يديه.

سألت: أين ذهبت ماما؟

بابا تنهد، ودار قليلاً حتى صرت قادرًا على رؤية القليل من جانب وجهه، ثم لم يقل أي شيء. جعل ينظر إلينا عبر مرآة الزجاج الأمامي، لم أستطع رؤية عينيه. رأس سندباد كانت محية لأسفل مثلما يفعل دائماً. مسحت البلل عن النافذة المجاورة لي، كنت أنوي ألا ألمسها حتى نعود للبيت. لم أستطع رؤية شيء، هناك أميال من الرمل لكن لا أثر لماما. كنت في الناحية الخاطئة، خلف بابا.

- هل ذهبتُ إلى شراء الآيس كريم؟

مسحت نافذتي مجددًا.

انفتح الباب، دخلت ماما، خفضت رأسها كي تتأكد من حماية كاثرين من الارتطام بأي شيء. شعرها كان ملتصقًا بها. لم يكن معها شيء، لم تجلب لنا شيئًا.

قالت بعد وهلة: كان المطر أسوأ من أن تتحمّله كاثي.

أدار بابا محرك السيارة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت: لقد أصبحت طويلًا جدًا.

كانت تحاول إغلاق سحاب بنطالي.

- ستصبح قريبًا بمثل طول أبيك.

أريد ذلك، أن أكون بمثل حجم بابا، اسمي مثل اسمه. انتظرت أن يذهب إلى عمله قبل أن أريها أن السحاب في البنطال لا ينغلق كما ينبغي له، هو كان سيستطيع إغلاقه. تمنيت ألا تستطيع فعلها، أكره هذا البنطال، إنه من قماش القטיפئة المضلع، أصفر اللون. كان لأحد أبناء أعمامي قبلي. لم يكن بنطالي الخاص أبدًا.

حاولتُ شدَّ جانبي السحاب معًا كي يرتفع معها. لم أغش، بل أنا حتى شفتت معدتي.

قالت: لا فائدة.

تخلت عن البنطال.

قالت: انتهى أمره. أنت تكبر بسرعة شديدة يا باتريك.

لم تعنِ ما قالت.

- سنضطر إلى استخدام دبوس أمان.

رأت وجهي.

- اليوم فقط.

كانوا يتحققون من لقاح السل، هذا ما ردَّده الجميع. هينو لم يخبرنا بشيء، بل هو فقط جعلنا نصطف في طابور، وعلى أول اثنين في الطابور أن يخلعا معطفيهما وكنزتيهما وقميصيهما عندما يفتح الباب وإلا سيكونا في مشكلة. لم يدخل حتى الآن إلا اثنان ولم يخرجوا بعد. يفترض به أن يراقبنا، لكنه لا يفعل، بل ذهب إلى غرفة المدرسين بالدور العلوي ليشرب الشاي.

- لا تحسبوا أني لن أسمعكم!

مشى يدق بقدمه على الأرض الخشبية. ظلّت ضجة خطواته تتردّد عبر الردهة، استغرقت دهورًا قبل أن تختفي.

قال: مثلما تسمعون، الهمس مستحيل في مدرستنا، سأسمع كل دبة مُلمة.

ثم ذهب.

سمعناه على قمة السلم، ثم توقف.

إيان مكيفوي تأكد من أن الحائط يداريه، ثم دق بقدميه مثلما فعل هينو. ضحكنا كثيرًا. انتظرنا أن يعود هينو، ولم يفعل. دققنا جميعًا بأقدامنا. يبدو أن حذاءه كان سبب شدة دقاته، لم نتمكن من صنع نفس الضجة. لكن هذا كل ما فعلنا، لم نتصيح ولم نعبث.

كانوا يتحققون من علامات لقاح السل.

ماذا سيفعلون لو لم يجدوها كلها عندك؟

يفترض أن يكون عندك ثلاث منها.

- سيعطونك المزيد.

هناك مثلثٌ منها فوق ذراعك الأيسر. شكل الجلد مضحك في تلك الدوائر الصغيرة.

- يعني ذلك أن عندك شلل أطفال.

- غير صحيح.

- يعني أنك قد يصيبك شلل الأطفال.

ديفيد جيراتي، الولد المصاب بشلل الأطفال في فصلنا، كان في الطابور خلفنا.

قلت: جيراتي، هل أخذت لقاح السل؟

قال: نعم.

سأله فلوك كاسيدي: إذن كيف أصابك شلل الأطفال؟

انفرط الطابور قليلاً حول ديفيد جيراتي.

قال: لا أعلم، لا أذكر.

- هل ولدت به؟

بدا ديفيد جيراتي على وشك البكاء. استقام الطابور مرة أخرى، حاولنا جميعاً الابتعاد عنه بقدر الإمكان. لا يزال أول اثنين لم يخرجوا.

- قد يصيبك شلل الأطفال من شرب الماء من المرحاض.

انفتح الباب، خرج الولدان: براين شريدان وجيمس أوكيف. كانا في ملابسهما الكاملة، لم يبد عليهما الشحوب ولا الخوف ولا شيء، ولا مسارات دموع جافة. دخل الولدان التاليان.

- ماذا فعلوا بكما؟

- لا شيء.

لم يعلما ماذا يفترض بهما أن يفعلا الآن. لا يمكنهما العودة إلى الفصل لأن لا أحد هناك، وهينو سيقتلها لو ذهبا من تلقاء نفسيهما. خلعت كنزتي وتركتها تسقط على الأرض.

- ماذا؟

قال براين شريدان: لا شيء، فقط نظروا.

يبدو الآن مختلفاً، وجهه تيبّس. أخذ يعبث في حذائه. توقفت عن خلع قميصي، كيفين أمسك ببرائين شريدان.

- دعني!

- ماذا فعلوا؟ أخبرنا!

- نظروا إليّ فقط.

بات وجهه أحمر جدًا، لم يكن يحاول التملّص من كيفين، بل كان يحاول ألا يدع كيفين أو أيًا منّا نرى وجهه جيدًا. سيبدأ في البكاء بالتأكيد.

الولد الآخر، جيمس أوكيف، لم يحمر وجهه.

قال: نظروا إلى بلابلنا.

أستطيع سماع احتكاك النهايات المطاطية لعكازات ديفيد جيراتي بالأرض. جيمس أوكيف نظر إلى الطابور مرة أخرى. يعرف أنه باتت في يده السلطة، ويعلم أنها لن تدوم طويلًا. الجو مثلج. وجه جيمس أوكيف صار في غاية الجدية، امتلكننا جميعًا تحت سيطرته.

- اترك ذراعي.

كيفين ترك براين شريدان.

- لماذا؟

جيمس أوكيف لم يجب عن هذا السؤال، لم يكن جيدًا بما يكفي.

- لماذا يفعلون ذلك؟

- نظروا فقط؟

قال جيمس أوكيف: نعم، انحنيت واكتفت بالنظر عندي، لكنها لمسته هو.

قال براين شريدان: بل لم تفعل! لم تفعل!

صار على وشك البكاء مجددًا.

قال جيمس أوكيف: بل فعلت، أنت كذاب يا شيرو.

- لم تفعل.

قال جيمس أوكيف: استخدمت عصا خشبية مثل التي في الآيس كريم.

صرنا جميعًا نصيح الآن، نحث جيمس أوكيف على الإسراع.

- ليس بأصابعها.

صرخ بها براين شريدان، ذاك هو المهم، وجهه قال ذلك.

- ليس بأصابعها، ليس بيدها.

هدأ بعد ذلك، لكن ظل وجهه شديد الاحمرار والشحوب. أمسك
كيفين بجيمس أوكيف، ووضعت كنزتي على رقبته لأخنقه. علينا أن
نعرف ما الذي فعلته بعصا الآيس كريم، دورنا يقترب.

- أخبرنا.

خنقت جيمس أوكيف قليلاً.

- هيا يا أوكيف، أخبرنا.

خففت من إحكام كنزتي، صار على رقبته علامة حرق، لم نكن نمزح.

- رفعتُ بلبله إلى أعلى بعصا الآيس كريم.

ثم التفت نحوي.

- سأنال منك.

لم يقل هذا لكيفين، فقط قاله لي.

قال إيان مكيفوي: لماذا؟

قال جيمس أوكيف: لتراه من الخلف.

- لماذا؟

- لا أعرف.

- ربما لتتأكد أنه طبيعي.

سألت براين شريدان: هل هو طبيعي؟

- نعم!

- أثبت ذلك.

خرج الاثنان الآخران.

- هل لمستكما بعضا الأيس كريم؟

- لا، فقط نظرت، أليس كذلك؟

- نعم.

كيفين سأل براين شريدان: إذن لماذا لمستك أنت؟

برائين شريدان بدأ يبكي مرة أخرى.

قال: بل هي نظرت فقط.

تركناه وحده. خلعت قميصي. دورنا بعد التالي. عندها تساءلت:

- لماذا نخلع ملابسنا؟

أجاب جيمس أوكيف.

- إنهم يفعلون أشياء أخرى أيضاً.

- أي أشياء أخرى؟

الاثنان أمامنا كانا بطيئين جداً، اضطرت الممرضة إلى لمس مرفقيهما

لجذبهما إلى الغرفة. أغلقت الباب.

سألت جيمس أوكيف: أهذه هي؟

قال: نعم.

تلك كانت ذات عصا الآيس كريم، هي التي تنحني على ركبتها وتنظر إلى بلابلنا. لم تبد لي مثل ذلك، بدت لطيفة، كانت تبتسم وهي تجذب الاثنين أمامنا. شعرها الكبير يتجمع في كعكة وبعضه يتدلى أمام عينيها وأذنيها. لم تكن ترتدي قبعة. كانت شابة.

قال ديفيد جيراتي: السافلة الوسخة.

انفجرنا في الضحك. هذا لأنها كلمة مضحكة، ولأن ديفيد جيراتي من قالها.

سأله كيفين: هل بلبلك عنده شلل أطفال؟

نال كيفين ما لم يتوقعه.

قال ديفيد جيراتي: نعم، لن تلمسه.

ثم تذكرنا.

- أي أشياء أخرى؟

أخبرنا براين شريدان. ذهب الاحمرار من وجهه وبدا طبيعياً.

قال: سيسمع الطبيب ظهرك بالسماعة الطبية.

- وصدرك.

قال جيمس أوكيف: السماعة باردة.

قال براين شريدان: نعم.

قال أحد الآخرين اللذين خرجا لتوهما: نعم، هذا أسوأ جزء.

- هل فحصوا علامات تطعيم السل؟

- نعم.

- ألم أقل لكم؟

تفحصت علاماتها عندي مجددًا. ثلاثتهم موجودون، واضحون جدًّا، مثل قمة ثمرة جوز هند. نظرت إلى علامات كيفين، كانوا موجودين أيضًا.

سأل أحدهم: هل هناك حقن؟

قال براين شريدان: لا.

قال جيمس أوكيف: على الأقل لم يعطونا أي حقن، لكن ربما بعضكم...

- أخرس يا أوكيف.

تكلم ديفيد جيراتي مرة أخرى.

- هل فعلوا أي شيء بمؤخرتك؟

انفجر الضحك. ضحكت أعلى مما أردت أن أفعل، كلنا فعلنا. كنَّا خائفين، وكنَّا قد جعلنا ديفيد جيراتي على وشك البكاء. هذه أول مرة يكون فيها ديفيد جيراتي مضحكًا بصوت عالٍ أمام الجميع. أحببته. خرج الاثنان، بيتسمان. الباب مفتوح لنا، حان دورنا. دخلت أولًا، اضطررت إلى ذلك، لقد دُفعت.

قال ديفيد جيراتي: قل لها أريد الآيس كريم بالشيكولاتة.

ضحكت لاحقًا، لكن ليس في وقتها.

كانت تنتظر. توقفت عن التحديق عندما نظرت إليّ.

قالت: البناتيل والملابس الداخلية يا أولاد.

تذكرت حينها فقط دبوس الأمان على قمة سحاب بنطالي، وضعته أمي هناك. اشتعل وجهي. استدرت قليلًا بعيدًا عن كيفين، فككته ووضعتنه في جيبي، استدرت عائدًا وصرقت لأنفوس السخونة عن وجهي. لباس كيفين كان متسخًا، في المنتصف من الأسفل، هناك خط

بني طويل يبهت لونه عند الأطراف. لم أنظر إلى لباسي، فقط تركته ينزل، ولم أنظر في أي اتجاه، لا إلى الأسفل، ولا إلى كيفين، ولا إلى الطبيب على المكتب. انتظرت. انتظرت أن أشعر بالعصا. إنها أمامي، أشعر بذلك، لم أنظر، لم أعد أشعر ببليي حينها، لم أشعر بأي شيء هناك على الإطلاق. عندما تأتي عصا الآيس كريم تحتي سأصرخ، سأوسخ نفسي. إنها لا تزال هناك، منحنية تنظر إليه، تحديق، ربما تحك ذقنها وتفكر هل تفعلها أم لا. هناك شبكة عنكبوت في الركن فوق الدكتور، شبكة كبيرة جافة، هناك خيط يتدلى. أشعر بالهواء تحت، وهي لا تزال تفكر إن كان سيئاً إلى حد يتطلب أن ترفعه لترى الناحية الأخرى منه. لو لم أنظر لن تفعلها. تابعت النظر إلى العنكبوت. لو فَعَلْتَهَا سينتهي أمري إلى الأبد. أكثر شيء رائع في العناكب هو أنها تصنع شباكها بنفسها. لن أصبح طبيعياً مرة أخرى...

قالت: تمام، اذهب إلى دكتور مكينا.

لا لمسات، لا عصي. كدت أنسى أن أرفع لباسي وبنطالي، أخذت أول خطوة ثم رفعتهما، كان ما بين ردفيّ مبتلاً، لا يهم الآن، لا عصي، وثلاث علامات للقاح السل.

سألني كيفين: هل لَمَسْتُ شيئك؟

قالها همساً عند الباب ونحن خارجون.

قلت: لا.

شعرت بشعور جاد.

قال: ولا أنا.

لم أخبره عما رأيته في لباسه.

تحت المائدة هناك حصن. رغم أن الكراسي الستة مدفوعة تحت المائدة، تظل هناك مساحة واسعة. هكذا أفضل، أكثر سرية، كنت

أجلس هناك لساعات. هناك مائدة ممتازة في غرفة المعيشة، تلك التي لا تُستخدم إلا في الكريسماس. لم أضطر إلى أن أحنى رأسي، سقف المائدة كان فوقى بالضبط، أحبه بهذه الطريقة، يجعلني أركز في الأرض وفي القدمين. أرى أشياء، كرات من الزغب يربطها ببعضها الشعر، تطفو فوق مشمع الأرضية، في المشمع شقوق صغيرة تصبح أكبر لو ضغطت عليها. الشمس كانت مليئة بالغبار، كتلاً ضخمة من الغبار، تجعلني أريد أن أتوقف عن التنفس، لكنني أحب مراقبتها، تهادي كندف الثلج. عندما يقف بابا، يقف ساكناً تماماً، ترسخ قدماه على الأرض، لا تتحركان إلا عندما يذهب إلى مكان ما. قدما ماما مختلفتان، لا تستقران قط، لا تستقر على رأبي. أروح في النوم هناك، اعتدت أن أفعل، الجو هناك بارد دوماً، ملمس المشمع لطيف على وجهي، والهواء لم يكن حياً مثل خارج المائدة، كان آمناً. به رائحة أحببتها. جوارب بابا عليها أشكال ماسية. استيقظت ذات مرة ووجدت فوقى بطانية، أردت أن أظل هناك إلى الأبد. كنت قريباً من المائدة، بوسعي سماع الطيور في الخارج. ساقا بابا معقودتان، كان يدندن. الرائحة من المطبخ جميلة، لم أكن جائعاً. حساء. إنه يوم الخميس، لا بد أنه كان كذلك. ماما أيضاً كانت تدندن، نفس الأغنية التي يدندنها بابا. لم تكن أغنية بمعنى الكلمة، مجرد همهمة فيها بعض الألحان. لم يبد أنهما لاحظا أنهما يدندان نفس الشيء، إنها الألحان وقد تسربت إلى رأس أحدهما، رأس بابا على الأرجح، ماما كانت تدندن أكثر. مددت قدمي حتى دفعت رجل أحيد الكراسي، ثم تكورت مرة أخرى. كان في البطانية بعض الرمال، من نزهة سابقة.

ذلك كان قبل أن ينجب بابا وماما كاثي وديردري، سندباد لم يكن يستطيع المشي وقتها، أذكر ذلك. كان يتزحلق بمؤخرته على المشمع. لم أعد أستطيع فعل ذلك. أستطيع الدخول تحت المائدة لكن رأسي

يلتصق بسقفها عندما أجلس منتصبًا ولا أستطيع أن أظل كذلك، رأسي تؤلمني وساقاي. حاولت أن أفعلها عدة مرات لكن هذا صار غيبًا.

يستطيع أغلبنا الوقوف منتصبًا في الماسورة. ليام وإيان مكيفوي وحدهما يضطران إلى الانحناء كي لا يخبطا رأسيهما. يظنان أنهما جامدان بسبب ذلك، ليام يخط رأسه عمدًا في سقف الماسورة. نزلنا في الخندق، كان عميقًا جدًّا، مثلما في الحرب. الرجال الذين يحفرونه -انتظرناهم حتى عادوا إلى بيوتهم- يضطرون إلى استخدام السلام كي يدخلونه ويخرجون منه. يحتفظون بالسلام في أكوأهم المغلقة. استخدمنا نحن ألواح الخشب.

أنزلنا الألواح في الخندق وركضنا عليها نزولًا. هذا أفضل من السلام؛ تجري باتجاه الحائط البعيد من الخندق وتبتعد بسرعة قبل أن ينزل صاحبك التالي على اللوح.

الخندق كان خارج بوابتنا مباشرة لبعض الوقت، لقرابة أسبوع، بدا كأنه ظلّ هناك لدهور لأننا كنا نقترّب من عيد الفصح والأيام تزداد طولًا، ومع ذلك ظلّ العمال يتوقفون عن العمل في الخامسة والنصف، رغم أن لا يزال أمام النهار بعض الوقت. كانت ماسورة هائلة، لجلب المياه إلى العقارات الجديدة الجاري بناؤها على طول الطريق حتى سان تري، وللمصانع أيضًا، أو لأخذ المياه المتسخة بعيدًا عن البيوت والمصانع، لم نكن متأكدين بالضبط.

قال ليام: إنها مجاري.

- ما هي المجاري؟

قلت: للخراء.

عرفت معنى الكلمة. مصرفنا كان مسدودًا ذات مرة، وبأبنا اضطر إلى فتح البالوعة المربعة تحت نافذة الحمام، ودخل فيها، وأخذ ينكز

الماسورة بشماعة معاطف. سألته ما فائدة البالوعة والمواسير، قال للمجاري، قبل أن يصرخ فيّ أن أبتعد.

قالت ماما: يجب باباك أن تساعد...
لا أزال أبكي، لكنه بكاء تحت السيطرة.

- ...لكنك ستتسخ يا باتريك.

قلت: إنه يقف فيها.

- عليه أن يفعل، ليصلحها.

- لقد صرخ في وجهي.

- إنه عمل غير نظيف وفوضوي.

لاحقًا، تركني بابا أعيد غطاء البالوعة. الرائحة كانت شنيعة. جعلني أضحك، تظاهر بأنه وسخ بنطاله وتلك كانت رائحته.

قلت: ومناديل الحمام.

وقفنا في الخندق. حذاء ليام علق في الطين، اضطر إلى أن يخرج قدمه منه. سندباد ظل واقفًا بجوار الخندق، لا يريد النزول.

قلت: والشعر.

قال كيفين: الشعر ليس مجاري.

قلت: بل هو مجاري، فهو يعلق في المواسير.

بابا ألقى باللوم على ماما لأن شعرها هو الأطول. كرة ضخمة من الشعر سدّت الماسورة.

قالت: شعري لا يتساقط..

- وأنا شعري يتساقط؟ هل هذا ما تقصدين؟

إِبْتَسَمْتُ.

المواسير أسمنتية. كان يوجد هرم منهم عند أول الطريق، وظل هناك لدهور قبل أن يبدووا في حفر الخنادق. ناحيتنا من طريق باريتاون، حيث توجد البيوت، كانت مستقيمة، لكن بقية الشارع، بعد البيوت، كان متعرجًا وفي مهب الريح، تحدُّه سياجات عالية تمنعك من رؤية الحقول خلفها. مجلس المحافظة توقف عن تقليم السياجات لأنها ستزال. هكذا أخذ الشارع ينحف. المواسير ستنضم إلى الخط المستقيم والشارع الجديد فوقها سيكون مستقيمًا أيضًا. كنَّا ننزل الأنابيب التي تمتد أبعد كل مساء بعد عودة الرجال إلى بيوتهم. كانت خارج المتاجر في أول مرة، ثم خارج بيت آل مكيفوي، ثم خارج بيتنا، وتبعد أكثر في الطريق كل يوم. السياجات المقتلعة الممددة على جانبها بدت تمامًا كما بدت عندما كانت منتصبة، عريضة وممتلئة. حسبت ماما أنهم سيثبتونها كما كانت.

الجري عبر المواسير كان أكثر شيء مخيف وجامد فعلته على الإطلاق. كنت أول من فعلها استجابة لتحذُّ، جريت المسافة كلها بالأسفل، بداية من أمام بيتي وحتى الواجهة البحرية. كانت معتمة بالكامل بعد أول بضع خطوات، انكسر الظلام مرة واحدة فقط بسبب بالوعة مفتوحة فوق منصة أسمنتية تصل إلى الماسورة، عاد بعدها الطريق للظلمة التامة، سواد كامل. تشعر بالمكان من أصوات تنفسك وخطواتك، يمكنك أن تخمن متى ستتحرف من جوانب الماسورة، حتى تصل إلى نقطة النور الصغيرة عند النهاية، التي تكبر وتزداد بهاءً، حتى تخرج من نهاية الماسورة وتصبح تحت الشمس بأيدي مرفوعة... الفائز.

أنت تجري بأقصى ما بوسعك، بأسرع مما تستطيع في العادي، لكن الآخرين دومًا ينتظرونك عند النهاية.

كيفين لم يخرج.

- كيفا، كيفا، كيفا، كيفا....

ليام صفر صافرة العصابة، كان أفضل من يفعلها. أنا لم أستطع فعلها. عندما أضع أربع أصابع في فمي لا يصبح هناك مكان للسان، ويصير حلقي جافاً وأكاد أشعر بالغثيان.

كيفين لا يزال بالداخل. بدأ الطين الذي كنا سنرمي به كيفين يقع منا. كيفين بالداخل ينزف بغزارة. قفزت داخل الخندق، الطين كان قاسياً وجافاً من هذه الناحية.

صحت في الباقيين: هيا!

عرفت أنهم لن يتبعوني، لهذا قلتها في الأصل. سأنقذ كيفين وحدي، عظيم. دخلت في الماسورة، نظرت خلفي مثل رائد فضاء يدخل سفينته الفضائية، لم ألوح. بدأ الآخرون في نزول الخندق. لن يتبعوني إلى الداخل، ليس إلا بعد فوات الأوان.

رأيت كيفين على الفور. لم أستطع رؤيته عند المدخل، لكنني أستطيع الآن. لم يكن بعيداً، كان يجلس على الأرض. نهض. لم أصرخ بأني وجدته أو أي شيء مشابه. هذا أنا وكيفين معاً. دخل كلانا أعمق في الماسورة كي لا يرانا الآخرون. لم أحبب لأنه لم يكن مصاباً، هذا أفضل.

لم أحب فكرة الجلوس أرضاً في الظلمة التامة، لكنني فعلتها، فعلها كلانا. تأكدنا من أننا متلاصقان، متجاوران. أستطيع تمييز هيئة كيفين الخارجية، رأسه تتحرك. أستطيع رؤيته يشد رجله. كنت سعيداً، يمكنني أن أروح في النوم. خفت من الهمس، خفت من أن يفسد الأمر. نستطيع سماع صياح الآخرين على بُعد أميال. عرفت ماذا سنفعل، سننتظر هنا حتى ينتهي الصياح، ثم نخرج من الماسورة قبل أن يخبروا آباءنا أو أيًا من الكبار. يعرفون أننا لسنا مصابين أو

شيئاً كهذا، سيخبرون الكبار ليوقعونا في المشاكل، متظاهرين بأنهم ينفذوننا.

أريد أن أتحدث الآن. صار الجو بارداً، صارت الظلمة أكثر مع أن عيني مرتاحتان.

كيفين أخرج ضرطة. أخذنا نضرب الهواء بأيادينا. حاول أن يصل إلى فمي، ليغطيه بيده، ليمنعني من الضحك. هو كان يضحك. صرنا نتشاجر، نتدافع فقط، يحاول كل منا منع الآخر من دفعه. سيصلون إلينا قريباً، سسمعنا الآخرون ويدخلون. تلك كانت آخر لحظتنا، أنا وكيفين وحدنا.

بعد ذلك، شذبني⁽¹⁾.

التشذيب ممنوع في مدرستنا. الناظر مستر فينوكان رأى جيمس أوكيف يفعلها في ألبرت جينوتشي بينما كان ينظر من النافذة ليتفقد الطقس، ليقرر إن كان الطقس مناسباً ليجعلنا ندخل أو ليدعنا في الخارج. قال عندما مرَّ على الفصول ليتحدث بهذا الشأن إنه صُعق، صُعق لرؤية ولد يفعل هذا في ولد آخر. كان متأكداً من أن الولد الذي فعلها لم يقصد التسبب بأي أذى حقيقي للولد الآخر، لكن... ترك الجملة في منتصفها لوهلة.

هذا كان رائعاً، جيمس أوكيف واقع في مشكلة أكبر من أي وقت مضى، أكبر من أي مشكلة وقع فيها أي منا. جعل جيمس أوكيف يقف. ظلت رأسه محنية مع أن مستر فينوكان ظل يقول له أن يرفع رأسه.

(1) الفعل المستخدم هنا هو Pruning، الذي يعني في الإنجليزية (تشذيب). لكن هذه الكلمة تستخدم في العامية الأيرلندية الشائعة، خاصة بين صبيان المدارس، بمعنى (الإسك بخصيتي أحدهم واعتصارهما بقوة)، وهو فعل يشيع بين المتنمرين. [المترجم]

- ارفعوا رؤوسكم عاليًا طوال الوقت يا أولاد، إنكم رجال. عندما سمعته يقولها لأول مرة لم أصدق أذني: تشذيب.
- أعتقد أن هذا يُدعى تشذيب.

قالها بهذه الطريقة. عندما قالها مستر فينوكان، كان الأمر بالنسبة إليّ كأن ثقبًا هائلًا انفتح أمامي، انفتح أمامنا كلنا، أستطيع رؤية ذلك في وجوه الجميع. ماذا سيقول أيضًا؟ آخر مرة تحدث إلينا كان عن أن أحدهم سرق محبرته الضخمة من حيث احتفظ بها داخل مكتبه. الآن يحدثنا عن التشذيب! المفاجأة جعلتني أنسى التنفس.

قال: هيا يا جيمس، ارفع رأسك مثلما قلت لك.

ألبرت جينوتشي لم يكن في فصلنا، بل في فصل المتخلفين، أخوه باتريك جينوتشي في فصلنا.

قال مستر فينوكان: أعلم أنكم عندما تفعلونها يكون بغرض اللعب فقط.

هينو كان واقفًا خلفه، وجهه أحمر أيضًا. كان في الساحة حينها يراقبنا، توجب عليه أن يرى ماذا يحدث. جيمس أوكيف ميت بلا شك.

- قد تظنون أن هذا مضحك، لكنه ليس كذلك، ليس مضحكًا على الإطلاق. ذلك الفعل الذي رأيته يحدث هذا الصباح قد يسبب أذى حقيقيًا.

هذا كل شيء؟

- هذا الجزء من الجسد حساس جدًا.

نعرف ذلك.

- هذا قد يدمر الولد لبقية... حياته. كل هذا من أجل مزحة.

الثقب الهائل أمامنا كان ينغلق. لن يقول شيئًا خاطئًا أو مضحكًا، لن يقول بيضتين أو بلبلاً أو خصية. هذا محبط، لكنه مع ذلك أوقف امتحان تاريخ، والآن سيقتل جيمس أو كيف.

- اجلس يا جيمس.

لم أستطع تصديق ذلك، لا أنا ولا جيمس ولا أي شخص.

- اجلس.

جيمس أو كيف ظل في منتصف الطريق بين الجلوس والوقوف، إنها خدعة، لا بد أنها خدعة.

قال مستر فينوكان: لا أود رؤية ذلك يحدث مجددًا.

هذا كل شيء.

ربما هينو سيعاقبه بعد ذهاب مستر فينوكان. لكنه لم يفعل، عدنا مباشرة إلى الامتحان.

لم يكن هناك شارع ملائم أمام بيتنا لشهور، وذلك حتى بيوت العطلات الصيفية. اضطر بابا إلى أن يركن سيارته عند المتاجر. مسز كيلمارتن، السيدة التي تراقب لصوص البضائع في متجرها، خبطت على بابنا ذات مرة: لا يوجد مكان تركن فيه سيارة نقل البضائع كي تستطيع إتمام التوصيل، بسبب سيارة بابا وسيارة بابا كيفين وثلاث غيرهم. مسز كيلمارتن كانت غاضبة، تلك كانت أول مرة أرى فيها امرأة غاضبة. قالت إن هذا ليس موقف سيارات لعينًا، بل هي تدفع إيجاره. كانت تضيق عينيها، ذلك لأنها نادرًا ما تخرج في ضوء النهار، تكمن خلف المرأة الزجاجية ذات الاتجاه الواحد أغلب الوقت. ماما كانت مُحاصرة؛ بابا في الشغل -ذهب بالقطار- وهي لا تعرف القيادة. مدت إليها مسز كيلمارتن يدها.

- المفاتيح.

- ليسوا معي، أنا...

- بحق المسيح!

ثم صفعت البوابة. أمسكتُ بها كي تستطيع أن تصفحها. عندما فتحت لها الباب قالت: أين أمك؟

حسبت أني في مصيبة، أني لبست تهمة، رأيتني أشترى شيئاً وحسبتي أسرقه من الطريقة التي التقطه بها، بدت لها كأني سأسرقه.

لم أسرق من هذا المتجر قط.

أنت تذهب إلى السجن فقط لو سرقت ما يساوي أكثر من عشرة شلنات في المرة الواحدة. الناس في مثل أعمارنا أنا وكيفين لا يذهبون إلى السجن عندما يُقبض عليهم، بل يذهبون إلى البيت. لو قُبض عليك مرتين تُرسل إلى أرتين، وهناك سيحلقون رأسك.

اضطررنا إلى التوقف عن الركض في الأنابيب، صارت بعيدة جداً. تجاوزت بيتي وخرجت من باريتاون. احتلنا البالوعات. تبرز البالوعات من الأرض مثل مبان صغيرة، ثم تصبح مستوية مع الأرض بعدما يحيطونها بالأسمت، صارت جزءاً عادياً من الطريق. دفعنا أيدان داخل بالوعة، واضطر إلى البقاء بالأسفل على المنصة، وقذفناه بالطين. يستطيع أن يختبئ لأن المنصة بالأسفل أعرض من الفتحة بكثير. لو أننا ألقينا الطين بزواية منخفضة تدخل في الفتحة بزواية وتخبط في حائط المنصة وربما تصيب أيدان. حاصرناه. لو كنت مكانه كنت لأنزل في الماسورة وأجري حتى البالوعة التالية وأتسلق خروجاً منها قبل أن يدرك الآخرون ماذا أفعل. وكنت سأرشقهم بالزلط والحجارة. أيدان كان يبكي، نظرنا إلى ليام لأنه شقيقه، ليام ظل يرمي الطين في الفتحة، وفعلنا مثله.

الشارع الجديد بات مستقيماً الآن، على طول الطريق. ذهبت حدود حقول دونيلي وأصبح بإمكانك رؤية المزرعة بعد زوال السياج؛ كانت أشبه ببيت دمية كاثرين لكن ببابٍ مفتوحٍ. يمكنك أن ترى كل البيوت الجاري بناؤها على الناحية الأخرى من الحقول. أمست المزرعة محاصرة. ذهبت الأبقار إلى المزرعة الجديدة، نقلتهم شاحنات ضخمة. الرائحة مضحكة. إحدى البقرات انزلقت على المنحدر وهي تتسلقه لتصعد إلى الشاحنة، ضربها دونيلي بعصاه. العم إيدي كان خلفه، وكانت معه عصا أيضاً، ضرب البقرة مثلما ضربها دونيلي. استطعنا رؤية الأبقار كلها وهي معبأة في الشاحنات، تحاول إخراج أنوفها من بين القضبان.

ركب العم إيدي إحدى الشاحنات بجوار السائق، مرفقه يبرز من النافذة. لوّحنا له، وهلّلنا عندما عبرت الشاحنة المتخمة بالبقر من البوابة المهشمة للمزرعة وانحرفت يساراً على الطريق الجديد. بدا ذلك كأن العم إيدي يرحل بعيداً.

رأيتُه لاحقاً، يركض بين المتاجر قبل أن تغلق أبوابها، لشراء زا إيفيننج بريس لدونيلي.

جسر السكة الحديدية القديم لم يكن عاليًا بما يكفي ليمر الطريق من تحته. بنوا جسراً جديداً من شرائح خرسانية ضخمة، بجوار القديم مباشرة. انحدر الطريق تحت الجسر كي تتمكّن المركبات الضخمة، مثل الشاحنات والحافلات، من المرور تحته. قطعوا الأرض بجوار الطريق كي يستطيع الطريق الانحدار أكثر، وأقاموا المزيد من الشرائح الخرسانية لتمنع الأرض المقطوعة من الوقوع على الطريق. قالوا إن هناك رجلين قُتلا في أثناء القيام بهذا العمل، لكننا لم نر أي شيء. قُتلا عندما وقع بعض من حقل دونيلي عليهم، بعدما هطل المطر وصارت الأرض رخوة ومشبعة بالماء؛ غرقا في الطين.

أرى أحيانًا حلمًا يجعلني أستيقظ. أنا آكل شيئًا جافًا ورمليًا لا أستطيع جعله رطبًا، يؤلم أسناني، لا أستطيع غلق فمي وأريد أن أصرخ طلبًا للمساعدة لكنني لا أستطيع، ثم أستيقظ وأجد فمي جافًا تمامًا لأنه كان مفتوحًا. تساءلت هل كنت أصرخ فعلًا؟ تمنيت أني لم أفعل، لكنني أردت أيضًا أن تأتي ماما وتساألني إن كنت بخير وتجلس على سريري.

لم يفجروا الجسر. حسبناهم مضطرين إلى ذلك لكنهم لم يفعلوا.

قال ليام: لو أنهم فجّروه فهم سيفجرون الجديد معه.

- لن يفعلوا، هذا غباء.

- بل سيفعلون.

- كيف سيفعلون؟

قال إيان مكيفوي: لديهم انفجارات متنوعة للأشياء المختلفة.

- من أين لك أن تعرف ذلك يا بقرة؟

هذا كان كيفين. إيان مكيفوي لم يكن سمينًا إلى هذه الدرجة، كانت عنده أئداء صغيرة مثل النساء. لم يعد يسبح الآن بعدما رأيناها.

قال إيان مكيفوي: أنا فقط أعرف... إنهم قادرون على التحكم بالانفجار.

لم نعد مهتمين بالأمر.

ذهب الجسر. هدموه، أخذوا الحجارة والركام في شاحنات. أفقده، كان مكانًا ممتازًا للاختباء أسفله والسياح، كان يكفي لسيارة واحدة كل مرة. بابا كان يطلق الكلاكس بلا توقف حتى يتجاوزوه. الجسر الجديد يصفر عندما تكون الرياح قوية، لكن هذا كل شيء.

سُمح لنا بالنظر عبر النافذة، لكن لا أكثر من ذلك. قليلون جدًا من دخلوا المنزل. دفع الكنبة بعيدًا عن النافذة كي نتمكن من الرؤية

جيدًا، من رؤية السكايليكستريك. ألان باكستر كان الوحيد في باري تاون الذي عنده واحدٌ. كان بروتستانتياً، برودي⁽¹⁾، وأكبر منًا، في نفس سن شقيق كيفين. يذهب إلى المدرسة الثانوية ويلعب الكريكت، وعنده مضرب حقيقي، عندما يلعب مع الفتية الكبار خلف المتاجر، يظل يخلع كنزته ويرتديها طوال الوقت، لكنه لم يكن لاعبًا أفضل من الآخرين. عندما يلعب ميدانيًا يضع يديه على ركبتيه وينحني إلى الأمام. كان أحمق، لكن عنده سكايليكستريك⁽²⁾.

لم يكن جيدًا مثل الذي في الإعلانات، المضمار يشبه شكل قضبان مجموعة ألعاب القطارات، هناك مضماران مدمجان معًا على شكل 8، والسيارات لا تجري كثيرًا من دون أن تعلق، لكنه كان جامدًا. أضرار التحكم بدت رائعة وسهلة، السيارة الزرقاء أفضل بكثير من الحمراء. تيرانس لونج كانت معه الحمراء، وألان باكستر الزرقاء. بخار تنفسنا كان يغشى النافذة. تيرانس لونج -الذي بلغ طوله ستة أقدام مع أنه لا يزال في الرابعة عشرة- اضطر طوال الوقت إلى عدل السيارة الحمراء، كلما دخلت منعطفًا تعلق فيه. استطاعت أكثر من مرة التغلب على المنعطف والاستمرار، لكن الزرقاء كانت متقدمة عنها بكثير. شقيق كيفين التقط الحمراء ونظر أسفلها، لكن ألان باكستر جعله يعيدها. كانوا الأشخاص الوحيدون في غرفة المعيشة: ألان باكستر وتيرانس لونج وشقيق كيفين، أما بقيتنا -وكلنا أصغر منهم بكثير- اضطررنا إلى المراقبة من الخارج. أسوأ لحظة كانت عند حلول الظلام، نشعر فعلاً أننا بالخارج. دخل كيفين مرة، أخذه شقيقه معه، لكنني لم أفعل. أنا الأكبر في أسرتي، ليس عندي من يدخلني من الباب. لم يتركوا كيفين يفعل أي شيء، فقط سمحوا له بالمراقبة.

(1) Proddy، لقب يطلقه الكاثوليكيون على البروتستانتين. [المترجم]

(2) Scalextric نوع شهير من ألعاب سباقات السيارات المنزلية التي تتكون من مضمار سباق ونماذج السيارات الصغيرة. [المترجم]

شقيق كيفين تورط في مشكلة ذات مرة. اسمه مارتن. كان أكبر منّا بخمس سنوات، وما فعله كان أنه عمل حمام باستخدام قطعة خرطوم داخل سيارة مسز كيلمارتن عبر النافذة، وانكشفت فعلته لأن تيرانس لونج ثرثر بما حدث لمامته، لأنه كان من يحمل الخرطوم، وخشي من أن يُلام على عمل الحمام هو أيضًا. أم تيرانس لونج أخبرت أم كيفين بما حدث.

- تيرانس تيرانس أبو طويلة، بيعيط لأمه وخيبته ثقيلة.

حاول أن يجعل شقيق كيفين وبقيتهم ينادونه تيري أو تير، لكن الجميع ظلوا ينادونه تيرانس، خاصة مامته.

- تيرانس الطويل، شرابه ضاع
ريحة رجله، بتجيبلي صداع.

يرتدي تيرانس الصندل في الصيف، صندلاً ضخماً مثل صنادل الكهنة، من دون جوارب. بابا كيفين قتل مارتن وجعله يغسل مقعد سيارة مسز كيلمارتن أمام الجميع. أخذ يبكي. لم تخرج مسز كيلمارتن، أرسلت مفاتيح السيارة مع إيريك. إيريك هو ابنها، وهو متخلف عقلياً.

مارتن يدخن، وسيترك المدرسة بعد الامتحانات. يشرب الكوكاكولا بداخلها حبوب الأسبرين كي يمرض. يزوغ من المدرسة طوال الوقت، ويقضي اليوم كله عند الواجهة البحرية، حتى في الشتاء. كان شماساً في الكنيسة، لكنه طُرد منها لأنه رسم أشرطة بيضاء على حذائه الأسود. ذات مرة قبض هو وتيرانس لونج وألان باكستر على سندباد، ولوّنوا عدسة نظارته الأخرى أيضًا بالأسود، وجعلوه يمشي حتى عتبة البيت مرتدياً النظارة ويمسك بعضاً دهنوها باللون الأبيض. ماما لم تفعل شيئاً حيال ذلك، أخذت تغني لسندباد وهو يبكي:

- أخبرت أخي سيموس، أني سأكبر وأصبح مشهوراً.

وعندما انتهت ذهبت إلى الجراج وجلبت زجاجة كحول وبدأت
تنظف العدسة له، وعلمته كيف يفعلها. قلت إني سأساعده لكنه لم
يتركني أفعل. بابا ضحك؛ عاد إلى البيت متأخرًا بعدما نام سندباد،
وأنا لم أنم بعد. بابا ضحك، فضحكُ مثله. قال إن سندباد سيفعل
أشياء مماثلة عندما يصبح في مثل سن شقيق كيفين. ثم انزعج لأن
الطبق الذي يغطي طبق العشاء كان عالقًا بسبب الصلصة التي
نشفت في الفرن. أرسلتني ماما إلى النوم.

مارتن كان يرتدي بناطيل طويلة في الصيف. دائمًا يضع يديه في
جيوبه. كان عنده مشطًا، اعتقدت أن هذا جامد، وكيفين كذلك أيضًا،
لكنه أيضًا كان يكره أخاه.

مارتن انتقم من مسز كيلمارتن، لكم إيريك كيلمارتن في وجهه،
وإيريك لم يتمكن من قول من ضربه لأنه لا يستطيع أن يتكلم جيدًا،
أقصى ما ينطق به هو أصوات غير مفهومة.

مارتن ورفاقه كانوا يبنون الأكواخ، ونحن بنينا أكواخًا أيضًا،
باستخدام الأشياء التي نجلبها من مواقع البناء -وقد كان ذلك
من أول الأشياء التي فعلناها عندما اقترب الصيف- لكن أكواخهم
أفضل بمئات المرات من أكواخنا. أغلب الأكواخ كانت تُبنى في حقل
خلف أجدد البيوت في سلسلة بيوتنا، وهو حقل آخر غير الحقل
وراء المتاجر. كان مليئًا بمرتفعاتٍ مثل الكثبان، عدا أنها كثبان طين لا
رمال، كانت قبل سنوات بعيدة جزءًا من مزرعة. حطام بيت المزرعة
كان عند حافة الحقل. الحوائط لم تكن من حجارة البناء، بل من
طين بني فاتح مليء بالحصى والطوب الأكبر حجمًا، تدميرها أمرٌ في
غاية السهولة. وجدت قطعة من كوب وسط الركاب بجوار الحائط،
أخذتها معي وغسلتها وعرضتها على بابا، قال لي إنها على الأرجح

تساوي ثروة، لكنه لن يشتريها مني. أخبرني أن أحافظ عليها في مكان آمن. كان عليها ورود، وردتان كاملتان ونصف وردة ثالثة. أضعها.

بدا الحقل كأنهم استعدوا للبناء فيه ثم توقفوا. هناك خندقٌ عريضٌ في المنتصف، أوسع من شارع، وتخرج منه خنادق أخرى. بعض أجزاء الحقل لم تُمس. قال بابا إنهم اضطروا إلى وقف البناء حتى يكتمل إنزال وتركيب المواسير الرئيسية، وضخ الماء فيها.

ركضت في الجزء الذي لم يُمس من الحقل، بلا سببٍ، ركضًا بلا هدف، العشب كان رائعًا، أعلى من ركبتَيَّ، احتجت إلى رفع ساقي كلها من العشب مع كل خطوة، كأني أجري في ماء. هو ذلك النوع من العشب الذي قد يجرحك أحيانًا. خرجت من قمته سنابل تشبه القمح، جلبت منها كمية كبيرة معي إلى البيت لماما ذات مرة، لكنها قالت إنه لا يمكنك صنع الخبز منها، قلت بل يمكن لكنها قالت لا يمكن، ببساطة لا يمكن، هذا مؤسف. صدر عن قدميَّ أصوات حفيف وهي تمرق في العشب، ثم سمعت أصواتًا أخرى قادمة من أمامي، ثم تحرك العشب. توقفت. خرج طائر طويل من العشب، وظل يحلق على ارتفاع منخفض أمامي. استطعت سماع رفرقة أجنحته. كان طائر تدرج. استدرت عائداً.

شقيق كيفين بنى أكواخه على المرتفعات. حفر مع رفاقه حفراً طويلة بالمجارف التي استعاروها من آبائهم. تيرانس لونج امتلك جاروفه الخاص، حصل عليه في عيد ميلاده. قسّموا الحفر إلى أقسام، إلى غرف، وغطوها بالألواح الخشبية. أحيانًا كانوا يجلبون القش من مزرعة دونيلي. هذا كان قبوهم.

عندما خرجت من الكوخ كان شعري مليئًا بالطين والوحل، صار بوسعي أن أجعل شعري يقف.

باقي الكوخ كان مصنوعًا بالأساس من سطح التربة العشبية. أينما ذهبت في باريتاون تجد أماكن جُرفت منها سطح التربة، حتى من الحدائق، تصبح مجرد رقع من الأرض العارية. شقيق كيفين كان بوسعه دفع الجاروف عبر العشب إلى داخل التربة بأقل مجهود. أحببت الصوت الرطب لاختراق نصل الجاروف للجذور المتشابكة. تيرانس لونج يقف على الجاروف، ويهتز، ثم ينزل ويحرك الجاروف، ويكرر ذلك. كانوا يراكمون كتل التربة العشبية مثل قوالب القرميد الرفيعة، ويضغطون عليها، فتصبح حائطًا صلبًا، لكن يمكن تحطيمها بسهولة. عدا أنك لو فعلت ذلك سيقتلونك، شقيق كيفين يعرف دائمًا من فعلها. يوجد المزيد من الحوائط داخل الجدران الأساسية، مقسمة إلى غرفٍ مرة أخرى، وعلى السطح ألواح خشبية وأغطية بلاستيكية ومزيدٌ من التربة العشبية. يبدو الكوخ من على مسافة غير بعيدة مثل رابية مربعة، لا تدرك أنه مبنى إلا عندما تصعد إليه.

تخرج الديدان من التربة العشبية.

نصبت الفخاخ في كل مكان حول كوئنا. دفنًا علب الطلاء المعدنية في الأرض وغطينا سطحها بالعشب. لو أنك وضعت رجلك على العشب ستخترقه وتدخل العلبة، ولن يحدث لك شيء أكثر من أن تقع، لكن لو كنت تجري فقد تكسر رجلك. يسهل تخيل ذلك. دفنًا علبة أخرى لا تزال مملوءة بالطلاء، لكن لم يجرب أحد الوقوف فيها. أحضرتنا زجاجة لبن وكسرها، ووضعنا أكبر شظية زجاج في إحدى العلب ودفنناها أمام باب الكوخ.

- ماذا لو وقعت قدم أحدنا فيها؟

يفترض بالفخاخ أن تكون موجهة إلى الأعداء.

قال كيفين: لن يحدث، نحن نعلم أماكنها يا غبي.

- ليام لا يعرف.

ليام كان عند عمته.

- ليام ليس من عصابتنا.

لم أعرف ذلك، ليام كان يلعب معنا بالأمس، لكني لم أقل شيئاً.

شحننا أطراف عصي خشبية وثبتناها في الأرض بحيث تواجه الخارج، من حيث سيتسلل العدو. حافظنا عليها بارتفاعٍ منخفضٍ، فلو جاء العدو زاحفاً سينال الطرف الحاد في وجهه.

تعثّر إيان مكيفوي في فخٍّ من السلك، واضطر إلى الذهاب إلى المستشفى لتخييط جراحه.

- قدمه كانت شبه مقطوعة.

كان سلكاً حقيقياً، ليس مجرد خيطٍ مثل الذي نستخدمه عادة. لم نعرف من الذي نصبه، كان مربوطاً بين شجرتين في الحقل خلف المتاجر، لم يكن بالقرب من أي أكواخ. لم نبين أكواخاً في هذا الحقل، فهو مسطح أكثر من اللازم. كانوا يلعبون الريليفيو⁽¹⁾، إيان مكيفوي وبقيتهم، أمام المتاجر، وعندما انفتح باب متجر آل كيلمارتن حسب إيان مكيفوي أن مسز كيلمارتن ستصرخ فيهم أن يبتعدوا، وجرى مسرعاً إلى الحقل، وتعثّر في السلك. السلك كان لغزاً.

- سكان بيوت الشركة الجديدة هم من فعلوها.

كانت هناك ست عائلات جديدة تعيش في أول صف من بيوت الشركة المكتملة. حدائقهم كانت مليئة بأكياس الأسمت الجافة نصف الممتلئة وقوالب الطوب المهشمة. بعض أطفالهم في نفس أعمارنا، لكن هذا لا يعني أنهم يمكنهم اللعب معنا.

(1) Relievo: من ألعاب الأطفال في المناطق الفقيرة من أيرلندا وبريطانيا وأمريكا وكندا، التي تعتمد على مبدأ ألعاب الأطفال الشائع: أحدهم وقع عليه الاختيار وعليه أن يطارد البقية. [المترجم]

- حثالة العشوائيات.

ضربتني ماما عندما قلت ذلك. هي لا تضربني عادة، لكنها فعلت حينها، صفعتني خلف رأسي.

- لا تقل هذا مرة أخرى.

قلت لها: أنا لم أخترع هذا الكلام.

قالت: لا تردده إذن، هذا قول شنيع.

لم أعرف حتى معنى هذا القول، أعرف فقط أن العشوائيات في المدينة.

شارع منازل الشركة الستة الجديدة لم يتصل بأي شارع آخر، انتهى بعد أول البيوت. كان هناك منعطف من شارعنا إلى الشارع الجديد، بعد مزرعة دونيلي، لكنه لم يستمر أكثر من أقدام قليلة، ثم توقف. ملعبنا كان في الحقل بين الشارعين، كان عندنا مرمى واحد فقط، واستخدمنا الملابس لتعليم المرمى الثاني. نلعب عادة (ثلاثة وبدل)، لا تحتاج عندها إلا إلى مرمى واحد فقط. يسهل إحراز الأهداف، خاصة في الناحية اليسرى، لأن هناك تلاً ويمكنك أن تصوب الكرة فوق رأس الحارس، لكن المكان هناك مزدحم على الدوام. لا فرق في لعبة ثلاثة وبدل، كل شخص مع نفسه. لو أن هناك عشرين لاعباً فذلك يعني عشرين فريقاً. أحياناً ما يكون هناك أكثر من عشرين، لكن نادراً ما يوجد أكثر من ثلاثة أو أربعة يلعبون حقاً ويحاولون إحراز الأهداف، البقية في الغالب أطفال صغار أصغر من سندات، يجرون حول الكرة لكن لا يحاولون أبداً الحصول عليها، فقط يتبعونها ويضحكون، خاصة عندما يكون عليهم الاستدارة والعودة من حيث أتوا. الضرب بالمرافق ودفع الآخرين بعيداً عن طريقك مسموح به. عندما تكون الكرة معي، أجري بحيث يكون هناك بعض الأطفال بيني وبين أقرب لاعب حقيقي، كيفين أو ليام أو إيان مكيفوي أو غيرهم، يجري الأطفال بجوارى فلا يستطيع أيهم أن ينال مني، مثل ذلك الفيلم

الذي رأيته، عندما هرب جون وين⁽¹⁾ من الأشرار بركوب حصانه بين القطيع المذعور، متدليًا من جانب حصانه، ثم عندما صار في أمان قفز معتدلاً على صهوة حصانه، ونظر إلى الخلف، وابتسم وتابع طريقه. الشيء الوحيد السيئ في لعبة ثلاثة وبدل، هو أنك عندما تكسب، عندما تحرز ثلاثة أهداف، عليك بعدها أن تصبح حارس المرمى. كنت لاعبًا أفضل من كيفين، لكنني توقفت عن المحاولة بعد إحراز هدفين. أكره الوقوف في المرمى. أيدان كان أفضل لاعب، أفضل من يراوغ بالكرة، لكنه مع ذلك آخر من يُختار أو قبل الأخير عندما نلعب الخماسي، لا أحد يريده. كان الوحيد الذي يلعب في نادٍ حقيقي، فرقة راهيني تحت إحدى عشرة سنة، مع أنه حتى لم يبلغ التاسعة.

- لأن عمك هو المدرب.

قال ليام: ليس كذلك.

- ماذا هو إذن؟

- هو لا شيء، فقط يشاهد.

لدى أيدان تيشيرت رياضي أزرق عليه رقم حقيقي مطرز عليه، رقم 11.

قال: أنا جناح.

- وماذا في ذلك.

كان تيشيرت كرة حقيقيًا ثقيلًا. لم يدسه في الشورت، تركه يتدلى.

كان ماهرًا في حراسة المرمى أيضًا.

مباريات الخماسي لا تنتهي أبدًا، الفرقة التي تلعب على المرمى

المحدد بالملابس تفوز كل مرة.

(1) John Wayne (1907 - 1979): ممثل أمريكي شهير، اشتهر ببطولة أفلام الحروب ورعاة

البقر في الخمسينيات. [المترجم]

- تشارلتون يمرر الكرة إلى بست... هدف رائع!

- ليس هدفًا، مرّت الكرة من فوق المعطف، أي أنها خبطت العارضة.

- بل خبطت العارضة من الداخل.

- نعم، خبطت فيها وخرجت.

- لم يحدث.

- بل حدث.

- إذن أنا لن ألعب.

- كما تحب.

أحيانًا نلعب ونحن نأكل الغداء. أحرزت هدفين بالفعل، وسددت ركلة سهلة على إيان مكيفوي ليصدها، انحنى ليضع سندوتشه على المعطف فارتطمت به الكرة ودخلت. لقد كسبت، أنا حارس المرمى الآن.

- أنت فعلت هذا متعمدًا.

دفعت إيان مكيفوي.

- لم أفعل.

رد دفعتي بدفعة.

- بل أردت أن تخرج من حراسة المرمى.

لم أدفعه هذه المرة، فكرت في ركله.

قلت: يجب أن يظل حارسًا للمرمى لفعلته تلك.

- مستحيل.

- عليك أن تحاول صد الركلات.

- أنا سأقف مكانك.

هذا كان أحد الفتية من بيوت الشركة، يقف وراء المرمى المرتجل من المعاطف.

قلت: بل سأقف أنا.

كان أصغر مني سنًا وحجمًا، صغيرًا على نحو آمن، لن يستطيع أبدًا قتلي، حتى لو كان محاربًا عظيمًا.

دفعته بعيدًا عن المرمى.

قلت: هذا ملعبنا.

دفعته بقوة. كان وحده، وبدا متفاجئًا، كاد يقع، انزلق على العشب المبتل.

أستطيع رؤية أنه تردد في الذهاب أو البقاء. لم يرغب في أن يدير ظهره، خاف من أن يحدث له شيء لو أنه فعل، ولا يستطيع الذهاب أيضًا، لقد دفعته، ولو ذهب سيُعد جبانًا.

قلت مرة أخرى: هذا ملعبنا.

ركلته.

حذرتنا أمي من المعصرة، طلبت منا أن نبتعد عنها وألا نلعب فيها. البكرات صلبة لكنها من المطاط فقط، خدشت علامة في قاع إحداها بسكين الخبز. أحب الوجود في المطبخ - كل هذا البخار والسخونة - عندما تمرر ماما الملاءات وقمصان بابا عبر المعصرة. الملاءة في الماء تلمع وتصدر فقاقيع ضخمة، تضع ماما ركنها في المعصرة ثم تدير المقبض، فتخرج الملاءة من الماء مثل حوت أسير. تنزل المياه من الملاءة وتنسحق الفقاقيع بينما تمرر الملاءة بين البكرات وتخرج من الناحية الأخرى مسطحة، فاقدة لللمعة. ملاءة أخرى، وهذه المرة يصدر عن البكرات المطاطية أزيز وحشجة، ثم انزلقت بقيتها عبر

البكرات بيسر. لا تدعني ماما أساعد، تسمح لي فقط بالوقوف أمام الغسالة وإخراج الملاءة منها إلى الحوض الأحمر. الملاءة دافئة، وصلبة بشكل ما. أصابعي آمنة في هذه الناحية. أخرج قطع الملابس الأصغر أيضًا، ألتقطها وأضعها فوق الملاءات. بات الحوض ممتلئًا. عليها أن تفرغ الغسالة الآن لتملأها مرة أخرى لتغسل الحفاضات. أكثر ما أحبه في المطبخ هو البخار، والبلبل على الحوائط.

احتجنا إلى عصي آيس كريم خشبية لنفعلها، القطران في الطريق يتفقع. تلك كانت أول فقاقيع هذا العام، لذا لم نكن قد جهزنا عصيًا لها بعد. كنا أربعة فقط: أنا وكيفين وليام وأيدان، لأن إيان مكيفوي لم يخرج؛ ساقاه تؤلمانه. وجع متزايد حاد، هذا ما قالته أمه عندما نادينا من الباب الخلفي. نحن لا نتجه إلى الأبواب الأمامية أبدًا، إلا لقرع الأجراس والهروب ليلًا. الشرفات الأمامية في ناحيتنا من الشارع لطيفة دومًا وباردة، خاصة في الأيام الحارة، لا تبلغها الشمس أبدًا. في شرفتنا أركان ترابية رائعة: سيارات الدينكيز تقفز من فوق ركام التراب وأحيانًا تتصادم. هناك ثلاثة ثقوب دائرية صغيرة تحت الباب، لتهوية ما تحت ألواح الأرضية الخشبية، لحمايتها من التعفن. لو وقع أحد جنودك البلاستيكيين في إحدى تلك الحفر لن تستعيده أبدًا، الفئران تحصل عليه. نستخدم عصي الآيس كريم في فرقة الفقاقيع، إنها أفضل ما يمكن استخدامه في ذلك. تستطيع أن تنال من الفقاعة بعض الآيس كريم، تسويها بالأرض وتخرج الهواء منها وما إلى ذلك.

وجع متزايد حاد. إيان مكيفوي مقيد في سريره، وضعوا في فمه قطعة جلد لتمنعه من الصراخ، مثل جون وين عندما كان يُخرج الرصاصة من ساقه. صبَّ الويسكي على الثقب في رجله. صبت ذات مرة الويسكي على قشرة جرح سندباد، نقطة صغيرة فقط. كان يتلوى بالفعل قبل أن أفعلها، لذا لم أستطع تحديد إن كانت تؤلمه فعلاً، مثلما جعلها جون وين تبدو، أم أن الويسكي شفاها.

أنا وكيفين تمرکزنا في ناحية، وليام وأيدان تمرکزنا في الأخرى. ناحيتنا هي ناحية المتاجر، سنجد الكثير من العصي. سندباد أيضًا لم يكن معنا، كان مريضًا مرة أخرى. لو لم يصبح أفضل بحلول الليل ماما ستجلب الدكتور. دائمًا ما تظن أننا مرضى في الأعياد. كنا في أعياد الفصح، السماء زرقاء تمامًا، يوم جمعة جميل.

الشوراع كانت أسمنتية، كل الطرق حولنا أسمنتية، خاصة الأجزاء التي لم يحفروها بعد. الطرق كانت أسمنتية والقار يتسلل بين شرائحها، إنه صلب ولا تلاحظه أغلب الوقت، لكن عندما يطرى وتخرج منه الفقاقيع يصبح جامدًا. سطحه قديم وله مظهر رمادي، مثل جلد الفيل حول عينيه، لكن تحت السطح، حيث تغرس عصا الآيس كريم، هناك قطران جديد، أسود وطري، مثل حلوى الطوفي التي ظلّت في فمك لبعض الوقت. عندما تفرقع الفقاعة تجد القطران النظيف السائل تحتها، يختفي السطح الصلب حيث توجد الفقاعة، تبدو مثل البركان، يقع فيه الحصى، ويموت وهو يصرخ.

- لا، لا أرجوك، لا أريد أن أموووووت....

والنحل، لو استطعنا القبض عليه. رججنا البرطمان لتتأكد أنها فقدت الوعي، شبه ميتة، ثم قلبناها قبل أن تستيقظ، قلبناها في حفرة القطران الجديدة، غمرناها أكثر بعصي الآيس كريم، غمرناها بحيث تصبح عالقة في القطران، وراقبنا. يصعب تحديد إن كانت النحلة تتألم، لم يصدر عنها أي صوت، لا طنين ولا شيء. كسرناها نصفين ودفناها في القطران. أترك دومًا جزءًا منها بارزًا، كعبرة للأخريات. أحيانًا تهرب النحلة لو لم تكن مخدرة بما يكفي عندما نقلب البرطمان، تطير قبل أن تصل إلى القطران. لا يهم، لا نحاول أن نمنعها. يستطيع النحل قتلك، لكنهم لا يرغبون في ذلك، فقط لو لم تترك لهم خيارًا آخر، على عكس الدبابير، تلسعك الدبابير عمدًا. أحدهم في راهيني ابتلع نحلة

دون قصد ولسعته في حلقه ومات، اختنق. كان يجري وفمه مفتوحًا ودخلت فيه نحلة عابرة. بينما يموت، فتح فمه ليقول آخر كلماته، فطارت النحلة خارجة، هكذا عرفوا كيف مات. نضع زهورًا وأوراق شجر في البرطمان لنغري النحل بالدخول. لا نكن لهم أي عداوة، هم من يصنعون العسل.

معي الآن سبع عصي ومع كيفين ست. ليام وأيدان بعيدان عنا جدًّا لأن المتاجر ليست في ناحيتهم، ونحن لن نسمح لهما بعبور الطريق إلى ناحيتنا، سنسحقهما لو فعلا، سنعطيهما تعذيبًا صينيًّا. من يجمع أقل عدد من العصي عليه أن يأكل قطعة قطران. سيكون أيدان، سنتأكد من أنه ابتلعها، سنتركه يأكل قطعة نظيفة منه. وجدت عصا أخرى، عصا نظيفة جدًّا. كيفين ركض إلى واحدة أخرى، ورأيت واحدة غيرها فركضت تجاهها وأمسكتها قبله، وحصل هو على اثنتين بينما أخذها. تحول الأمر إلى سباق، وبعد ذلك سيتحول إلى شجار، شجار عنيف. انحنيت لألتقط واحدة من المجاري - كنا قد تجاوزنا المتاجر بكثير - فدفعتني كيفين، طرت في الهواء ووقعت في الشارع، لكنني التقطتها، ضحكت.

- توقف عن السخافة.

ذهب ليلتقط عصا، حان دوري. لم أدفعه بقوة شديدة، تركته يمسك العصا أولًا. رأينا أخرى، جرينا، أنا أسرع، وضع قدمه في طريقي، لم أخطط لهذا، سأقع، لم أستطع التحكم في الوقوع، كنت أسرع من اللازم. ركبتاي، راحتا يداي، ذقني، انكشط الجلد عنهم، وكذلك مفاصل أصابعي حيث أقبض على العصي، ما زلت أقبض عليهم. اعتدلت جالسًا، هناك تراب في راحة يدي. بقع الدم بدأت تكبر، تتحول إلى قطرات.

وضعت العصي في جيبتي. بدأ الألم.

ذات مرة طارت حشرة أبو مقص في فمي. كنت أجري وكانت أمامي، ثم اختفت، ثم شعرت بهذا المذاق، هذا كل شيء. ابتلعته، دخلت أعمق من أن أستطيع سعلها. فاضت عيناى لكنى لم أكن أبكي. هذا كان في ساحة المدرسة. ظل هناك مذاقٌ رديء، مثل البنزين. ذهبت إلى الحمام ووضعت رأسي تحت الصنبور، وظللت أشرب لدهور. أردت أن أزيل هذا المذاق وأردت أن أغرق الحشرة في بطني. لم أخبر أحدًا.

- مرة واحد ذهب إلى إفريقيا في إجازته.
- لا أحد يذهب إلى إفريقيا في إجازته.
- إسكت.

أكل سلطة عندما كان في إفريقيا، وعندما عاد من الإجازة بدأ يشعر بالآلام في بطنه، وأخذوه إلى شارع جرفيس لأنه بدأ يصرخ من الوجع -أخذوه في تاكسي- والدكتور لم يعرف ماذا به، ولم يستطع الولد قول شيء لأنه لا يستطيع التوقف عن الصراخ من الألم، فقاموا بفتح بطنه ليروا ما فيها، فوجدوا داخله سحالي، عشرين سحلية، صنعوا لأنفسهم عشًا، وكانوا يأكلون بطنه من الداخل.

قالت ماما: مع ذلك ستأكل الخس.

قلت لها: لكن الولد مات.

- كل، هذا خس مغسول.

- كذلك كانت الأشياء التي أكلها.

قالت: هذا هراء، لا تنصت إلى من يقول لك هذه الأشياء.

تمنيت أن أموت. تمنيت أن أظل حيًا فقط حتى يعود بابا إلى البيت، لأخبره بما حدث، ثم أموت.

السحالي لا تزال في برطمان في شارع جيرفيس، في ثلاجة، ليراها من يتدربون ليصبحوا أطباءً. كلهم في برطمان واحد، يسبحون في سائل يحافظ عليهم من التحلل.

هناك قطران على بنطالي، على الركبتين.

- مرة أخرى!

هذا ما ستقوله ماما، تقوله دومًا.

قالته.

- آه يا باتريك، ليس مجددًا... يا ربي!

جعلتني أخلعه، جعلتني أخلعه في المطبخ، لم تدعني أصعد إلى الدور العلوي، أشارت إلى رجلي وفرقت بأصابعها، فخلعته.

قالت: حذاؤك أولًا. انتظر لحظة.

شرعت تتأكد من عدم وجود قطران في باطن القدم.

قلت لها: لا يوجد، تفحصتهما بنفسي.

جعلتني أرفع قدمي الأخرى. بنطالي كان نصف متدلّ. ربتت على جانب ساقي وأخذت تفتح وتغلق يدها مرتين، وضعت فيها قدمي، نظرت إلى باطنها.

قلت: قلت لك.

تركت قدمي. هي دائمًا لا تقول شيئًا عندما تنزعج، بل تفرقع بأصابعها وتشير إلى هذا وذاك.

كونفوشيوش هو من قال: "لو أويت إلى الفراش بحكة في مؤخرتك، ستستيقظ صباحًا بإصبع كرية الرائحة".

فتح وأغلق أصابعه المتبيسة مثل منقار، أمام وجهها.

- لغو، لغو، لغو.

نظرتُ إلى أرجاء الغرفة ثم استقرت نظرتها عليه.

قالت: بادي.

- ما إن أدخل من باب البيت...

- بادي...

أعلم معنى (بادي)، أي معنى ما تقصده بقولها (بادي) بهذه الطريقة، كذا يعلم سندباد، وكأثرين أيضًا، أعتقد ذلك من الطريقة التي تحدد بها إلى ماما ثم، أحيانًا، إلى بابا.

توقف، أخذ نفسين عميقين، جلس، نظر إلينا كأنه يرانا لأول مرة، ثم عاد ينظر بالطريقة العادية.

- كيف كانت المدرسة؟

ضحك سندباد، وجعل نفسه يضحك أكثر.

أعرف السبب.

قال سندباد: رائعة.

أعرف لماذا ضحك سندباد، لقد حسب أنها النهاية؛ بابا يجلس ويسألنا كيف كانت المدرسة، يعني هذا أن الشجار انتهى.

لقد تعلم.

قال بابا: لماذا كانت رائعة؟

هذا ليس سؤالاً عادلاً. قاله ليكشف سندباد، كأنه معهم في الشجار.

قلت: كانت رائعة وكفى.

قال بابا لسندباد: صحيح؟

قلت: ولد في فصله مرض.

نظر سندباد إليّ.

قال بابا: هل هذا صحيح؟

قلت: نعم.

نظر بابا إلى سندباد.

توقف سندباد عن النظر إليّ.

قال: نعم.

تبدّل تعبير وجه بابا، لقد نجحت. صارت قدمه الموضوعية فوق الأخرى تتأرجح، هذه علامة جيدة، لقد انتصرت، لقد أنقذت سندباد.

- أي ولد؟

لقد هزمت بابا. كان هذا سهلاً.

قلت: فيرجوس سويني.

نظر إليّ سندباد مرة أخرى، فيرجوس سويني لم يكن في فصله.

بابا يحب هذه القصص.

قال بابا: فيرجوس المسكين... كيف مرض؟

سندباد كان جاهزاً.

قال: خرجت أشياء من فمه.

قال بابا: فعلاً؟ جاني ماك⁽¹⁾!

(1) Janey mack: تعبير شائع في أيرلندا يُستخدم في حالات الدهشة والاستنكار بدلاً من (المسيح! Jesus!)، لأن استخدام اسم الرب في هذا السياق يُعد خطيئة في الكاثوليكية. [المترجم]

يظن أنه ذكي، يسخر منا، لكننا من نسخر منه.

قال سندباد: كلايغ.

قال بابا: كلايغ؟

قلت: وأشياء صفراء.

قال بابا: على مكتبه؟

قال سندباد: نعم.

قال بابا: على كراساته؟

قال سندباد: نعم.

قلت: وعلى الولد الجالس بجواره.

قال سندباد: نعم.

كنا نجلس في دائرة، كيفين كان الوحيد خارجها. أشعلنا نارًا، وعلينا أن ننظر فيها. لم يكن الظلام قد حلَّ بعد. علينا أن نمسك بأيادي بعضنا، ما يعني أن علينا الانحناء إلى الأمام حتى نكاد نحتضن النار. عيناى كانتا تحترقان. من الممنوع أن تدعك عينيك. تلك هي مرّتنا الثالثة.

حان دوري.

- خراب.

كررنا جميعًا: خراب! لا أحد يضحك.

- خراب، خراب، خراب!

اخترعنا جزء غناء الكلمات هذا في المرة الثانية، هذا أفضل وأكثر تنظيمًا من أول مرة، التي كانت مجرد صياح وصرخات هندية، خاصة وأن الظلام لم يحل بعد.

ليام هو الجالس بجواري، على يساري. الأرض رطبة. كيفين ربت
على كتف ليام بعصاه. حان دور ليام.

- تعريشة.

- تعريشة!

- تعريشة، تعريشة، تعريشة!

كنا في الحقل خلف المتاجر، بعيداً عن الطريق. لم تعد عندنا أماكن
كثيرة خاصة بنا مثل ذي قبل، نطاق سيطرتنا ينكمش. كلمة تعريشة
كانت في القصة التي قرأها علينا هينو اليوم، قصة غموض غبية،
كانت فيها امرأة تجلس في تعريشة تعمل على تشذيب أزهارها، ثم
ماتت، والقصة كانت عن البحث عن فعلها. لم نهتم بكل هذا،
انتظرنا فقط أن يقول هينو (تشذيب) مرة أخرى، ولم يفعل، لكن
(تعريشة) ظلّت تظهر بين الجملة والأخرى. لم يعرف أي منا ما هي
التعريشة.

- بلطجي.

- بلطجي!

- بلطجي، بلطجي، بلطجي!

- جهول.

- جهول!

- جهول، جهول، جهول!

لم أستطع قط تخمين الكلمة التالية، حاولت أن أفعل طوال
الوقت. ظللت أنظر إلى وجوههم في الفصل كلما قيلت كلمة جديدة
أو كلمة جيدة. ليام وكيفين وإيان مكيفوي كانوا يفعلون مثلي،
يسجلون الكلمات.

حان دوري مجددًا.

- وضع.

- وضع!

- وضع، وضع، وضع!

انتهى الآن هذا الجزء، عيناى تقتلانى، الريح تضربها بعنفٍ، تحمل إليها الدخان، وفي المرة السابقة جلبت مع الدخان الرماد أيضًا. لكن هذا سيكون جامدًا لاحقًا، أحب تنقية الأشياء الجافة من شعري.

التالي هو جزء الأسماء، الطقوس الحقيقية. كيفين أخذ يدور حولنا، خلفنا، من غير المسموح لنا أن ننظر، أستطيع فقط تخمين مكانه من صوته، وصوت أقدامه على العشب لو أنه داس خارج دائرة النيران. سمعت حفيقًا قريبًا، إنها عصاه تقطع الهواء. عدم معرفة ما يحدث كان رائعًا ومريعًا. كل تلك الإثارة تصبح جامدة عندما تتذكرها لاحقًا.

قال كيفين: أنا زنتوجا.

حفيق.

إنه خلفي.

- أنا زنتوجا، الكاهن الأعلى للرب العظيم كيوناس⁽¹⁾.

حفيق.

إنه في الناحية الأخرى. عليّ ألا أفتح عينيّ. تمنيت أن أكون الأول، لكنني سعيدٌ أن كيفين الآن في الناحية البعيدة.

- كيوناس العظيم يعطي أتباعه الأسماء! الكلمة صارت جسدًا.

(1) Ciúnas: الصمت باللغة الأيرلندية.

حفيف.

- آي ي ي!

أصاب أيدان، على ظهره مباشرة.

قال أيدان: خراء!

قال كيفين: من الآن فصاعدًا صار اسمك خراء.

- قال كيوناس العظيم كلمته.

صحننا جميعًا: خراء!

كنّا آمنين، بعبيدين عن المتاجر.

- الكلمة صارت جسدًا.

حفيف.

قريب.

إيان مكيفوي.

- أئداء!

بجواري، وصلني ألمه.

- من الآن فصاعدًا صار اسمك أئداء، قال كيوناس العظيم

كلمته.

- أئداء!

يجب أن تكون كلمة بذئثة، هذه هي القاعدة، لو لم تكن بذئثة
كفاية ستصيبك جلدة أخرى من العصا.

- الكلمة صارت جسدًا.

- حلّمات!

دوري يقترب. رأسي وقعت في صدري، يداي تتعرقان ولا تنفكان
تنزلقان من قبضتي ليام وإيان مكيفوي. أحدهم يبكي، أكثر من
واحد.

صوته صار خلفي.

- الكلمة صارت جسداً.

- آي ي ي!

ليام.

حفيف مرة أخرى، الضربة الثانية وشى صوتها بأنها أسوأ، مخيفة
وغير عادلة.

قال ليام بين شهقاته: هذه ليست كلمة.

كيفين ضربه مجدداً لأنه لم يقل كلمة بذئبة أول مرة، ألم ليام
واعتراضه ظهرا بوضوح في صوته.

قال كيفين: أتباع كيوناس لا يشعرون بألم.

بدأ ليام يبكي.

قال كيفين: أتباع كيوناس لا يكونون.

سيضربه مجدداً، أستطيع الشعور بهذا، العصا ترتفع، لكن يد ليام
انسلت من قبضتي. إنه يقف.

- لا أهتم، هذا غباء.

كيفين كان سيضربه على أي حال، لكن ليام اقترب أكثر من اللازم.
راقبتهما، راقبهما الجميع. حككت وجهي، شعرت بالحكة والجفاف.

قال كيفين لليام: إني ألعنك وألعن أسرتك.

لكنه ترك ليام يتجاوزته ويذهب.

سميفي أورورك كان قد ذهب الأسبوع السابق بعدما ضربه كيفين خمس مرات، لأن (لعين) لم تكن بذئنة بما يكفي، وسميفي لم يقل شيئاً أسوأ. مسز أورورك ذهبت إلى إدارة المدرسة بهذا الأمر -بحسب ما قاله كيفين- لكن لم يكن لديها دليلٌ، باستثناء ظهر سميفي. ضحكنا حينها، عندما تابعنا سميفي يجري مبتعداً مثل من يتفادى طلقات الرصاص، لأنه لم يستطع فرد ظهره. لكن أحداً لا يضحك الآن. مشى ليام مبتعداً في اتجاه الفجوة في السياج المعدني. الظلام يهبط، وليام يمشي بحذر. نستطيع سماع بقايا نحيبه. وددت لو ذهبت معه.

- كيوناس العظيم قتل أمك!

كلٌ من ذراعي كيفين كانتا مفرودتين في الهواء. نظرت إلى أيديان، فقد كانت أمه أيضاً، لكنه ظل حيث هو. كان ينظر في النيران، راقبته، ظل في هذا الوضع. سأتلقي عقابي الآن، لنفس السبب الذي بقي أيديان لأجله: أن تكون في الدائرة شيء رائع، أفضل من أن تكون حيث ليام الآن.

أنا التالي. تبقى اثنان غيري لكني أنا التالي. أعرف ذلك: كيفين سيفرغ غضبه عليّ. دخلنا في الدائرة مجدداً، باتت الآن أكثر إحكاماً من دون ليام. لو أتي شددت بسرعة سيقع أحدهم في النار. تزحزحنا مقتربين على أردافنا.

استغرق كيفين دهوراً. سمعته في الناحية الأخرى، حلّ الظلام الآن بالكامل. أستطيع سماع الريح، أغلقت عيني مرة أخرى. ساقاي ساختان، قريبتان جداً من النار. لقد ذهب، لا أستطيع تحديد مكانه. أنصتُ، اختفى.

- الكلمة صارت جسداً.

ظهري تمزق، العظام انفجرت.

- نيك!

- من الآن فصاعدًا صار اسمك نيك.
أخيرًا.

- قال كيوناس العظيم كلمته!

لقد فعلتها.

- نيك!

أجمد كلمة. لم يرددوها عاليًا مثلما يجب أن تكون، كانوا خائفين. أخذوا الصيحة، لكنني لم أفعل، لقد دفعت ثمنها. لقد ضربني بالضبط على إحدى فقرات عمودي الفقري. لا أستطيع فرد ظهري، لا أستطيع الارتياح، لكن انتهى الأمر على أي حال، لقد نجحت، أطلقت سراح عيني.

- الكلمة صارت جسدًا.

استمتعت بتأمل شخص غيري.

نيك هي أفضل كلمة، أخطر كلمة، لا يمكنك أن تهمس بها.

- مهبل!

(نيك) أيضًا كلمة عالية جيدًا، لا يمكن إيقافها، تنفجر في الهواء فوقك وتنزل ببطء مثل ريشة. هناك صمت تام، لا يُسمع فيه شيء سوى (نيك). يهيمن سكون كالموت لعدة ثوانٍ، تنتظر أن ينظر هينو إلى فوق فيري (نيك) تنزل عليك، ثوان من الترقب، لكنه لا ينظر إلى أعلى. إنها كلمة لا تستطيع قولها في أي مكان، لا تخرج منك إلا لو دفعتها دفعًا. تجعلك تشعر بالانكشاف والهشاشة ما أن تتفوه بها. عندما تفلت منك تبدو كضحكة كهربية، شهقة بلا صوت تتبعها ضحكة من نوع لا تثيره سوى الأشياء المحرمة، حكة داخلية تتحول

إلى ألم رائع يعصف بفمك لا تملك حياله سوى أن تطلق سراحه. إنها عذاب عظيم، لا نضيعه عبثًا.

- الكلمة صارت جسدًا.

حفيف.

الكلمة المحرمة، أنا من صرخت بها.

- من الآن فصاعدًا صار اسمك بلبل.

آخر واحد.

- قال كيوناس العظيم كلمته!

- بلبل!

انتهى كل شيء الآن، نستطيع أن نقوم من حول النيران، إلى أن يحين موعد الأسبوع القادم. فردت ظهري. أنا البطل الحقيقي، لا ليام، ذلك استحق كل هذا العناء.

قال كيفين: - كيوناس العظيم سيطلق عليكم أسماءً جديدة الجمعة القادمة.

لكن أحدًا لم ينصت إليه، لقد عاد مجرد كيفين مرة أخرى. أنا جائع، الجمعة يوم السمك. يفترض بنا أن نستخدم تلك الأسماء طوال الأسبوع، لكننا لم نتذكر قط من الذي كان مهبلًا ومن كان خراء، لكنني أنا (نيك)، لم ينس أحد ذلك.

لم تحدث أي جمعات قادمة. سئمنا جميعًا من ضربات عصا كيفين على ظهورنا، وهو لم يوافق على تبادل الأدوار، يريد أن يظل الكاهن الأعلى طوال الوقت، يقول إن هذا ما قاله كيوناس. كانت هذه الطقوس ستستمر فترة أطول لو أننا تناوبنا جميعًا على دور صاحب العصا، على الأرجح إلى الأبد. تابعت مناداته بزنتوجا بعدما توقف

الآخرون عن ذلك، لكن حتى أنا سعدت بأنها لم تُقم في الجمعة التالية. ذهب كيفين وحده وذهبت معه، تظاهرت أني موجود لأجله. ثم ذهبنا إلى الواجهة البحرية، ورمينا الطوب في البحر.

جريت خارجًا من البيت إلى الحديقة، لكن البيت لم يكن كبيرًا كفاية، لم أستطع الوقوف ساكنًا، درت حوله مرتين. لا بد أني كنت سريعًا جدًا لأنني عدت إلى غرفة المعيشة وهم لا يزالون يعرضون إعادة الهدف. اضطررت إلى أن أظل واقفًا.

- جورج بست.

- جورج بست.

جورج بست أحرز لتوّه هدفًا في نهائي كأس أوروبا. راقبته يجري مبتعدًا، عائدًا إلى دائرة الوسط. كان يتسم، لكنه لم يبد متفاجئًا.

وضع بابا ذراعه حول كتفيّ، نهض هو أيضًا واقفًا.

قال: مذهل.

بابا أيضًا يشجع مانشستر يونايتد، لكن ليس بقدر ما أشجعهم أنا.

- مذهل جدًا.

بات كيراند وفرانك مكلينتوك وجورج بست كانوا في الهواء. الكرة كانت تكاد تكون على قمة رأس مكلينتوك، لكن يصعب تحديد من ضربها بالرأس. على الأرجح جورج بست، لأن شعره كان يطير إلى الخارج كأنه طوح رأسه لتقابل الكرة، والكرة بدت كأنها خارجة منه وليست متجهة إليه. فرانك مكلينتوك بدا كأنه يتسم، وبات كيراند بدا مثل من يجهش بالبكاء، لكن جورج بست بدا مضبوطًا تمامًا، كأنه ضرب الكرة برأسه لتوّه ويراقبها متجهة إلى الشبكة، وجاهز للهبوط.

هناك مئات الصور في الكتاب لكني لا أنفك أعود إلى هذه الصورة، أول صورة. كيريراند ومكلينتوك ظهرا مثل من يقفزان في الهواء، لكن هيئة جورج بست -باستثناء شعره- بدت كأنه واقف. ساقاه مفرودتان ومنفرجتان قليلاً، مثل وضع صفا في الجيش. كأنهم قصوا جورج بست من صورة له ولصقوها في صورة ملكلينتوك وكيريراند وآلاف الرؤوس والمعاطف السوداء الصغيرة خلفهم. لا يبدو على وجهه آثار بذل مجهود، فمه فقط منفرج قليلاً. يدها مضمومتان لكنهما ليستا منقبضتين، رقبته مرتخية، ليست مثل رقبة فرانك مكلينتوك التي بدت كأن هناك حبلاً تنمو تحت جلده.

هناك شيء آخر اكتشفته لتوي. هناك مقدمة في الصفحة الحادية عشرة، بجوار صفحة صورة جورج بست. قرأتها، ثم قرأت آخر جزء منها مرة أخرى.

"عندما عرضوا عليّ مخطوطة الكتاب لأول مرة، كنت ممتناً على نحو خاص لرؤية كيف تتكامل الأرقام والإحصائيات مع السردية العامة بسلاسة...".

لم أفهم معنى أي من هذا، لكن لا يهم.

"...هذا الكتاب يعد بلا شك أفضل مثال على التزاوج الناجح بين التعليم والترفيه رأيت في حياتي. ستستمتعون به".

وتحت كل هذا كان توقيع جورج بست.

جورج بست وقع كتابي.

بابا لم يقل لي شيئاً عن التوقيع، فقط أعطاني الكتاب وتمنى لي عيد ميلاد سعيداً. تركني أجده بنفسه.

جورج بست.

ليس جورجى، لا أقول عنه جورجى أبدًا، أكره عندما يسميه
الناس جورجى.

جورج بست.

تيشيرته كان خارج الشورت في الصورة، تيشيرت اللاعبين الآخرين
كان ممدوسًا في الشورت. لا أعرف أحدًا يدس التيشيرت في الداخل،
حتى أولئك الذين يقولون إن جورج بست لا فائدة منه، كلهم
يرتدون التيشيرت في الخارج.

أخذت الكتاب إلى بابا، لأعرفه أنى وجدت التوقيع، وأن هذا جامد،
أفضل شيء حصلت عليه كهدية على الإطلاق. اسمه كان (تاريخ مصور
للساكر). كان ضخماً، أسمك بكثير من المجلدات السنوية للمجلات،
ثقيل جداً. كان من كتب الكبار، فيه صور كثيرة لكن فيه كتابة
كثيرة جداً أيضاً، بخط صغير. سأقرأه كله.

قلت له: لقد وجدته.

إصبعي كانت في الكتاب، حيث توقيع جورج بست.

بابا كان يجلس في مقعده.

قال: فعلاً؟ شاطر. ماذا؟

- ماذا ماذا؟

- وجدت ماذا؟

قلت له: التوقيع.

إنه يعبث معي.

قال: دعنا نراه.

وضعت الكتاب على ركبتيه وفتحته.

- ها هو.

دعك بابا التوقيع بإصبعه.

خط يد جورج بست رائع، يميل إلى اليمين قليلاً، طويل، والفجوات فيه ضيقة. هناك خط مستقيم تحت الاسم، يربط بين حرفي الجيم والباء، وصولاً إلى التاء في النهاية، ويتابع بعدها قليلاً. ينتهي الخط بانحناءة، مثل رسم بياني لرصاصة اخترقت حائط.

سألت بابا: هل كان في المتجر؟

- من؟

قلت: - جورج بست.

بدأ القلق يحتشد في معدتي، لكنه أجاب بسرعة كافية لقمعه.

قال: نعم.

- فعلاً؟

- نعم.

- كان موجوداً فعلاً؟

- قلت إنه كذلك، ألم أفعل؟

هذا كل ما احتجت إلى سماعه لأتأكد. لم ينزعج مني عندما قالها، بل تحدث بهدوء كأنه قال كل شيء، وهو ينظر إليّ مباشرة.

- كيف كان يبدو؟

قال: بالضبط كما تتوقع منه أن يبدو.

- في ملابس اللعب؟

هذا بالضبط ما أتوقع منه أن يبدو، لا أعرف ماذا يرتدي جورج بست غير ذلك. رأيت صورة ملونة ذات مرة له يرتدي تيشيرت منتخب أيرلندا الشمالية الأخضر، وليس الأحمر المعتاد، صُغت لرؤية ذلك.

قال بابا: لا، بل... كان يرتدي ترننج.

- ماذا قال؟

- فقط...

- لماذا لم تقل له أن يكتب اسمي مع اسمه؟

أشرت إلى اسم جورج بست.

قال بابا: كان مشغولاً جداً.

- هل كان هناك طابور طويل؟

- طابور طويل جداً.

هذا رائع، هذا ما ينبغي له أن يكون.

سألته: هل كان في المتجر ليوم واحد فقط؟

قال بابا: بالضبط، اضطر بعدها إلى العودة إلى مانشستر.

قلت له: كي يتدرب.

- بالضبط.

بعد سنة، عرفت أن هذا ليس توقيع جورج بست الحقيقي، بل مجرد طباعة، وأن بابا كان يكذب.

الغرفة الأمامية كانت خارج نطاق المسموح بدخوله. كانت غرفة الرسم⁽¹⁾. لا أحد غيرنا عنده غرفة رسم، مع أن البيوت كلها متماثلة، أقصد كل البيوت قبل بيوت الشركة. الغرفة التي هي عندنا غرفة

(1) الترجمة الحرفية لتعبير Drawing Room هو غرفة الرسم، لكن الاسم يُستخدم في بريطانيا والبلدان المتأثرة بثقافتها للإشارة إلى غرفة يُستقبل فيها الضيوف ذوو الشأن، أشبه بغرفة الصالون في بيوتنا العربية. لجأنا إلى الترجمة الحرفية (غرفة الرسم) لسبب سيتضح بعد قليل. [المترجم]

رسم، عند أهل كيفين هي غرفة معيشة، وعند أهل إيان مكيفوي هي غرفة تليفزيون. هي عندنا غرفة رسم لأن ماما قالت إنها كذلك.

سألتها: ما الذي يعنيه ذلك؟

أعرف أن اسمها غرفة رسم منذ البداية، لكن اليوم بدا لي الاسم مضحكًا. كنا في الخارج. كلما ظهر في السماء ولو بقعة صغيرة من الزرقة تفتح ماما الباب الخلفي وتخرج محتوى البيت كله. الرضيعتان كانتا نائميتين، سندباد كان يعبئ العشب في برطمان.

قالت: الغرفة الجيدة.

- هل رسم معناها جيدة؟

قالت: نعم، فقط لو سبقتها بكلمة غرفة.

هذا منطقي، فهمت.

سألت: لماذا لا نقول عليها الغرفة الجيدة إذن؟ ربما يظن الناس أننا نرسم فيها اللوحات.

- لا يظن الناس كذلك.

قلت: ربما يفعلون.

لا أقول ذلك فقط بدافع الرغبة في الكلام، مثلما أقول أشياء كثيرة.

قلت: خاصة لو كانوا أغبياء.

- سيتطلب هذا أن يكونوا أغبياء جدًا.

قلت لها: هناك العديد من الناس الأغبياء، هناك فصل كامل منهم في مدرستنا.

قالت: لا تقل ذلك.

قلت: فصل في كل صف دراسي.

قالت: هذا كلام سيئ، دعك منه.

قلت: لماذا لا نقول فقط الغرفة الجيدة؟

قالت: لا يبدو اسمًا سليمًا.

ليس لهذا معنى، يبدو اسمًا ممتازًا. لا يُسمح لنا أبدًا بدخول هذه الغرفة كي تظل جيدة.

سألت: لماذا؟

قالت: يبدو رخيصًا.

أخذت تبتسم.

- إنها... لا أعرف، غرفة الرسم اسم ألطف من الغرفة الجيدة، يبدو ألطف، غير اعتيادي.

- هل الأسماء غير الاعتيادية لطيفة؟

- نعم.

- لماذا إذن اسمي باتريك؟

ضحكت، لكنها سحبت ضحكتها سريعًا، ابتسمت لي، أعتقد أنها فعلت ذلك كي لا أظنها تضحك عليّ.

قالت: لأن أباك اسمه باتريك.

أحب ذلك، أن اسمي على اسم بابا.

قلت: هناك خمسة باتريك في فصلنا.

قالت: فعلاً؟

- باتريك كلارك، هذا أنا، وباتريك أونيل، وباتريك ريدموند، وباتريك جينوتشي، وباتريك فلين.

قالت: هذا كثير! إنه اسم جميل، ذو فخامة ومهابة.

قلت لها:- ثلاثة منهم يُقال لهم بادي، وواحد بات وواحد باتريك.

قالت: أهذا صحيح؟ أنت ماذا إذن؟

توقفت لدقيقة.

قلت: بادي.

لم تمنع. كنت باتريك في البيت.

سألت: من منهم باتريك؟

- باتريك جينوتشي.

قالت: جده من إيطاليا.

قلت: أعلم، لكنه لم يذهب إلى هناك قط.

- سيفعل في وقتٍ ما.

قلت: - عندما يكبر، أما أنا فسأذهب إلى إفريقيا.

- أستفعل؟ لماذا؟

- فقط لأنني أود ذلك، ليس عندي أسباب.

- لتبشر بالمسيحية بين الأطفال السود؟

- لا.

لا يهمني الأطفال السود. يفترض بي أن أشعر بالأسف تجاههم، لأنهم وثيون ولأنهم جائعون، لكني لا أهتم. أنا أخاف منهم، من فكرة وجودهم، كلهم، ملايين منهم، ببطونهم البارزة وأعينهم التي مثل أعين الكبار.

سألت: لماذا إذن؟

قلت: -لأرى الحيوانات.

قالت: سيكون هذا لطيفًا.

قلت: لكنني لن أبقى هناك.

أقول هذا كي لا تبعب سريري بعد ذهابي.

قالت: أي حيوانات؟

- كلهم.

- خصوصًا؟

- الحمير الوحشية والقرود.

- أتريد أن تصبح طبيبًا بيطريًا؟

- لا.

- لم لا؟

- لأنه ليس هناك حمير وحشية ولا قرود في أيرلندا.

- لماذا تحب الحمير الوحشية؟

- أنا فقط أحبهم.

- إنهم لطاف.

- نعم.

- سنذهب إلى حديقة الحيوانات مرة أخرى، هل ستحب ذلك؟

- لا.

حديقة فينيكس كانت ممتازة، أحببت الكهوف والغزلان، أريد الذهاب إلى هناك مجددًا. يمكنك أن ترى ما بداخل الحديقة من فوق الأسوار لو أنك في الطابق الثاني من الحافلة. ذهبنا إلى هناك يوم تناولي المقدس، بعدما انتهينا من اللف على أخوالي وخالاتي،

قضيينا اليوم في الحافلات، قبل أن يصبح عند بابي سيارة. لكن حديقة الحيوانات ليست كذلك، لا أحب الذهاب إلى هناك.

قالت ماما: لِمَ لا؟

قلت: الرائحة.

لكن لم تكن المشكلة في الرائحة فقط، بل أكثر من ذلك، المشكلة كانت في ما تعنيه الرائحة، رائحة الحيوانات وما علق من الفراء على الأسلاك. أحببت الحيوانات حينها. ركن الحيوانات الأليفة، الأرناب، المتجر. كانت معي وقتها نقود كثيرة، جعلوني أشترى الحلوى والمرطبات لسندباد. لكنني أتذكر الرائحة ولا أذكر من الحيوانات إلا القليل؛ صغار الكنغر التي لا تقفز، أصابع قرود تقبض على الأسلاك. أردت أن أشرح ذلك لماما، أردت ذلك فعلاً، كنت سأفعل. لقد تَذَكَّرْتُ هي كذلك الرائحة، أستطيع رؤية ذلك من ابتسامتها والطريقة التي منعت نفسها بها من الاستمرار في الابتسام لأني لم أقل هذا مازحاً. كنت سأخبرها.

ثم جاء سندباد وأفسد اللحظة.

- من ماذا تُصنع أصابع السمك؟

- من السمك.

- أي نوع من السمك؟

- كل الأنواع.

قالت ماما: سمك القد، والسمك الأبيض.

- لماذا يـ..

- لا مزيد من الأسئلة إلا بعدما تنتهي.

هذا كان بابا.

قال: إنه كل ما في طبقك، بعدها اسأل كما تحب.

هناك سبعة وعشرون كلبًا في باريتاون، خمسة عشر منهم ذبولهم مقطوعة.

- مبتورة.

- ليست مبتورة، مقطوعة تكفي.

ذبولهم قُطعت كي لا يقعون. عندما يهزون ذبولهم لا يستطيعون التوازن كما ينبغي لهم فيقعون، لذا يحتاجون إلى أن تُقطع ذبولهم.

- فقط عندما يكونوا جراءً.

- صحيح.

يقعون فقط وهم جراء.

سأل سندباد: لماذا لا ينتظرون؟

قلت: أنت أحمق. وإن كنت لم أفهم ماذا كان يقصد.

قال ليام لسندباد: من؟

قال سندباد: الأطباء البيطريون.

- ينتظرون ماذا؟

قال سندباد: يقع الكلبوب الصغير فقط بسبب ذيله، لماذا يقطعون الذيل لهذا السبب فقط؟ إنه لا يظل كلبوبًا طوال حياته.

قلت: - كلبوب! أسمعون؟ اسمه جرو يا غبي.

لكنه مع ذلك معه حق، لا أحد منا يعرف السبب، هزَّ ليام كتفيه.

- هم فقط يقطعونها.

- لا بد أن هذا مفيدٌ للكلاب، البيطريون مثل الأطباء.

آل مكيفوي عندهم كلب من نوع جاك راسل، اسمه بينسون.

- هذا اسم متخلف للكلب.

إيان مكيفوي قال إن هذا كلبه، لكنه في الواقع كلب مامته، بينسون أكبر سنًا من إيان مكيفوي.

قلت: لا يقطعون ذيول الكلاب ذات الأرجل الطويلة.

أرجل بينسون كانت شديدة القصر، بطنه تلمس العشب، كان من السهل جدًا القبض عليه، المشكلة الوحيدة هي أننا مضطرون إلى انتظار أن تذهب مسز مكيفوي إلى المتاجر.

أخبرنا إيان مكيفوي: إنها تحبه، تفضله عليّ.

كان أقوى مما يبدو عليه، أستطيع الشعور بعضلاته وهو يحاول الإفلات؛ كل ما نريده هو رؤية ذيله. قبضت على نصفه الخلفي، حاول أن يقبض بفكّه على يدي.

كيفين ركله.

- احذر.

إيان مكيفوي كان قلقًا من أن تقبض علينا أمه، قلقًا لدرجة أنه دفع كيفين بعيدًا.

كيفين تركه يفلت بفعلته.

كل ما أردناه كان رؤية ذيله لا أكثر. انتصب الذيل عاليًا في الهواء، كان أكثر جزء من بينسون يبدو في صحة جيدة. يفترض أن الكلاب تهز ذيولها عندما تكون سعيدة، لكن بينسون في هذه اللحظة بكل تأكيد غير سعيد، وذيله مع ذلك يرقص كالمجانين.

بابا لا يوافق على أن يكون عندنا كلب، قال إنه عنده أسبابه الخاصة، وماما وافقته.

كيفين أمسك بينسون من حيث كنت أمسك به، وقبضت أنا على ذيله كي يتوقف عن الحركة. الذيل كان عظمة، عظمة كثيفة الشعر، لا لحم هنالك على الإطلاق. أغلقت قبضتي لكن الذيل لم يعد هناك، ضحكنا، نبج بينسون كأنه يشاركنا الضحك. أمسكت الذيل بأول إصبعين من يدي فقط كي نستطيع رؤية طرفه، حذرت من أن تمس أصابعي الحرة مؤخرة بينسون، كان هذا أمرًا شديد الصعوبة نظرًا إلى الطريقة التي أمسكه بها، لكنني تأكدت من ألا تلمس أصابعي ثقبه. ماما تجعلنا دومًا نغسل أيادينا قبل العشاء، فقط قبل العشاء، لا قبل الإفطار ولا قبل تناول الشاي. أحيانًا لا أهتم، أصعد إلى الطابق العلوي، أفتح الصنبور قليلًا ثم أغلقه، وأنزل.

أزحت شعره عن طريقي، كان أبيض خشنًا. حاول بينسون أن يتملص مني، لا أمل له. لمسي لشعر ذيله جعله يهلج، أستطيع الشعور به. الآن بات بوسعنا رؤية منبت ذيله، لم يبدُ عليه أنه بُتر -شعره لا ينفك يعود كلما أزحته- بل كان طبيعيًا. لم يكن هناك شيء آخر نفعله.

خاب أملنا.

- لا علامة تدل على شيء.

- اضغط عليه بأصابعك.

لا زلنا لا نريد أن نطلق سراحه. توقعنا ما هو أكثر، ندوبًا أو علامة حمراء أو شيئًا من هذا القبيل، بدلًا من ذلك لم نجد إلا العظم.

بلغ القلق من إيان مكيفوي مداه، حسب أننا سنفعل في بينسون شيئًا ما بعدما اكتشفنا أن ذيله لا يستحق العناء.

- ماما قادمة، أظنها قادمة.

- هي ليست قادمة.

- أنت جبان كدجاجة.

نحن بكل تأكيد سنفعل فيه شيئاً الآن.

- واحد...

- اثنان...

- ثلاثة!

رفعنا أيادينا عنه، وما إن حسب بينسون أنه صار حرّاً، ركلناه، دوت الركلات كأنه أجوف، ركلناه من جانبيه في الوقت نفسه تقريباً. ترنّح بينسون بينما يحاول الابتعاد، حسبت أنه سيقع أرضاً، اجتاحني الرعب، ستخرج الدماء من فمه، سيلهث، ثم سيموت. لكنه ظل على أقدامه ووقف منتصباً، وجرى إلى الناحية الأخرى من البيت، الواجهة الأمامية.

سألت بابا: لم لا؟

قال: هل استطعمه؟

قلت: نعم.

- هل ستدفع ثمن طعامه؟

- نعم.

- بماذا؟

- بالمال.

- أي مال؟

قلت: بمالي. ثم تابعت قبل أن يضيف هو شيئاً آخر: بمصروفي.

قال سندباد: وأنا أيضاً.

سأخذ من سندباد ماله لكنه سيظل كلبى أنا. أحصل على ستة بنسات أيام الأحد وسندباد يحصل على ثلاثة. وسنحصل على ما هو أكثر بعد أعياد ميلادنا.

قال بابا: طيب.

أفهم ما يقول، إنه لا يعني (طيب، بوسعك الحصول على كلب)، بل قصد (طيب، سأنال منك بطريقة أخرى).

قلت له: إنهم لا يكلفون شيئاً، عليك فقط أن تذهب إلى ملجأ القطط والكلاب واختيار أحدهم، وسيعطونك إياه.
قال: والنظافة.

قلت: سأجعله يمسح أقدامه.

- ليس هذا ما قصدته بالنظافة.

- سأحميه بنفسي.

- قصدت عندما يفعل رقم 2.

حذق إلينا بتحدٍ، لقد فاز علينا.

- سأخذه للتمشية، وعندها سي...

قال بابا: توقف.

لم ينطقها بصوت الغاضب، بل قالها ببساطة.

- اسمعا، لا يمكننا أن يكون عندنا كلبٌ، وسأخبركما بالسبب،

وهذا سيكون آخر كلامنا في هذا الموضوع، ولن تذهبا وتزعجا

أمكما بهذا الشأن مرة أخرى. كاثرين عندها ربو.

انتظرنا أكثر.

قال: إنها لا تتحمّل شعر الكلاب.

أنا أعرف كاثرين بالكاد، في الواقع لا أعرفها تقريبًا. إنها أختي، لكنها لا تزال رضيعة. لم أتحدث إليها قط، كانت بلا فائدة. تنام كثيرًا، ووجنتها منتفختان، وتجعلنا ننظر إلى مرحاضها الصغير، تحسب أن هذا رائع.

تتبعني في البيت.

- باتتيك... انظر.

عندها الربو. لم أعرف ما هو الربو، كل ما أعرفه أنها مصابة به وأنه يصدر أصواتًا ويجعل ماما قلقة. دخلت كاثرين المستشفى مرتين بسببه، لكن بلا سيارة إسعاف. لا أعرف ما شأن شعر الكلب بربوها، بابا فقط يفتعل حجة كي لا يكون عندنا كلب، إنه فقط لا يريد الكلاب. يتحدث عن ربو كاثرين لأنه يعرف أننا لا نستطيع أن نقول شيئًا بشأنه، لن نشتيكي إلى ماما أبدًا من ربو كاثرين.

سندباد قال شيئًا جعلني أقفز في مكاني.

- يمكننا أن نشترى كلبًا بلا شعر.

أخذ بابا يضحك، حسبها مزحة جيدة. أخذ يلعب في شعرنا، فبدأ سندباد يتسمم، وهذا قتل الموضوع، لن يصبح عندنا كلب أبدًا.

تستقر حبات البازلاء في المرقة وقد تشربتها حتى انتفخت بها. أكلها واحدة واحدة، أحبها، أحب الملمس الصلب لقشرتها، وقلبها النضر الرطب ذا العصارة.

تأتي في شبكة مغلقة، ومعها أقراص بيضاء كبيرة⁽¹⁾. يجب أن تُنقع في الماء بدءًا من ليلة الأحد. أفلعها بنفسني، أدلق البازلاء في وعاء الماء. ماما منعني من وضع لساني على القرص.

(1) أقراص نقع من بيكرونات الصوديوم، تضاف مع أكياس البازلاء في أيرلندا، وتُضاف في مياه النقع مع حبوب البازلاء. [المترجم]

- لا لا يا حبيبي.

سألت: ما فائدتها؟

قالت: لتحافظ عليها نضرة، وتطريها.

بازلاء يوم الأحد.

قال بابا:

- أين كان موسى عندما انطفأ النور؟

أجبت:

- تحت السرير يبحث عن ثقاب⁽¹⁾.

قال: - شاطر.

لم أفهمها، لكنها تجعلني أضحك.

ذهبنا أنا وسندباد لنطرق باب غرفة النوم. أنا الذي طرقت.

- ماذا؟

- هل حلّ الصباح؟

- حلّ الصباح لكن لم يحن الاستيقاظ.

يعني ذلك أن علينا العودة إلى غرفة نومنا.

من الصعب في الصيف فهم متى تستيقظ عندما يكون هناك نور
أغلب الوقت.

(1) Where was Moses when the lights went out? انطفاء النور هو مجاز قديم للموت، والسؤال على الأرجح ذو أصول كنسية، وإجابته كانت: (على جبل نيبو في الأردن). لكنه على الأرجح تحول مع الزمن إلى مزحة شائعة في الشعوب مسيحية الثقافة، ويُجاب عليه بإجابات لا علاقة لها بأصله القديم، مثل رد بادي هنا على أبيه. [المترجم]

نطاق سيطرتنا كان ينكمش. الحقول كانت رقعاً من الأرض بين البيوت المختلفة، ومساحات متروكة حيث لم تلتق الشوارع كما كان ينبغي لها أن تفعل. تتحول تلك الأماكن إلى مقالب مخلفات؛ قطع خشب وقوالب طوب وأكياس أسمنت متصلة وزجاجات حليب خاوية. أماكن ممتازة لاستكشافها لكنها سيئة للركض فيها.

سمعت الخبطة، شعرت بها في قدمي، وعرفت أن الوجع قادم من قبل أن يبدأ. كان عندي الوقت الكافي للتحكم في سقطتي واختيار أين أسقط، وقعت في مساحة نظيفة من العشب وتدرجت. صيحتي من الوجع كانت جيدة، مع ذلك كان الألم حقيقياً، ويزداد. لقد خبطتُ في مشبك سقالات مختبئ في العشب. تعاضم الوجع بسرعة، فاجأني صوت النحيب. قدمي مبتلة، حذائي مفعم بالدماء. كان الدم مثل الماء، لكن أكثر كثافة. كان دافئاً وبارداً في آن واحد. غرق جوربي في البلل.

وقفوا جميعاً حولي. ليام وجد مشبك السقالات ورفعته أمام وجهي، أرى من الطريقة التي يحمله بها كم هو ثقيل. سيكون هناك الكثير من الدماء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال سندباد: ما هذا؟

- شيء يُستخدم في السقالات.

- غبي.

أردت خلع حذائي، أمسكت بالكعب وتأوّهت، راقبوني، شدته ببطء، ببطء. فكرت في جعل كيفين ينزعه عني، مثل الأفلام، لكن هذا سيؤلم. لم أعد أشعر بالبلل هناك الآن، فقط بالدفاع، والألم، ألم مستمر، يكفي ليسبب العرج. أخرجت قدمي، لا دماء، الجورب كان قد نزل حتى أسفل الكعب، نزعت الجورب شيئاً فشيئاً. راقبوني، تألمت وانتزعت الشراب، شهقوا وتراجعوا.

هذا جامد. ظفر إصبع قدمي الأكبر انخلع، بدا مرعبًا. كان حقيقياً ومؤلمًا. رفعت الظفر شيئًا فشيئًا، نظروا من كثب. أخذت نفسًا عميقًا.

- آه ه ه ه!

حاولت أن أعيد الظفر إلى موقعه الملائم، لكن الألم لا يطاق. لن أستطيع ارتداء الجورب مجددًا، رأوا جميعًا ذلك. أردت العودة إلى البيت الآن.

ليام حمل حذائي. استندت إلى كيفين خلال الطريق إلى البيت، سندباد ركض أمامنا.

قال أيدان: أمك ستضع قدمك في الديتول.

قلت: اخرس.

راحت آخر المزارع، وراح أيضًا ملعبنا. في البداية قسموه نصفين لوضع الأنابيب، ثم حولوه إلى ثمانية بيوت. الحقل خلف المتاجر لا يزال لنا وصرنا نذهب إلى هناك أكثر. المنطقة وراء بيوت الشركة لم تُعد لنا، صارت هناك قبيلة جديدة هناك الآن، أقوى منا، مع أن أحدًا منا لم يصرح بذلك. نطاق سيطرتنا يُسلب منا، لكننا نقاوم. صرنا الآن نلعب الهنود ورعاة البقر، لا رعاة البقر والهنود.

- جير-أو-نيمو!

بنينا وغمًا في الحقل خلف المتاجر. بابا ليام وأيدان حسبه إجلو⁽¹⁾ بالخطأ. جاء إلى الحقل ليرانا ونحن بنينه، كان في طريقه عائداً من المتاجر.

قال: هذا إجلو رائع يا أولاد.

(1) إجلو Igloo: بيوت صغيرة دائرية من الثلج كان يبنها السكان الأصليون لشمال كندا وجرينلاند والمناطق القطبية. [المترجم]

قلت: إنه وغم.

قال كيفين: - إنه تيبة⁽¹⁾.

ليام وأيدان لم يقولوا شيئًا، فقط تمنيا أن يذهب باباهما.

كان يحمل سلة تسوق، أخرج منها كيسًا بنيًا، عرفت ماذا يوجد فيها.

- أتريدون البسكويت يا أولاد؟

اصطففنا في طابور، تركنا ليام وأيدان يقفان في المقدمة، إنه باباهما.

قال كيفين بعدما ذهب مستر أوكونيل: هل رأيتم حقيبتيه؟ حقيبة نساء.

قال أيدان: لم تكن حقيبة نساء.

قال كيفين: بل كانت كذلك.

لم يشاركه أحد.

هناك حقول بعد بيوت الشركة، لكنها بعيدة جدًا، بعد بيوت الشركة، في عالم آخر.

تعلمنا في المدرسة استخدام البوصلة في آخر يوم قبل العطلة الصيفية.

- إلى أي اتجاه أشير أنا الآن؟

- الشرق.

- ارفعوا أياديكم قبل الإجابة... أنت.

- الشرق يا سيدي.

- لأتأكد فقط من أنك لم تقل ذلك لأن مستر باردشو سبقك

لقوله، إلى أي اتجاه أشير الآن؟

(1) التيبة Tepee: نوع آخر من خيام السكان الأصليين لأمريكا، على شكل خيمة مخروطية.

[المترجم]

- الغرب يا سيدي.

بيوت الشركة في الغرب، الواجهة البحرية في الشرق، راهيني في الجنوب، أما الشمال فكان مثيراً للاهتمام.

قال عنه بابا: الجبهة الأخيرة.

في البداية، تقع هناك المزيد من البيوت الجديدة، لكن لا يسكن فيهم أحدٌ لأنهم أصابهم الفيضان قبل أن يتم بناؤهم، بعد البيوت هناك الحقول ذات المرتفعات، تلك التي حُفرت ثم لم يُستكمل العمل فيها ونبتت عليها الأعشاب، حيث بنينا أكواخنا، وبعد المرتفعات هناك بايسايد⁽¹⁾.

لم يكن بناء بايسايد قد اكتمل بعد، لكن هذه المرة لم يكن هدفنا هو مواقع البناء، بل شكل المكان. كانت منطقة مجنونة؛ الطرق متعرجة، وجراجات السيارات في أماكن غير معتادة، تبعد مربعات سكنية عديدة عن البيوت، هناك قلعة جراجات تقع في ساحة واسعة عند نهاية طريق يقود خصيصاً إلى هناك. لم يكن لهذا المكان أي معنى، نذهب إلى هناك لنتوه.

- إنه متاهة.

- متاهة!

- متاهة متاهة متاهة!

اخترقنا بايسايد على سهوة دراجاتنا. صارت الدراجات مهمة، صارت أحصنتنا. مرقنا عبر ساحة الجراجات وعبرناها إلى الناحية الأخرى. أربط حبلًا على مقود الدراجة وأربطها في عمود كلما ترجلت

(1) بايسايد Bayside: ضاحية صغيرة في شمال دبلن بدأ بناؤها في أواخر ستينيات القرن العشرين، تقع على ساحل البحر الأيرلندي. بنتها شركة دبلن Dublin Corporation، وهي الشركة التي عرفها سكان دبلن لأجيال عديدة باسم (الشركة). [المترجم]

عنها. نركن دراجاتنا على العشب كي ترعى. الحبل علق بين المكابح والعجلة الأمامية ذات مرة، وجدت نفسي أطيّر في الهواء، وقبل أن أعي ما يحدث كانت العجلة فوقى. كنت وحيداً، لكنى كنت بخير، لم يصيبني ولا جرح. مرقنا عبر الجراجات...

- أعووووو أعووووو أعووووو أعووووو!

ردّدت الجراجات أصواتنا، جعلتها تبدو أضخم وأكبر سنّاً. خرجنا من الناحية الأخرى إلى الشارع، وعدنا لنبدأ في هجومٍ ثانٍ.

جلبنا مواد خام من بيوتنا وصنعنا عصابات الرأس، عصابتي كانت من القماش الصوفي المقلّم مع ريشة نورس. خلعنا كنزاتنا وقمصاننا ومعاطفنا، وجيمس أوكيف خلع بنطاله وركب دراجته في أنحاء بايسايد بلباسه الداخلى. اكتشف أن جلده التصق بمقعد الدراجة عندما ترجّل منها، بسبب التعرق، يمكنك أن تسمع صوت جلده يتقشر من على بلاستيك المقعد. ألقينا بنطاله على سطح جراج، وكذلك قميصه ومعطفه، ورمينا كنزته على الشاطئ.

يسهل الصعود على سطح الجراج. استخدمنا مقاعد دراجاتنا للتسلُّق بعدما أتمنا غزو القلعة.

- أعووووو أعووووو أعووووو أعووووو!

نظرت امرأة من نافذة غرفة نومها وأشاحت بوجهها ولوحت بيديها، مشيرة لنا بأن نازل. فعلنا ذلك أول مرة، ركبنا دراجاتنا وهرعنا هاربين من بايسايد. اتصلت بالشرطة، زوجها شرطي وهي ساحرة. نزلت من السطح إلى الدراجة دون أن ألمس الأرض، انطلقت على الفور، أخذت أهتز لوهلة لكنى تماكنت نفسي ومضيت. درت حول الجراجات لأتأكد أن الوقت سنح للبقية كي يهربوا.

حصلت على الدراجة في الكريسماس قبل عامين. استيقظت، أو هكذا حسبت، بينما ينغلق باب غرفة النوم، وهناك كانت الدراجة تقف مستندة إلى طرف سريري. ارتبكت، خفت، انغلق الباب بصوتٍ ظللتُ في سريري، لم أسمع أي خطوات في الردهة بالخارج. لم أحاول ركوب الدراجة لشهور بعد ذلك. لسنا بحاجة إلى الدراجات، نحن أفضل حالاً على أقدامنا، في الحقول ومواقع البناء. لم أحبها، لا أعرف من منحني إياها، لم يكن يجب أبداً أن تدخل غرفة نومي. كانت دراجة ذهبية من نوع رالي، مقاسها ملائم لي تماماً، ولم أحب ذلك أيضاً، أردت دراجة كبار، ذات مقابض مستقيمة ومكابح تقبض عليها بيدك مع المقابض بارتياح، مثل كيفين. مكابح دراجتي كانت تحت المقابض، كي توقف الدراجة عليك أن تمد يدك وتقبض عليهما مع المقابض والمقود في نفس الوقت، لم أستطع فعلها. الشيء الوحيد الذي أحببته كان ملصق مانشستر يونايتد الذي وجدته في جوب الهدايا عندما استيقظت مرة أخرى في الصباح، ألصقته على الماسورة تحت المقعد.

لم نكان بحاجة إلى الدراجات حينها، كنّا نمشي ونركض، نركض هاربين، هذا كان أفضل شيء، الركض. نصيح في الخفاء ونلقي الحجارة على النوافذ ونضرب أجراس البيوت، ونجري. باريتاون كانت مملكتنا، باريتاون كلها، كانت شاسعة، مثل دولة كاملة.

أما بايسايد فكانت للدراجات.

لم أستطع التبديل. كنت أعرف كيف أطوِّح رجلي من فوق المقعد إلى البدال في الناحية الأخرى، وهذا كل شيء. لم أستطع الانطلاق بها، لم أتمكّن من البقاء من دون وقوع، لا أعرف كيف يفعلونها. كنت أفعل كل شيء كما يجب، أجري بالدراجة، وأصعد عليها وأقع بها. كنت مذعوراً، أعرف أنني سأقع من قبل حتى أن أبدأ. استسلمت، وضعت الدراجة في السقيفة. غضب مني بابا، لم أهتم.

قال: بابا نويل جلب لك هذه الدراجة، عليك على الأقل أن تتعلم كيف تركب هذا الشيء اللعين.

لم أقل شيئاً.

قال: ستتعلمها بالغريزة، إنها مثل المشي.

أنا أعرف المشي.

طلبت منه أن يعلمني.

قال: كان يجدر بك أن تطلب هذا من البداية.

ركبت الدراجة، وأمسك هو بالمقعد من الخلف، وبدلت، من أول الحديقة إلى آخرها، ومن آخرها إلى أولها. حسب بابا أبي أستمتع بذلك، لكنني كرهت ما نفعل، وعرفت ما سيحدث: ما إن تركني حتى وقعت.

- تابع التبديل، تابع التبديل، تابع التبديل.

وقعت، نزلت عن الدراجة. لم يكن وقوعاً حقيقياً، بل كنتُ أنزلُ قدمي من على البدال. هذا جعله أكثر انزعاجاً.

- أنت لا تحاول.

شدّ الدراجة بعيداً عني.

- اركب، هيا.

لم أستطع أن أفعل، الدراجة معه، أدرك ذلك، أعادها إليّ، ركبت، أمسك هو بالمقعد من الخلف. لم يقل شيئاً، بدّلت، ذهبنا إلى آخر الحديقة، انطلقت أسرع، ظللت منطلقاً، نظرت خلفي، لم يكن هناك، وقعت. لكنني فعلتها، استطعت المضي لبعض الوقت من دون مساعدته. صار بوسعي فعلها الآن، لم أعد بحاجة إليه، لا أريده.

كان قد عاد إلى داخل البيت على أي حالٍ.

قال: ستكون على ما يرام الآن.

إنه كسول.

تابعت الانطلاق. عند نهاية الحديقة درت بالدراجة بدلاً من الترحل عنها وتدويرها وركوبها مجدداً. تابعت الانطلاق، لففت الحديقة ثلاث مرات، تابعت الانطلاق.

حكمتنا بايسايد. عسكرنا على سطح الجراج، أشعلنا النيران، بات بوسعنا أن نرى في كل الاتجاهات. كنا جاهزين لأي هجوم. هناك أولاد آخرين في بايسايد، لكن أغلبهم صغار وحمقى، والذين منهم في مثل عمرنا حمقى كذلك. قبضنا على أحد الصغار منهم، احتجزناه كرهينة، جعلناه يتسلق السطح على مقعد الدراجة، حاصرناه من كل اتجاه، وضعناه في أحد أركان السطح وركلناه، أعطيته رجل ميتة.

قال له كيفين: لو هوجمنا، سنقتلك.

احتجزناه لعشر دقائق، وجعلناه يقفز من السطح، هبط بالطريقة السليمة. لم يحدث بعدها شيء، لم يهاجمنا بعدها أحد.

بايسايد كانت مكاناً مناسباً لدق الأجراس والهروب في الليل، ليس هناك حوائط ولا سياجات ولا حدائق، تتتابع الأجراس في صف مستقيم، صيد سهل. هناك ممر أو زقاق في نهاية كل صف، الهروب أسهل شيء. الجزء العظيم فعلاً كان العودة بعدها وإعادة الكرة من جديد. الرقم القياسي كان سبعة عشر، دققنا الأجراس الخمسة سبع عشرة مرة وهربنا. أحد البيوت لم يكن فيه جرس لذا طرقت على الزجاج. فعلناها بالتناوب، أنا أولاً ثم كيفين ثم ليام ثم أيدان، ثم أنا مجدداً. الإثارة تكمن في العودة للبدء من جديد، دون أن تعرف إن كان هناك باب مفتوح في انتظارك ليقبضوا عليك.

- ربما لا أحد في البيوت.

قال كيفين: مستحيل، كلهم موجودون.

- كيف؟

قال: - إنهم موجودون، أنا رأيتهم.

البرودة كانت تشتد، ارتديت قميصي وكنزتي مجددًا.

- هل حلّ الصباح بعد؟

- حلّ الصباح لكن لم يحن وقت الاستيقاظ.

كنت ماهرًا في انتظار قشرة الجرح لتجهز، لا أتعجل في إزالتها أبدًا، أنتظر حتى أتأكد من أنها صارت مجوفة ولم تعد ملتصقة بركبتي. تنشُد بسهولة وبنظافة وبلا أثر لأي دم تحتها، فقط علامة حمراء، تلك التي تعني أن الركبة صارت سليمة. القشور تصنعها أشياء تجري في الدم تُدعى كرات الدم، هناك خمسة وثلاثون مليار كرة دم في دماغك، يصنعون القشور كي يحموك من النزيف حتى الموت.

أفعل الشيء نفسه مع العين اللزجة. أترك العين لزجة حتى تجف، تتيبس. يحدث هذا في الصباح أحيانًا، صارت العين لزجة بعدما وضعتها على الوسادة ومِت عليها. تقول ماما إن هذا يحدث بسبب ضربة هواء. انقلبت على ظهري، ركزت على تلك العين، حافظت عليها مغلقة، تسميها أمي عين نعسانة. في المرة السابقة بعدما أخبرتها عنها نظفتُ عينيَّ بمنشفة الوجه، كانت كلتاهما لزجتين. لم أعد أخبرها، أخذت أحتفظ بها لنفسي. انتظرت، عندما صاحت ماما لتدعونا إلى الإفطار، نهضت وارتديت ملابسني، اختبرت العين، شددت الجفن كأني أحاول فتحه، كان ممتازًا، ملتصقًا وجافًا. انتهيت من ارتداء الملابس، جلست على السرير ولمست العين بحذرٍ، حول الأطراف من الخارج ثم من الأركان، انتزعت قشرة برأس إصبعي ونظرت إليها. لا تجد أبدًا على إصبعك شيئًا بقدر ما كنت تشعر قبل أن تنتزعه، فقط

مجرد فتات صغيرة. تفتح العين وأشعر بالهواء على الحدقة من جديد، ثم أدعك العين فتعود عادية مرة أخرى. عندما نظرت إلى مرآة الحمام لم يكن هناك شيء مختلف، عيانان عاديتان.

سندباد لم يلاحظ مثلما لاحظت أنا. يحتاج إلى صياح وصرخات تفصل بينها لحظات سكوت كبيرة كي يستوعب، لكن عندما تكون الدنيا هادئة فكل شيء على ما يرام، هكذا كان يفكر. لا يصدقني أبدًا، حتى بعدما طرحته أرضًا.

كنت وحيدًا، أنا فقط من يعلم، أعلم حتى أكثر مما يعلمان هما، أنصت بانتباه أكثر مما يفعل كلاهما، لأنهما لا يتوقفان عن قول ذات الأشياء مرارًا وتكرارًا.

- أنا لست كذلك.

- بل أنت كذلك.

- لا.

- بل نعم، وأنا خائفة.

انتظرت أن يقول أحدهما شيئًا مختلفًا، أردت أن يفعلوا، لكنهما يكرران ذلك مرة أخرى ثم تهدأ الأمور لفترة. شجاراتهما مثل قطار يظل يعلق عند انعطاف المسارات وعليك أن تنحني وتدفعه أو تعدله كي يتابع. الآن ليس بوسعي عمل أي شيء عدا الإنصات والتمني. لم أصل، لا توجد صلوات مناسبة لمثل هذا، أبانا الذي في السماوات لا تصلح، ولا السلام عليك يا مريم، لكنني أهتز ذهابًا وإيابًا بنفس الطريقة التي أفعالها بها عندما أصلي، إلى الأمام وإلى الخلف، مع إيقاع الصلوات. صلاة قبل الأكل كانت الأسرع، على الأرجح لأننا جميعًا نكون جائعين وقتها.

أهتز.

أردد:

- توقفا، توقفا، توقفا، توقفا...

على درجات السلم، على العتبة خارج الباب الخلفي، في السرير، جالسًا بجوار بابا على مائدة المطبخ.

- أكرهه بهذا الشكل.

- كان كذلك الأحد الماضي أيضًا.

بابا يأكل فقط بيضة مقلية في صباحات الأحد، يأخذ كل منا يوم الأحد إصبع نقانق إضافية لو أراد، بالإضافة إلى ما نتناوله كل يوم. يجب أن ننتهي قبل ساعة على الأقل من موعد القداس.

ماما حذرتني: ابلع بسرعة وإلا لن يُسمح لك بالتناول.

نظرت إلى الساعة، كانت لا تزال هناك تسع دقائق قبل الحادية عشر والنصف، والقداس في الثانية عشر والنصف. قسمت النقانق المتبقية إلى تسع قطع.

- قلت لك من قبل، أكرهه عندما يكون مائعًا بهذا الشكل.

- كان مائعًا الأسبوع السابق.

- كرهته أيضًا الأسبوع السابق، لن...

أخذت أهتز.

- هل تريد الذهاب إلى الحمام؟

- لا.

- ما مشكلتك إذن؟

- لا شيء.

- إذن توقف عن التلوي كالمثقلين وكُل طعامك.

لم يقل أي شيء آخر، أكل كل شيء، بما في ذلك البيض المائع. أنا أحب البيض مائعًا. مسح الطبق كله بنصف شريحة خبز. لا أستطيع أبدًا فعل ذلك جيدًا، لا يتوقف البيض عن الجري من أمام الخبز كلما فعلتها. نظّف طبقه ولم يقل شيئًا آخر، عرف أنني أراقب، رأني أهتز وعرف سبب ذلك.

قال إن الشاي جيد.

ظل يمضغ طعامه عندما بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف، راقبت عقرب الدقائق حتى تجاوز رقم 6، سمعت تكة الساعة، ظل يمضغ من دون أن يبلع لست وثلثين ثانية بعد ذلك.

احتفظت بما لاحظت لنفسي، لو أنه نهض للتناول سأرى ما الذي سيحدث. أنا أعرف، والرب يعرف.

أحب إدارة قرص الراديو. أشغله وأمدده على ظهره على مائدة المطبخ. لا يُسمح لي أبدًا بأخذه خارج المطبخ. أدير القرص بأسرع ما أستطيع وبأقصى ما يسمح لي رسغي. أحب تتابع الضوضاء الحادة ثم الأصوات ثم ضوضاء مختلفة ثم أصوات أخرى، أحيانًا صوت امرأة، لا أتوقف لتحديد كنهه، أتابع للنهاية ثم أعود، وللنهاية ثم أعود، موسيقى، أصوات غير مفهومة، كلام، لا شيء. هناك تراب على خطوط الشبكة البلاستيكية التي يخرج منها الصوت، مثل التراب تحت أظافرك، وعلى الحروف الذهبية للماركة BUSH في الركن السفلي. ماما تستمع إلى آل كينيدي في كاسلروس⁽¹⁾، أظلم معها في المطبخ عندما يُذاع خلال العطلات، لكنني لا أنصت إليه، أجلس على الكرسي وأنتظر انتهائه، وأراقبها وهي تنصت.

(1) The Kennedys of Castleross: مسلسل إذاعي أيرلندي بدأ بثه عام 1955. [المترجم]

فتحت علبة البرسيل ورششت بعض منها في البحر، لم يحدث شيء ذو بال، لطخ بعض الماء لثوان ثم اختفى. فعلتها مجددًا، لم أستطع التفكير في شيء آخر لأفعله.

قال كيفين: أعطنا إياها.

فعلت.

أمسك بإدوارد سوانويك، فأمسكنا به جميعًا عندما رأيناه يفعل. إدوارد سوانويك لم يكن صديقنا فعلًا، كان على الحافة. لم أدعوه قط، لم أكن قط في مطبخ بيته، وفي الهالوين، عندما نظرق على باب بيته، لا يعطونا قط حلوى أو مألًا...

- فاكهة، دومًا فاكهة، ومسز سوانويك تنصحنا بأكلها.

- ما الذي تعنيه بذلك؟

قال ليام: ليس من شأنها أن نأكلها أو نفعل بها غير ذلك.

طرحنا إدوارد سوانويك أرضًا وحاولنا فتح فمه. هناك طرق عديدة لفعل ذلك، المعضلة تكمن في إبقائه مفتوحًا. شرع كيفين يدلق البرسيل على وجهه، ليام قبض على رأس إدوارد سوانويك من أذنيه، كي لا يستطيع إدارة وجهه بعيدًا. دخل بعض البرسيل فمه، إدوارد سوانويك أخذ يرتعد ويتهوع، محاولًا إزاحتنا عنه. دخل البرسيل في عينيه أيضًا، صارت العلبة خاوية، دفع بها كيفين في صدر إدوارد سوانويك وتركه ينهض. قام، لم يقل شيئًا، لم يستطع. لو أنه لم يتظاهر الآن بأنه استمتع بما حدث، فهو خارج عصابتنا. تقيًا بعدها، لكن ليس كثيرًا، برسيل فقط.

هذا هو نوع الأشياء التي نسرقها في الغالب. تصعب سرقة الحلوى لأنها على طاولة البيع العالية، تراقبها النساء وتحيط بها المرابيا. يراقبن الحلوى لأنهن يحسبن أن لا أحد سيهتم بسرقة شيء آخر.

إنهن لا يفهمن، لا يفهن أن السرقة لا علاقة لها بما نريد، بل تتعلق بالتحدي والرعب والإفلات بالفعل.

دائمًا هن نساء.

هناك ستة متاجر بين راهيني وبالديويل نسطو عليها. لم يظهر السوبر ماركت بعد، هناك فقط بقالان ومتاجر تبيع كل شيء. ذات مرة، بينما نتمشى، طلبت ماما زا إيفيننج بريس وأربع علب حبوب إفطار وعلبة أكياس شاي ومصيدة فئران، واستطاعت المرأة إحضار كل هذا دون أن تنهض من مكانها. كنت متوترًا، فقد سرقت من هناك علبة قمح مطحون قبل بضعة أيام، وخفت من أن تتعرفني المرأة، أخذت أتشغل بعربة الأطفال بينما تتحدث ماما معها، تحدثنا عن الطقس والبيوت الجديدة.

لا نسرق إلا في الطقس الجيد، ولا نسرق أبدًا في باريتاون، السرقة في باريتاون غباء. هنا مسز كيلمارتن خلف المرأة العاكسة من اتجاه واحد، والناس في المتاجر هنا أصدقاء لآبائنا. كلهم تزوجوا وانتقلوا إلى باريتاون في الوقت نفسه، كلهم رواد أوائل كما يقول بابا. لا أعرف ما الذي قصده بذلك، لكنه يحب قوله، ويحب الذهاب إلى المتاجر ومقابلة أصحابها والدرشة معهم، عدا مسز كيلمارتن، قال لي إن مستر كيلمارتن محبوس في مستشفى المجانين.

قالت ماما: لا تنصت إليه، إنه في البحرية الإنجليزية.

- على سفينة؟

- أعتقد ذلك.

قال بابا: هو في أي مكان إلا في بيته.

كان قد أصلح لتوّه كرسي المطبخ المتراقص ويشعر بالفخر، أستطيع رؤية ذلك من النظر إليه وهو جالس على الكرسي وينظر إلى سيقانه، ويحاول هزه مجددًا.

قال: صار ثابتًا الآن، أليس كذلك؟

قالت ماما: ممتاز.

البقال في باريتاون كان رجلًا، رجلًا طيبًا، مستر فيتزباتريك. يعطيك بسكويًا مكسورًا أكثر مما تستحق. كان ضخماً، ينحني إليك وهو يكلمك. أذكر ذات مرة عندما كنت صغيراً أن مستر فيتزباتريك خطا من فوقي. لا نسرق منه أبداً، سيعرف نوايانا ما أن نخطو في المتجر، والجميع يحبونه. أهالينا سيقتلوننا لو سرقناه. مسز فيتز تجلس على مقعد عند الباب الأمامي عندما يكون الطقس رائقًا، كأنها إعلان للمتجر. كانت حسنة المظهر، وكان عندهما ابنة: ناعومي، في المدرسة الثانوية، حسنة المظهر كأماها. تعمل في المتجر أيام السبت وبعد المدرسة، تملأ العلب الخاوية وتجهز طلبات عطلة نهاية الأسبوع لكل بيوت باريتاون. شقيق كيفين يقوم بالتوصيل على دراجته السوداء العملاقة ذات السلة الأمامية، يحصل على سبعة شلنات ونصف مقابل هذا. قال إن ناعومي تستطيع فتح زجاجات الفانتا بمهبها. أردت قتله عندما قال ذلك، أردت إنقاذ ناعومي.

الهدف هو أكبر صندوق، تلك كانت فكرة كيفين، وكانت فكرة عظيمة. من يتمكّن من حمل أكبر صندوق إلى خارج المتجر يفوز. لكنه يجب أن يكون صندوقًا ممتلئًا، هذه كانت من أول القواعد، وضعناها بعدما خرج ليام من متجر حاملًا صندوقًا خاويًا. لا يمكنك فعل ذلك في أي متجر، عليك أن تحذر، كل متجر متخصص في شيء ما، وإن كانت النساء الجالسات خلف طاولات البيع لا يدركن ذلك. هناك مثلًا ذلك المتجر في راهيني الذي كان ممتازًا لسرقة المجلات؛

مجلات الكوميكس كانت على طاولة البيع، قريبة جدًا من أنوف العجائز الثلاثة اللواتي يحكمن الطاولة، لكن المجلات العادية أمرها أسهل بكثير. إنهن سيدات حمقاوات، يحسبن أننا لن نهتم بمجلات النساء وحياكة الملابس، فيضعنها على رفٍّ بجوار الباب كي يبدو شكلها جيدًا في نافذة العرض. وهناك شيء آخر مهم: دائمًا ما يخدمن الكبار أولاً. انتظرت اللحظة المناسبة، وقفت بالخارج أربط رباط حذائي، دخلت امرأة، اندفعت النسوة الثلاثة إلى خدمتها، فانحنيت وخطفت خمس نسخ من مجلة ومينز ويكليز. أخذتهم إلى الزقاق بجوار المكتبة الجديدة ومزقناهم. ذات مرة حصلت على مجلة فوتبول مُثلي من رف نافذة العرض. لم أصدق عيني، لا بد أنهن لم يعد لديهن أماكن على طاولة البيع، فكرت لوهلة أنهن ربما وضعنها هنا كطعم لاستدراجنا، نظرت حولي، ثم أخذتها. هناك متجر آخر في بالدويل كان يدعونا إلى سرقة البسكويت. أكياس البسكويت معروضة على الرف المعلق أسفل طاولة البيع بالعرض، بوسعك أن تملأ جيوبك بها بينما تُحصى المرأة قطع حلوى الينسون. إحدى العلب كان مليئًا بسكويت جولد جراين بالحليب والشوكولاتة، الوحيد الذي به شكلاتة. اصطفنا في طابور أمام الصندوق ننتظر أدوارنا، حسبتنا نفعل هذا بدافع من الأدب. كان المتجر مظلمًا، لا بد أنها لم تر الفتات.

أما حينما يتعلق الأمر بالصناديق، فنذهب إلى متجر توتسي.

- ربع كيلو من أطفال الجيلي يا توتسي، كلهم أولاد.

توتسي هي المسؤولة عن المتجر الخرب الضخم القريب من حيث نسبح عند الواجهة البحرية. نافذة العرض كانت مقبرة دبابير، تجف الدبابير وتتشقق في الشمس، نضيف إليها المزيد. نجمع الدبابير والنحل في برطمانات، ونراقبهم يموتون ويمزق بعضهم بعضًا، ثم نذهب إلى متجر توتسي وندلقهم على الأشياء المعروضة في النافذة

حينما لا تكون توتسي تنظر. كنا سنفعلها أيضًا لو كانت تنظر، فهي تنظر إليك ولا ترى شيئًا، تستغرق دهورًا حتى يبدو على وجهها أنها لاحظت. توتسي لا تمتلك المتجر، بل تديره لصالح أحدهم. تفعل كل شيء بالحركة البطيئة، كل شيء، بل أحيانًا ما تكون هناك إعادة: تلتقط شيئًا ما مرة أخرى، ببطء شدييد، لترى السعر من جديد. تكتب سعر كل شيء على كيس ورقي بخط أنيق، وتستخدم مسطرة لشد خطوط تحت الأرقام، ثم تبدأ في الجمع، لكنها تتوقف وتبدأ من جديد، كأنها تتسلق سلمًا درجاته غير ثابتة. في هذه الفترة كان بوسعك الخروج من المتجر بأي شيء. سرقنا سلمها الصغير، الذي كانت تستخدمه للوصول إلى الرفوف العالية. حملت أنا إحدى نهايتيه وكيفين حمل الأخرى. السيدة التي كانت توتسي تخدمها وقتها لم تكن من هنا، لم تعرفنا، فجعلنا الأمر يبدو كأننا نساعد توتسي، وحافظنا على تعبير وجه رصين. ألقينا السلم في البحر، صدرت عنه جلبة ممتازة لكن لم يطرطش كثيرًا. نقف عليه في الماء عندما يكون الجزر نصف منحسرٍ فنبدو كأننا نمشي على الماء. يمكنك أن تسأل توتسي أي شيء.

- هل تبعين السيارات يا توتسي؟

- لا.

فكرتُ قبل أن تجيب.

- لم لا؟

نظرتُ ولم تجب.

- هل تبعين وحيد القرن يا توتسي؟

- لا.

يمكنك أن ترى آثار أصابع توتسي على الكريم فوق الكعكات الموضوعة على صينية داخل الثلاجة خلف منضدة البيع. الكريم أصفر، وآثار الأصابع جافة ودائمة. الثلاجة كانت صغيرة ومكتظة بأنواع الآيس كريم المختلفة. تسلت خلف منضدة البيع ونزعت قابس الثلاجة.

يوجد مخبز في راهيني تحرسه امرأتان. رائحته أفضل من أي متجر. لم تكن رائحة خبيز، لم تكن رائحة هائجة مثل البخار الذي يغمرك، بل كانت هادئة، جزءاً من الهواء، لا دافئة ولا خانقة ومزعجة. تجعلني الرائحة أشعر أفضل. الكعكات تستقر على الرفوف داخل طاولة البيع الزجاجية، كعكات قليلة في أطباق، يفرق بين كل منهم والآخر مسافة قدمين، كعكات صغيرة، ليست كتلاً ضخمة تنفجر منها الكريمة. كانت فاتحة اللون، ناشفة على نحوٍ لطيفٍ، والبسكويت أحلى من أن يُسمى بسكويتاً. ويمكنك أن تصنع بالكعكات أشكالاً مثلما في حواديت الجنيات. لا أعرف أين يجري الخبيز، هناك باب يقود إلى الخلف، لكن المرأتين دوماً تغلقان الباب عندما تعبرانه من ناحية إلى أخرى، ولا تذهبان أبداً معاً، هناك واحدة دوماً تجلس خلف منضدة البيع تغزل شيئاً ما، كلتاها تغزلان، ربما تتسابقان، ليريا أيهما أسرع في الغزل. لا نستطيع الدخول والاستكشاف، لا يمكننا الادعاء بأننا نبحث عن شيء، ليس هناك إلا منضدة البيع والرفوف تحتها. نظرنا إلى نافذة العرض، أحياناً ما يكون معي مالٌ كافٍ لشراء كعكة، لكنها ليست جيدة بالدرجة التي تبدو عليها، وعليك أن تشاركها مع أحدهم، عليك أن تمسك الكعكة بحيث تكون أصابعك بعيدة وآمنة، ليكون الآخرون قادرين على أخذ قضمات صغيرة.

انكشفنا.

ماما رأتنا وثرثرت بشيء ما لبابا. كانت تمشى مع البنيتين ورأتنا
نأخذ كومة من مجلات ومينز وايز. رأيتها قبل أن أدخل الزقاق،
تظاهرت بأني لم أرها. لثوانٍ لم أعد أشعر بساقيّ، وشعرت أن بطني
خاوية وممتلئة في نفس الوقت، تمكنت بصعوبة من كتم صرخة
أرادت الخروج. ما الذي تفعله في راهيني؟ إنها لا تذهب إلى راهيني
أبدًا، إنها تبعد عن باريتاون أميالًا. احتجت إلى عمل رقم 2 بعدها
على الفور، ظل الآخرون يراقبون، أخبرتهم عن ماما، فهم أيضًا
واقعون في مشكلة. مسحت نفسي بمنديل سندباد، كان يريد أن يجري
خلف ماما، كان يبكي. كيفين أعطاه تعذيب صيني، نظر إليّ ليتأكد أنني
لا أمانع ما يفعله، لكن سندباد كان يبكي بالفعل، ولم يبدُ عليه أنه
شعر بالألم، فتوقف كيفين. نظرنا إلى غائطي، بدا بلاستيكيًا، ممتازًا، لم
يضحك أي منهم عندما رآه.

هناك مخرج واحد من الزقاق، نفس الطريق الذي دخلنا منه
نجري. كرهت ماما، لا بد أنها تنتظرنا خلف الحائط، ستصفعني،
وستعطي سندباد نصيبه، أمام الآخرين.

كيفين فعلها، أنا فقط كنت معه.

اختبرت الفكرة.

سأظل في مشكلة.

إيان مكيفوي كان أول من خرج إلى الطريق، عرفت من تعبير
وجهه أن ماما ليست هناك. هللنا وركضنا خارجين إلى الطريق. لم ترنا.
لقد رأتنا.

لم ترنا. لو رأتنا كانت ستأتي خلفنا وتجعلنا نعيد المجلات ونعتذر
للنساء في المتجر. كانت أبعد من أن تستطيع التعرف علينا. لم تر ما
الذي فعلناه، رأت فقط أننا نجري هاربين. لم نكن نهرب، كنا فقط

نجري، نطارد بعضنا. لقد دفعنا ثمن المجلات، كانت مجلات قديمة والمرأة قالت إن بوسعنا أخذها لو أردنا، بل طلبت منّا أن نأخذها. كانت بعيدة جدًا. أنا أشبه اثنين من أبناء أعمامي. خلعت كنزتي، سأخبئها وأعود إلى البيت مرتديًا قميصي فقط. أنا لم أكن الفتى الذي يرتدي الكنزة الزرقاء التي تشبه كنزة ابن عمي، لم أكن أرتديها. كانت بلا شك تنظر إلى كاثي في عربة الأطفال، كانت منشغلة عنّا. لقد رأتنا.

قالت لبابا وقتلني. لم يمنحني فرصة حتى للإنكار. هذا أفضل، لو أنكرت كنت سأصبح في مشكلة أكبر. استخدم حزامه. لم يكن يرتدي حزامًا، بل احتفظ بحزام لهذا الغرض فقط. ضربني على قدمي من الخارج، وعلى ظهر يدي بينما كنت أحاول حماية قدمي بها. ظل ذراعي متورمًا لأيام بعدها. ظللنا ندور حول بعضنا في غرفة المعيشة، أحاول الابتعاد عن الحزام بقدر الإمكان كي لا يؤلمني أكثر. كان عليّ أن أفعل العكس، أن أقرب من الحزام كي أحرمه من المساحة التي يحتاج إليها كي يطوحه. لم أكن وحدي من يبكي، بقية من في البيت كانوا يبكون كذلك. يصدر الحزام صفارة وهو يتطوح في الهواء، يحاول بابا إحراز ضربة جيدة، ويفشل، كان يلعب معي، هذا ما كنا نفعله، نلعب. ثم توقف. تابعت الحركة والتلوي أمامه، لم أعلم إن كان قد توقف تمامًا أم سيتابع. ترك ذراعي، ولاحظت عندها الألم فيها، هناك حيث تلتقي الذراع بالكتف، الألم هناك كان فظيئًا. انخرطت في نحيب لا يمكن السيطرة عليه، لا أريد أيًا من ذلك، لا أحبه. حبست أنفاسي، انتهت كل شيء، انتهى كل شيء. لن يحدث شيء آخر. كان يتعرق.

- اصعد إلى غرفتك. اذهب الآن.

لم يبد صارمًا مثلما أراد أن يكون.

نظرت إلى ماما، كانت شاحبة تمامًا، اختفت شفاتها. نالت ما تستحق.

سندباد كان في الغرفة بالفعل. لم ينل سوى جلدات قليلة، فالذنب كله ذنبي أنا. كان منبطحًا على وجهه في السرير، يبكي، وعندما رأى أنني فقط من جاء إلى الغرفة هداً بكاؤه.

- انظر.

عرضت عليه ظهر قدمي.

- أرني أنت.

لم تكن عنده نصف آثار الضرب التي عندي. لم أقل شيئًا، بوسعه الرؤية بنفسه، بعض هذه الضربات كان يجب أن تكون من نصيبه. أستطيع أن أرى أنه يفكر في الشيء نفسه، وهذا يكفيني.

قلت: إنه وغد كبير، أليس كذلك؟

- نعم.

قلت مجددًا: إنه وغد كبير.

قال سندباد: إنه وغد كبير.

دخلنا تحت أغطيتنا. أحب الظلام تحت البطانية، يمكنك أن تتخلص منه بسهولة لو أردت ذلك، وأحب ثقل البطانية فوقتي، أستطيع الشعور بذلك في رأسي. كانت دافئة. ثم كان هناك نور، ارتفعت البطانية. كان سندباد، انسل تحتها بجواري.

ستائرنا المعدنية كانت متنوعة الألوان. ذات يوم -وبينما كانت تمطر- أدركت أن فيها نمطًا. الشريحة السفلية صفراء، التي تعلوها لبنية، والتالية وردية، ثم حمراء، ثم صفراء مرة أخرى، والتي على القمة زرقاء. الإطار بالأعلى كان أبيض، وكذلك كان لون الأسلاك.

تمددت على الأرض وجعلت قدمي في اتجاه النافذة، وأخذت أعد الشرائح، بسرعة، ثم أسرع فأسرع.

هناك العديد من الستائر المعدنية في باريتاون، لكننا الوحيدون الذين عندنا ستائر معدنية في واجهة المنزل وفي الخلف أيضًا. أنا وكيفين حصرنا بيوت باريتاون وعددنا الستائر، هناك سبع عشرة منها مقبوسة. هناك أربعة وخمسون بيتًا في باريتاون، هذا غير بيوت الشركة الجديدة والبيوت التي تم بناؤها لكنها لم تُسكن بعد. عددنا مجددًا، أحد عشر من السبعة عشر كانت مقبوسة من الناحية اليسرى. تغطي الستائر حافة النافذة اليمنى، لكنها تنحني من الناحية اليسرى في آخر خمس شرائح تقريبًا. أسوأها حالًا كانت نافذة بيت آل كيلى، تتقوس في عشر شرائح. يمكننا أن نرى مسز كيلى جالسة في الغرفة الأمامية لا تفعل شيئًا. نافذة بيت آل أوكونيل لم تكن مقبوسة، لكنها كانت عالقة. ليست النافذة التي في غرفة نوم مستر أوكونيل في الدور العلوي - تلك كانت سليمة ومغلقة - بل نافذة الغرفة الأمامية، التي نلعب فيها. عشرون بيت فقط لم يكن فيهم ستائر.

- مقرفون.

بيت كيفين كانت ستائره ملونة مثلنا.

- متعددة الألوان هي أفضل شيء.

- صحيح.

ملأت ماما حوض الاستحمام بالماء عندما غسلتها. لم تغسلها إلا مرة واحدة. أردت مساعدتها لكن لم يكن هناك مكان لي، أردت أن أتأكد من أنها ستعيدها بالترتيب السليم. أخرجت السلك من ثقب كل الشرائح ثم وضعتها كلها في الحوض بالتتابع. نظرت إلى شريحة صفراء مغسولة وأخرى صفراء غير مغسولة بينما كانت ماما تُطعم الطفلتين، وضعتهما بجوار بعضهما. بدتا بلونين مختلفين. مسحت

بإصبعي الوسخ من على التي لم تُغسل بعد، لمع الأصفر مكان حركة
إصبعي كأنه جديد.

طلبتُ منها أن تترك واحدة من كل لون دون غسيل.

سألتها مرة أخرى: هل ستفعلين؟

- لماذا؟

هي دائماً تتوقف وتساءل، دائماً تريد أن تفهم.

- فقط...

لم أستطع شرح ما أريد، كان سرّاً من نوعٍ ما.

-...لنقارن بينهم.

- لكنها قدرة تماماً يا حبيبي.

عندما أويت إلى الفراش عرفت أني لن أتمدّد على الأرض وأتأمل
الألوان مرة أخرى. جاءت لتطفئ النور، وضعت يدها على جبهتي
وعلى شعري. فاحت من يدها رائحة الماء والتراب من خلف الثلاجة.
انسللت من تحت يدها، انزحت إلى ركن السرير.

- هل أنت متضايق بسبب الستائر؟

- لا.

- ما الأمر إذن؟

- أشعر بالحر.

- أتريدني أن أزيل إحدى البطانيات؟

- لا.

استغرقت دهوراً في ترتيب السرير لي، أردتها أن تذهب، لكنني
أردتها أن تبقى أيضاً.

سندباد كان نائمًا. ذات مرة علقت رأسه بين قضبان سرير الأطفال، وأخذ يبكي طوال الليل حتى جاء الصباح ورأيته. كان ذلك قبل أعوام عديدة، ينام الآن في سرير عادي. جاء عمي ريموند بالسرير على سطح سيارته، مرتبته كانت مبتلة لأن المطر نزل وهو في منتصف الطريق بين بيته وبيتنا. أنا وسندباد قلنا إن البلل كان من أولاد عمي، لم نعرف سوى بعد يومين، بعدما جفت المرتبة، أنه سيصبح سرير سندباد. عندها أخذ عمي فرانك سرير أطفال سندباد على سطح سيارته.

قالت: كانت متسخة يا باتريك، علينا أن نغسل الأشياء عندما تتسخ، خاصة عندما يكون هناك أطفال رضع. هل تفهم؟
لو أجبت بنعم فسيعني ذلك أكثر من مجرد أني فهمت، لم أقل شيئًا، مثلما يفعل سندباد دومًا.

- باتريك.

لم أرد.

- هل لو دغدغتك هنا لن تضحك؟

حاولت كتم الضحك بصعوبة بالغة.

أيدان كان المعلق، كان جامدًا. علينا أن نخبره بالأسماء التي اخترناها لأنفسنا قبل المباراة. نلعب بعرض الطريق، فملعبنا القديم لم يعد موجودًا. البوابتان على كلتا ناحيتي الطريق هما مرمى الفريقين. كنا ثمانية، عددٌ مثالي، أربعة ضد أربعة. من كانت معه الكرة عندما تمر سيارة يحصل على رمية تماس بعد ذهابها، ولو أنك قررت المخاطرة وركلت الكرة لكن سائق السيارة ضرب الكلاكس قبل أن تفعل، فالهدف، لو أحرزته، غير محسوب. لا يمكنك استخدام الرصيف

للتحجيز على الكرة، وأي تصويبة أعلى من عمودي البوابة تُعتبر فوق العارضة.

كان عليّ أن أقاتل لأحصل على اسم جورج بست.

كيفين لا يشجع مانشستر يونايتد، بل يشجع ليدز. كان يشجع يونايتد من قبل لكنه غير بسبب أخيه، أخوه يشجع ليدز.

حان دور كيفين ليختار.

قال: إيدي جراي.

لا أحد غيره أراد أن يكون إيدي جراي. إيان مكيفوي يشجع ليدز أيضاً، لكنه يختار دومًا جوني جايلز. ذات مرة كان كيفين مريضاً، وإيان مكيفوي اختار إيدي جراي.

قلت له: لماذا لم تختَر جوني جايلز؟

قال: لأن...

كشفته.

أربعة منا يشجعون مانشستر يونايتد، وجميعنا نريد أن نكون جورج بست. كل مرة نجعل سندنباد يكون نوبي ستايلس، فقرر أن يتوقف عن تشجيع يونايتد وبدأ في تشجيع ليفربول، وإن كان في الواقع لا يشجع أحداً. حاولت لبعض الوقت أن أشجع ليدز لكنني لم أقدر. قالوا إن هذا بسبب كيفين، لكن في الواقع كان بسبب جورج بست.

ما فعلناه كان أن كيفين جلب أربع عصي آيس كريم وكسر إحداها، وكل من مشجعي يونايتد سحب واحدة، من سحب المكسورة من حقه أن يختار أولاً.

أيدان سحب المكسورة.

قال: بوبي تشارلتون.

اختار بوبي تشارلتون لأنه عرف ما الذي سيحدث له لو كان اختار جورج بست، كنت سأكسره. لا حكم هناك، يمكنك أن تفعل ما تريد، يمكنك حتى عرقلة أحد أفراد فريقك. أستطيع هزيمة أيدان، إنه مقاتلٌ ماهر لكنه لا يحب القتال، يتركك تنهض دومًا قبل أن تستسلم بالكامل، فيكون بوسعك حينها النيل منه مجددًا.

كيفين رمى بعدها إحدى العصي السليمة، سحبت أنا المكسورة في المرة التالية.

- جورج بست.

ليام كان دينيس لو. لو أنه سحب العصا المكسورة كان سيختار جورج بست، لم أكن لأمنعه، ليام مختلف. لم أشاجر معه قط، فيه شيء ما، سيفوز. لم يكن أضخم بكثيرٍ. فيه شيء ما. لم يكن الحال كذلك على الدوام، كان ضئيلاً جداً من قبل، والآن كذلك ليس بهذه الضخامة. لكن عينيه، لا لمعة فيهما. عندما يكون الشقيقان معًا ويقف أحدهما بجوار الآخر يسهل رؤيتهما بالطريقة التي نراها بها عادة؛ ضئيلان، نكتتان، حزينان، طيبان، كانا أصدقاءنا لأننا نكرههما، وجودهما حولنا جيد. أنا أنظف منهما، أذكى منهما، أفضل منهما. لكن إن كانا منفصلين فالحال يختلف. أيدان يبدو أصغر، يبدو غير مكتملٍ، ليام يصبح خطيرًا. يبدوان متشابهين معًا، لكن يبدوان مختلفين تمامًا الاختلاف منفصلين، وإن كان هذا لا يحدث إلا نادرًا. لم يكونا توأمين، ليام أكبر من أيدان، وكلاهما يشجع يونائيتيد.

- لأن هذا أرخص. قالها إيان مكيفوي عندما كانا غير موجودين ذات مرة.

قال أيدان: المباراة على وشك البدء.

أنا وأيدان وإيان مكيفوي وسندباد، في مواجهة كيفين وليام وإدوارد سوانويك وجيمس أوكيف. نبدأ ونحن متقدمون بهدفين لأن سندباد معنا في الفريق، فهو أصغر من الجميع. الفريق الذي يتضمن سندباد يفوز عادة. حسبنا أن ذلك بسبب الهدفين اللذين يبدأ بهما كأفضلية، لكن هذا غير حقيقي (النتيجة في إحدى المباريات كانت 73 - 67)، بل كان السبب أن سندباد لاعبٌ جيدٌ، لكن أحدًا منا لم يلاحظ ذلك. اعتبرناه حملًا ثقيلًا مضطرين إلى تقبُّل وجوده لأنه أخي الصغير. كان مراوغًا جامدًا. لم أعرف هذا إلا بعدما قاله لي مستر أوكيف، بابا جيمس أوكيف.

قال مستر أوكيف: لديه القدرة على التوازن مثل لاعب كرة القدم.

نظرت إلى سندباد. إنه ليس إلا أخي الصغير، أكرهه. إنه لا يمسخ أنفه قط، ويبيكي، ويبلل سريره، ويفلت من العقاب عندما لا يتناول عشاءه، ويرتدي نظارة إحدى عدستها سوداء. إنه يجري ليحصل على الكرة، لا أحد غيره يفعل ذلك، ينتظر الجميع أن تأتي الكرة إليهم، لكنه ينطلق ولا يأبه. إنه جامد، لم يكن أنانيًا مثل أغلب الماهرين في المراوغة. النظر إليه يجعلني أشعر بشعورٍ غريبٍ. إنه رائع، أريد قتله. لا يمكنك أن تكون فخورًا بأخيك الأصغر.

كنا (2 - 0) قبل أن نبدأ.

- كابتن كل فريق يصافح نظيره.

صافحت كيفين، اعتصرنا يدي بعضنا بقوة. نحن أيرلندا الشمالية، وفريق كيفين أسكوتلندا. بوبي تشارلتون يلعب لصالح أيرلندا الشمالية لأنه يقضي عطلته هناك.

- ركلة البداية مع أسكوتلندا.

المباريات كانت سريعة. لا تشبه أبدًا تلك التي تُلعب على العشب، الطريق لم يكن عريضًا، كنا مكتظين في رقعة ضيقة. البوابتان مغلقتان، لو أصابت الكرة البوابة المغلقة تحتسب هدفًا. حارسا المرمى يحرزان أغلب الأهداف. حاولنا تغيير القواعد لكنَّ حارسي المرمى اعترضوا، لن يقفوا في المرمى لو لم يُسمح لهما بإحراز الأهداف. اللاعبون الأقل شطارة يقفون في حراسة المرمى. ذات مرة، جيمس أوكيف، أسوأنا، ركل الكرة من المرمى، أحرزت الكرة هدفًا لكنها ارتدت عن البوابة عبر الطريق ودخلت في المرمى الآخر، مرماه. لقد أحرز هدفًا وهدفًا عكسيًا بركلة واحدة.

قال المعلق: إيه ده إيه ده إيه ده! مش ممكن مش ممكن.
أسكوتلندا بدأت.

- دينيس لو يمرر إلى إيدي جراي...

وضعت قدمي، خبطت الكرة في البوابة.

- فعلتها!

قال المعلق: مش ممكن مش ممكن، جول لصالح بست، واحد صفر لأيرلندا الشمالية.

ذكرته: لا تنس هدفي سندباد.

- ثلاثة صفر لأيرلندا الشمالية، يا لها من بداية قوية، ماذا

ستفعل أسكوتلندا الآن؟

أحرزت أسكوتلندا ثلاثة أهداف.

الكرة تترد من إحدى ناحيتي الطريق إلى الأخرى، تجعلك تدوخ. كانت غير منفوخة كفاية، تؤلم قدمك.

قال المعلق: لا أذكر أنني رأيت مباراة حماسية بهذه الطريقة من قبل، مش ممكن مش ممكن.

قالها بعدما أحرز هدفًا لتوه.

يهدأ الإيقاع بعد فترة دوّمًا، لو أن ذلك لا يحدث ما كنا لعبنا من الأساس، سيكون هذا غباءً، قدمك تؤمك من ركل كرة غير منفوخة كفاية .

- 17 - 16 لصالح أيرلندا الشمالية.

- بل 17 - 17.

- ليست كذلك، لقد كنت أحصي.

سأل كيفين إدوارد سوانويك: ما النتيجة؟

- 17 - 17.

قال كيفين: رأيت؟

قلت: إنه في فريقك، سيردد أي شيء تقوله.

قال: وهذا في فريقك.

وأشار إلى المعلق.

- أخشى أن الحكم يجب أن يتدخل لحسم الصراع.

- أغلقِ فاهك.

- يجب أن أتكلم، هذا دوري.

- اخرس يا ابن السكير.

يحدث هذا كل مرة.

قلت: - طيب، 17 - 17، سنفوز في جميع الأحوال.

- سنرى.

دار كيفين ليواجه فريقه.

- هيا، هيا، اصحوا.

ليام وأيدان لا يفعلان شيئاً أبداً عندما نذكر أباهما بالسوء.

هدأت المباراة. لم يعلق أيدان لبعض الوقت. بدأ الظلام يهدأ. انتهت المباراة وقت تناول الشاي. لو تأخر جيمس أوكيف عن موعد الشاي تعطي أمه طعامه للقطعة، هذا ما صاحت به ذات يوم بعدما اختبأ خلف السياج عندما نادته.

- جيمس أوكيف، سأعطي نصيبك من أصابع السمك للقطعة⁽¹⁾.

ذهب. قال لاحقاً إنه اختبأ لأنه حسب أنهم سيتناولون اللحم المفروم واللفت، لا أصابع السمك. لكنه يكذب دائماً، إنه أكبر كذاب في باريتاون.

27 - 23، نحن نفوز مرة أخرى.

قال أيدان: مش ممكن، روجر هانت أصبح كابوس دفاع أسكوتلندا.

روجر هانت هو سندباد. لا يستطيعون التعامل معه. السبب أنه ضئيل، وأنه قادر على إخفاء الكرة خلفه. كيفين ماهر في التزحلق على الخصم، لكننا نلعب على طريق أسمنتي، لذا سندباد في أمان. أسهل عليك أن تعرقل شخصاً في مثل حجمك. بالإضافة إلى أن سندباد لم يحرز الأهداف بنفسه، كان يمرر الكرة إلى آخر يجيد التصويب، أنا في أغلب الأوقات، لذا كانوا يراقبونني بدلاً منه لأنني من يحرز الأهداف. أحرزت 21 من أهدافنا، سبع هاتريكات.

(1) وقت تناول الشاي Tea Time لا يعني بالضرورة شرب الشاي فقط، بل يتضمن كذلك تناول وجبة خفيفة. [المترجم]

- لماذا تسمى هات-ترك؟

- لأنهم يعطونك قبعة لو أنك أحرزت واحدًا⁽¹⁾.

لو أنك لعبت لصالح أيرلندا يعطونك كاب. كان يشبه كاب المدرسة أو كاب الكشافة، عليه شعار. كابات إنجلترا عليها شيء يتدلى منها، مثل الشريط الذي يحيط بروب بابا. لو حصلت على واحد لا ترتديه أبدًا، بل عليك أن تضعه في إحدى تلك نوافذ العرض الزجاجية مع ميدالياتك ليراها الناس عندما يأتون إلى بيتك. عندما كنت مريضًا سُمح لي بارتداء روب بابا.

مستر أوكيف اخترع باريتاون يوناييتد. نحب مستر أوكيف، اسمه الأول كان تومي، سمح لنا بمناداته به. كان هذا غريبًا في البداية، جيمس أوكيف لم يناده بتومي ولم نفعل نحن كذلك عندما تكون مسز أوكيف موجودة، لكن هذا ليس لأن تومي طلب منّا ألا نفعل، بل نحن فقط لم نفعل. جيمس أوكيف لم يعرف ما هو اسم أمه الأول.

- أجنس.

هذا اسم أم إيان مكيفوي.

قال ليام: جيرتي.

هذا كان اسم أمه هو وأيدان.

- هل هو مكتوب على قبرها؟

(1) هاتريك Hat-trick: الترجمة الحرفية هي (خدعة القبعة)، والمصطلح بحسب جمهور كرة القدم هو أن يُحرز لاعب واحد ثلاثة أهداف في مباراة واحدة، وأصل التعبير يعود للقرن التاسع عشر، عندما أحرز لاعب الكريكيت إتش. إتش. ستيفنسون H.H. Stephenson ثلاثة أهداف في مباراة واحدة، فأهدى له الجمهور قبعة احتفاءً به، ثم انتشر بعدها بين جمهور العديد من الرياضات حتى صار بمعناه الحالي. [المترجم]

- نعم.

الدور على جيمس مكيفوي.

- لا أعرف.

لم أصدقَه، ثم صدقته. حسبته اسمًا لا يريد قوله كي لا نضحك عليه، لكننا نضحك على كل الأسماء، إلا جيرتي. عذبناه، أعطيناه حرقه صينية في كلتا ذراعيه في الوقت ذاته، وظل مع ذلك لا يعرف اسم أمه.

تركانه لأنه أخذ يسعل. قال كيفين: فلتعرف إذن.

- كيف؟

قال كيفين: فلتجد طريقة، هذه مهمتك.

بدا جيمس أوكيف هلغًا.

قلت: اسألها.

قال كيفين: لا تسهلها عليه... ثم قال لجيمس أوكيف: عليك أن تعرف قبل العشاء.

ثم نسينا الأمر برمته بعد ذلك.

مسز أوكيف لم تكن سيئة لهذه الدرجة.

- جورج بست يضرب ألان جلزين بالمرفق في وجهه.

قلت: لم ألمسه.

ركلت الكرة بعيدًا لأوقف المباراة.

ركض تجاهي.

- لم ألمسه.

لم يكن إلا إدوارد سوانويك. كان يمسك أنفه كي لا نرى أنه لا ينزف. عيناه كانتا مبتلتين.

قال إيان مكيفوي: انظروا، إنه يبكي.

لم أكن لأفعل ذلك لو كان أي شخص غيره مكانه، يعرفون كلهم ذلك، لم يهتموا، لم يكن إلا إدوارد سوانويك.

قال المعلق: مش معقول، ألان جليز ينمّل فيلم سينما من خبطة صغيرة!

المضحك أن أيدان ليس مضحكًا بهذا الشكل أبدًا عندما لا يُعلق، عندما لا يكون شيئًا غير نفسه. 42 - 38 لصالح أيرلندا الشمالية، رقبة كيفين صارت حمراء، سيخسر. هذا عظيم. الظلام يحل، مسز أوكيف هي صافرة نهاية المباراة، ستنتقل في أي لحظة الآن.

- باريتاون يونائيتيد.

- باريتاون روفرز.

كثًا نفكر في الاسم المناسب.

- باريتاون سلتيك.

- باريتاون يونائيتيد أفضل.

هذا ما قلته، لا بديل عن يونائيتيد. كنا نجلس في حديقة آل أوكيف الخلفية، مستر أوكيف يجلس على قالب طوب ويدخن سيجارة.

قال ليام: باريتاون فورست.

مستر أوكيف ضحك، لكن لم يشاركه أينا الضحك.

- يونائيتيد.

- مستحيل.

قال إيان مكيفوي: لنصوّت على الاسم.

دعك مستر أوكيف يديه.

قال: هذا حل مناسب.

- سنختار يونائيتيد.

- لا، لن نفعل.

قال مستر أوكيف: شششش، اسكتوا الآن. طيب، فليرفع كل من يريد باريتاون فورست يده.

رفع ليام يده قليلاً، ثم أعادها، لا أياد مرفوعة، هللنا.

- باريتاون روفرز؟

لم يرفع أحد يده.

- باريتاون يونائيتيد.

رفع مشجعو مانشستر يونائيتيد وليدز يونائيتيد أياديهم، لم يتبق أحد، إلا سندباد.

قال مستر أوكيف: هو إذن باريتاون يونائيتيد، بالأغلبية العظمى.
ثم سأل سندباد: ماذا كنت تريد؟

قال سندباد: ليفربول.

جامد جداً أن نكون في فريق اسمه يونائيتيد، جامد لدرجة أننا لم نهتم بإجبار سندباد على قولها.

- يوو ناااي تيبيد... يوو ناااي تيبيد!

أفرد ذراعِي بشدة حتى تؤلماني، ثم أَلَف. أشعر بالهواء يقاوم حركة ذراعِي، يحاول كبح دورانهما السريع، كأني أجرهما في مياه. أتابع اللف، بأعين مفتوحة، بخطوات صغيرة دائرية، يقطع كاحلاي

العشب، يعصرانه. بسرعة، بسرعة، البيت، المطبخ، السياج، الحديقة الخلفية، السياج الآخر، شجرة التفاح، البيت، المطبخ، السياج، الحديقة الخلفية. أنتظر أن تقف قدمي، لا أحذر نفسي أبدًا، أفعلا فجأة... السياج الآخر، شجرة التفاح، البيت، المطبخ، السياج، أقف... أنا على الأرض، على ظهري، أتعرق، أشهق، العالم كله يدور، والسماء تدور، أشعر بالغثيان. مبتل من العرق، أشعر بالبرد والدفء معًا، أتجشأ. عليّ أن أظل متمددًا هنا حتى أهدأ. العالم يدور ويدور. لا أعرف لماذا فعلت ذلك، كان فظيعةً، ربما ذاك هو السبب. اللف كان عظيمًا، التوقف وما بعده هو الجزء السيئ. لكنه يجب أن يحدث، فلا يمكنني أن ألف إلى الأبد. أتعافى وأنا ما زلت ملتصقًا بالأرض، أستطيع الشعور بالعالم يدور. الجاذبية تلصقني في الأرض، تحتضني. العالم كروي وأيرلندا ملتصقة بجانبه، عرفت ذلك عندما كنت أدور، أكاد أقع من حافة العالم، أسوأ شيء هو أن لا شيء في السماء تلمسك به، فقط زرقة تامة.

لم يصبني الغثيان إلى حد التقيؤ قط سوى مرة واحدة.

إن فعل الأشياء مباشرة بعد تناول العشاء أمرٌ خطيرٌ. قد تغرق لو كنت تسبح. دخلت في المياه حتى سرة بطني لأرى إن كان سيحدث شيء، لم أنو الخوض أكثر، لكن شيئًا لم يحدث، المياه هي نفسها، والسحب إلى الأعماق لم يكن أقوى. لكن هذا لا يعني الكثير بالضرورة، فالوقوف في الماء ليس الشيء نفسه كالسباحة فيها. أنت لا تعوم حتى لا تعود قدماك تلمس الرمل على الأقل لخمس ثوانٍ، هذه هي السباحة، هكذا ستغرق لو سبحت بعد العشاء، إذ إن بطنك تكون ممتلئة وثقيلة، وذراعاك ورجلاك لا تتحمل أن تصعد وتهبط. تلمع المياه، وتملأ رثيتك. اللف كان الشيء نفسه، عدا أنك لا تموت، إلا لو كنت ممددًا على ظهرك عندما تتقيأ ولم تنقلب على جانبك لأنك نائم، أو أنك خبطت رأسك وفقدت الوعي وفمك ممتلئ بالقيء. عندها

تختنق، إلا لو رآك أحدهم وأنقذك، قلبك على جانبك أو خبط على ظهرك كي يوسع مكانًا في حلقك ليمر عبره الهواء، فتشهوq وتسعل، ثم يعطونك قبلة الحياة على سبيل الاحتياط. شفاههم ستلمس شفتيك المغطاة أصلًا بالقيء، عندها قد يتقيأون هم أنفسهم من القرف. ربما يكون من يفعل ذلك رجلًا، رجلًا يقبطني... أو امرأة.

التقبيل شيء غبي. لا بأس بأن تقبّل مامتك وأنت ذاهب إلى المدرسة أو ما شابه، لكن أن تُقبّل إحداهن لأنك معجب بها -وتظنها جميلة- شيء غبي جدًّا، لا معنى له، مثل الرجل فوق المرأة وهما على الأرض أو على السرير.

تسللنا إلى غرفة نوم بابا وماما كيفين ونظرنا إلى سريهما وضحكنا. كيفين دفعني إلى السرير، ولم يتركني أذهب، وقف على رأس الفراش ليمنعني من الذهاب.

عندما شعرت بالغثيان من الدوران لم أفقد الوعي أو ما شابه، أنا فقط عرفت أنني سأتقيأ عندما أستلقي على العشب بعد أن أتوقف (العشب دافئ ويابس)، لذا أحاول أن أنهض، لكنني أقع على ركة واحدة، ثم جاء التقيؤ، ليس استفراغًا حقيقيًا، بل طعامًا من الذي على قمة الركام في معدتي. ماما تقول إن عليك أن تمضغ الطعام جيدًا قبل بلعه، لا أفعل هذا أبدًا، هذا ملل وتضييع وقت. أحيانًا يؤلمني حلقي عندما أبتلع شيئًا كبيرًا، أعرف أن هذا سيوجع أكثر لكن فات أوان التراجع، لقد نزل أكثر من اللازم ولم يعد هناك ما يمكن فعله. بطاطس مسلوقة، قطع كبيرة من اللحم المقدد عليه بعض الدهن، وكرنب، ومخفوق الفراولة بالحليب، هذا ما تقيأته، أستطيع تسمية كل عنصر فيه. شعرت بعدها أنني أفضل، أقوى. نهضت. كنت في الحديقة الخلفية. رقصت رأسي قليلًا -البيت، المطبخ- ثم سكنت. نظرت إلى ملابسني، لم تتسخ، وكذلك حذائي وساقاي. كل ما تقيأته كان

على الأرض، مثل حساء منسكب من طبق. هل عليّ أن أنظفه؟ لم يكن ذلك على أرض بلاط أو ممشي، بل في الحديقة، ليس في حقل أو في حديقة شخص لا نعرفه. لم أكن متأكدًا مما عليّ فعله. مشيت إلى باب المطبخ، استدرت ونظرت إليه، هل أراه من مكاني؟ لم أستطع تحديد إن كنت أراه أم لا، كنت أنظر إلى مكانه لأنني أعلم أنه هناك، أستطيع رؤيته، لكنني أعلم بالفعل أنه هناك. ذهبت إلى المقدمة وعبثت قليلًا بترتيب الزهور، ثم عدت إلى المطبخ مرة أخرى ونظرت، ولم أتمكن من تمييز أي شيء. تركته في مكانه، وصرت أنظر إليه كل يوم. كل يوم يتغير لون آثار تقيؤي إلى الأغمق أكثر. ألقىت قطعة اللحم المقدد إلى الحديقة الملاصقة لنا، حديقة آل كوريجان. أوقعتها من فوق السور برفق كي لا يرون شيئًا ما يطير في الهواء لو كانوا ينظرون إلى أعلى. انتظرت أن أسمع صوت صراخ، لم يحدث. غسلت يديّ، بقية آثار التقيؤ اختفت، تحوّلت إلى اللزوجة وباتت واضحة بعد المطر، ثم ذهبت تمامًا، استغرق ذلك نحو أسبوعين.

- هل هو الصباح لكن لم يحن وقت الاستيقاظ؟

- نعم.

- عودا إلى النوم يا أولاد.

الطاولة لا تزال متسخة. الأطباق لا تزال عليها بقايا عشاء الليلة السابقة، وضعت ماما صحن حبوب الإفطار فوق طبقٍ متسخٍ.

لم أحب هذا، يجب أن تكون الطاولة نظيفة في الصباح، لا شيء عليها عدا الملح والفلفل في المنتصف وزجاجة الكاتشب بلا كثيرٍ من الكاتشب الجاف على غطائها -أكره هذا- ومناشف المائدة، بالإضافة إلى ملعقة عند ناحيتي وناحية سندباد، هكذا كان الحال على الدوام.

أكلت من دون أن أدع جسدي يلمس المائدة، بدّلت ملعقتي بملعقة سندباد، كان في الحمام، هو على الأرجح يبلل أرض الحمام مرة أخرى.

إنه يخاف دومًا من أن تقع عليه قاعدة المرحاض، إنها بلاستيكية وليست ثقيلة، لكنها مع ذلك ترعبه. أنا أكبر وأطول منه بكثير، أستطيع الاقتراب والتصويب في المنتصف دون أن أرفع قاعدة المرحاض. لا أبلل المكان كثيرًا ودائمًا ما أجفف ورائي. الأمراض تتكاثر دومًا في المرحاض، لو دخل بيتك فأر، فسيذهب من فوره إلى المرحاض. ماما تدندن.

هذا غباء، أقصد عدم غسل الصحون بالأمس، كان الطعام لا يزال طريًا حينها ويسهل غسله، يزول بالمياه، لكن الآن عليها أن تدعكه بقوة، ستشقى وتتعب، وسيختلط عرقها بدمها ودموعها، تستحق ذلك، هي من جلبت ذلك على نفسها، كان عليها أن تغسلهم في الليلة المنقضية، كان هذا هو الوقت المناسب لغسلهم.

الصباح هو بداية يوم جديد، يجب أن يكون كل شيء نظيفًا ومرتبًا. كنت في الماضي أحتاج إلى كرسي أقف عليه كي أصل إلى الحوض (أذكر الضجة التي كان يحدثها المقعد عندما أدفعه أمامي ويقع)، الآن لا أحتاج إلى الكرسي، بل لا أحتاج حتى إلى أن أقف على أطراف أصابعي كي أطول الصنبور. لو كان الحوض ممتلئًا أكثر من اللازم تبتل كنزتي عندما أنحني عليه. عندما ترتدي الكنزات لا تدرك أنها ابتلت إلا بعد بعض الوقت، إلا لو دلقت على نفسك ماءً كثيرًا جدًا. لم أعد ألعب في الحوض، هذا غباء، سيراك الجيران من النافذة، وليس في وسعك غلق الستائر في أثناء النهار. عليّ أن أغسل الصحون أيام الثلاثاء والخميس والسبت. عندما جعلت ماما ترى أنني صرت طويلًا كفاية لبلوغ الصنبور، قالت لي أن أغسل الصحون في هذه الأيام الثلاثة. أحيانًا ما تعفيني، وأحيانًا أفعلها من دون أن تسألني. أنا أغسل وسندباد يجفف، لكن لا فائدة تُرجى منه. كان بطيئًا في كل شيء، يستغرق سنين طويلة كي يمك الطبق وهو يحمل منشفة الشاي في نفس الوقت.

لا يثق باستخدام يديه عبر القماش. الجزء الوحيد الذي يحبه كان الأكواب، لأنها لا تقع بسهولة. يغطي قبضته المغلقة بالمنشفة ويضع الكوب بالمقلوب على قبضته، ثم يقلب المنشفة على الكوب كله. أتأكد من أنه مسح أيضًا الرغوة في قاع الأكواب، لا يجب أن نشرب الرغوة، طعمها مثل السم.

لكنه لا يريد أن يدعني أرى.

- دعني أرى.

- لا.

- دعني أرى.

- لا.

- سأضربك.

- هذه مهمتي، ليس لك دخل.

- أنا المسؤول.

- من قال هذا؟

- ماما.

- لا أريد فعل هذا.

- سأخبرها أنك قلت هذا. أنا الكبير.

رفع لي الكوب كي أنظر داخله.

قلت: تمام، التالي.

يستسلم دومًا عندما أقول إنني الأكبر. يتأكد من استقرار الكوب على الطاولة قبل أن يتركه، ثم يقفز مبتعدًا ما أن يفعل، كي لا يُلقى باللوم عليه لو وقع. عندما يُسمح لي بفعل شيء ما ولا يُسمح له، كل

ما يحتاج بابا وماما إلى فعله هو تذكيره بأني أكبر منه، فيتوقف عن الشكوى. ينال أيضًا هدايا كريسماس أصغر حجمًا وأحيانًا أموالًا أقل في أيام الأحاد، لا يهمله هذا كثيرًا.

قلت له: أنا سعيد أني لست أنت.

رد: أنا سعيد أني لست أنت أيضًا.

لا أصدقه.

يرفع لي الكوب دون أن أسأله.

قلت: رغبة.

- أين؟

- هناك.

ثم نثرت الصابون على عينيه. ماما جاءت لما سمعته.

قلت لها: لم أقصد أن أصيب عينيه، هو من تركهما مفتوحتين.

جَعَلْتَهُ يتوقف عن البكاء، إنها ماهرة في ذلك، تستطيع جعله يتحول من البكاء إلى الضحك في ثوان قليلة.

إننا الآن في صباح الخميس، ليلة الأربعاء لم تكن دورنا في غسل الصحون، كان عليها أن تقوم بهم، سألتها.

- لماذا لم تغسلي الصحون؟

حدث لي شيء ما وأنا أقولها، شيء ما في صوتي، قفزة بين بداية الجملة ونهايتها، بسبب السبب، أدركت سبب عدم غسلها للصحون. ركبت المصعد من قبل، مرة صعودًا ومرة هبوطًا، أشعر الآن مثل من يهبط بالمصعد. كدت ألا أتم الجملة؛ انكشفت لي الإجابة وأنا ألقى بالسؤال.

أجابت: لم يكن عندي وقت.

لم تكذب، لكنها لم تكن الإجابة الصحيحة.

قالت: أنا آسفة.

كانت تبتسم لي، لكنها لم تكن ابتسامة حقيقية، لم تكن كاملة.

لقد تشاجرا مجددًا.

قلت: ستضطرين إلى العمل كثيرًا اليوم.

أحد شجاراتهما الهادئة.

ضحكتُ.

حيث تدوي الصرخات همسًا.

ضحكتُ لي.

وهي التي تبكي أولاً كل مرة ويتابع هو طعنها بتعبيرات وجهه
وكلماته.

قالت: أعرف ذلك.

أول تلك الشجارات لم تكن هكذا، عندما بكت توقف، وصار
الوضع ألطف بعدها.

- ستشقين وتتعبين.

ضحكتُ مجددًا.

قالت: أنت مسخرة يا باتريك.

كان هذا أفضل، إذ لا نضطر إلى الزحف أو التظاهر بأننا لا نسمع.
سندباد لا يجيد التظاهر، يحتاج إلى أن ينظر وينصت، كأنها أشياء
تُعرض على تليفزيون. عليّ أن أشرح له كل شيء.

- ما الذي يحدث؟

- إنهما يتشاجران.

- إنهما لا يتشاجران.

- بل يفعلان.

- لماذا؟

- لا أعرف.

ثم بعد ذلك، بعد انتهاء كل شيء، يقول سندباد كل مرة إن شيئاً لم يحدث، إنه لا يتذكر.

قلت لها: سيختلط عرقك بالدم والدموع.

ضحكت مجددًا، لكن ليس بلطف الضحكة السابقة.

انتهى أول شجار بفوز بابا لأن ماما بكت، جعلها تبكي. عاد الوضع إلى العادي لكن أطف، لأن الشجار انتهى، لا مزيد من الشجارات. رتبْتُ الصحون في كومة، ووضعتُ على أعلاهم الشوك والسكاكين، كلها تشير إلى نفس الاتجاه. لكن الشجارات الآن لا تنتهي، تحدث استراحات، أحيانًا تدوم طويلًا، لكنني لا أصدقها، إنها ليست إلا استراحات مؤقتة. دفعْتُ الأطباق ببطء حافة الطاولة، حتى صار طرف الطبق في أسفل الكومة والطبق على قممها خارج حافة الطاولة. تساءلت إن كان عقلي قويًا كفاية لإقناع يدي بدفع الأطباق أكثر من ذلك.

- يجب أن يضعوهما في فصل المتخلفين.

كيفين محق، نحن نكرههما. كنا في سبتمبر، أول أيام العودة إلى المدرسة. وجدنا أنهم وضعوا ولدين من بيوت الشركة في فصلنا، اسماهما تشارلز ليفي وشون ويلان. هينو كان يسجل اسميهما في سجل الحضور.

قلت: قل له.

قلتها همسًا.

قال كيفين: ماذا؟

- قل له إن هناك مكانًا لهما في فصل المتخلفين.

- حسنًا.

رفع كيفين يده، لم أصدق عيني، أنا كنت أمزح فقط، سنضرب لو قال كيفين ذلك، حاولت أن أشد ذراعه إلى الأسفل دون أن أحدث صوتًا.

هينو كان ينظر في سجل الحضور، ويكتب ببطء شديد. كيفين دق بأصابعه.

قال هينو: ⁽¹⁾Sea؟

قال كيفين: ⁽²⁾An bhfuil cead agam dul go dtí an leithreas؟

قال هينو: ⁽³⁾Níl.

همس كيفين: ضحكت عليك.

صرنا في الصف الرابع، وظل هينو معنا للمرة الثانية. كنت في العاشرة من عمري، أغلب من في الفصل في العاشرة، إيان مكيفوي لا يزال في التاسعة لكنه يقترب من بلوغ العاشرة، وهو الأطول قامه. تشارلز ليفي أصغر مني بشهرين، كان عليهما ذكر عمريهما كي يضيفها هينو إلى السجل، شون ويلان يكاد يكون في نفس عمري. توقف وهو يملي على هينو تاريخ ميلاده، كان يعرف اليوم والشهر، لكنه فكر قليلاً قبل أن يقول السنة.

(1) نعم؟

(2) هل أستطيع الذهاب إلى الحمام؟

(3) لا.

- متخلف.

جعله هينو يجلس بجوار ديفيد جيراتي، كاد أن يتعثر في عكازات ديفيد جيراتي. ضحكنا.

قال هينو: ما المضحك؟

لكنه كان مشغولاً فلم يأبه.

شون ويلان عرف أن الضحك عليه، بدا على وجهه الاضطراب لكنه حاول أن يشارك فيه، لكن فات الأوان.

قال: أرايتم ذلك الأخرق؟ وضحك على نفسه.

الدور على تشارلز ليفي، يحتاج هينو إلى أن يجد له مكاناً. وقف هينو.

- لنرى.

ولدان فقط يجلسان وحدهما، أحدهما ليام. لم يجلس أحد بجواره بعدما وضع يده على المكتب في الخلف بجوار النافذة، أفضل المقاعد. بدا سعيداً، لقد توقع أن أهجم عليه أنا أو كيفين، فجلس وحده، وكذا كان فلوك كاسيدي.

- حسناً يا مستر ليفي، لنرى أين ستجلس.

فلوك حاول أن يتسلل إلى مكتب ليام.

- ألزم مكانك يا مستر كاسيدي.

لا شك أنه بعد ذلك سيجعل تشارلز ليفي يجلس بجوار فلوك.

- إلى هناك.

وأشار هينو إلى مكتب ليام.

ضحكنا، وعرف هينو سبب ضحكنا.

- هددووووو!

هذا جامد، انتهى أمر ليام، لن نكلمه أنا وكيفين بعد الآن. كنت مبتهجًا، ولا أعرف سبب ذلك. أحب ليام، لكن هذا مهم، لو أنك صرت الصديق المقرب لأحدهم -كيفين- عليك أن تكره معه الكثير من الناس، تكرهانهم معًا، يجعلكم هذا أصدقاء أفضل. والآن ليام يجلس بجوار تشارلز ليفي، وصرت أنا وكيفين معًا، وحدنا، لا ثالث لنا.

ديفيد جيراتي هو الولد المصاب بشلل الأطفال، ذلك كان سبب عدم جلوس أحد بجواره. سيكون عليك حينها أن تساعد في حمل حقيبته، زائد أنه تفوح منه رائحة الدواء. اضطررت إلى الجلوس بجواره ذات أسبوع لما ارتفع مستوايا في الهجاء ونزل مستواه. كان جامدًا. جلست على حافة المكتب، خارجه تقريبًا، نصف مؤخرتي تتدلى في الهواء خارج المكتب. ثم بدأ ديفيد جيراتي يتكلم، لا يسكت أبدًا، ظل يثرثر طوال اليوم، بجانب فمه كأن الجانب الآخر مشلول. يصعب سماعه لكنه لا يهمس، بوسع هينو أن يسمعه، أنا متأكد من هذا، لكنه لا يفعل أي شيء حيال ذلك، على الأرجح لأنه كان يمشي على عكازات، ولأنه كان أشطر من في الفصل بلا منازع.

- انظر إليه، يمكنك أن ترى الشعر في فتحتي أنفه، خمس شعرات في إحدهما وسبع في الأخرى.

ظل الوضع كذلك طوال اليوم. حينها أدركت أن ديفيد جيراتي لن يُعاقب على شيء أبدًا، وأني لن أعاقب أيضًا ما دمت أجلس بجواره، فجلست معتدلاً في المكتب وأخذت أستمتع.

- لديه سبع عشرة شعرة على مؤخرته. اقسام 17 على 3 تحصل على 5 ويتبقى معك 2. زوجته تمشط له هذا الشعر gach
(1).maidin

تركني أجرب عكازاته. ذراعاي ارتجفتا، لم أمكّن من إبقائهما مفرودتين لفترة طويلة. لم يكونا عكازين من المعدن، مثل تلك التي تحصل عليها لو كسرت رجلك، بل كانا من النوع القديم، من الخشب والجلد، مثل العكازين اللذين يمشي عليهما الولد في ملصقات التوعية ضد شلل الأطفال، غير قابلين للتعديل. ذراعا ديفيد جيراقي كانتا قويتين كالسيقان. تمنيت أحيانًا أن أجلس بجواره مرة أخرى، لكنني سعدت دومًا لعدم حدوث ذلك.

شون ويلان يرتدي نظارة. يحتفظ بها في حافظة سوداء يضعها أعلى المكتب فوق تجويف الأقلام، كلما اتجه هينو إلى السبورة يلتقط شون ويلان الحافظة، وعندما يكتب هينو على السبورة يأخذ شون نظارته ويرتديها، وكلما توقف هينو يخلعها ويضعها مكانها في الحافظة، ثم يرتديها عندما يعود هينو للكتابة. توقفت عن النظر إلى هينو لفترة تابعت خلالها شون ويلان، صرت أستطيع تحديد مكان هينو فقط بالنظر إلى يدي شون ويلان؛ تزحفان إلى الحافظة، تتوقفان، تتراجعان إلى جانبيه، ثم تتجهان إلى الحافظة مجددًا، تلتقط الحافظة، تفتحها وتخرج النظارة. ثم خلع النظارة ووضع يديه جانبًا. انتظرت منه أن يبدأ في الحركة مرة أخرى، هينو توقف عن الكلام، تابعت النظر إلى شون ويلان في انتظار إشارة. شون ويلان ظل يحدق مباشرة إلى مؤخرة رأس توماس برادشو أمامه، ثم نظر ببطء ناحيتي، وتلك كانت اللحظة التي صفعني فيها هينو على مؤخرة رأسي. شون ويلان قفز فزعًا، رأيته في ذات اللحظة التي انحنيت فيها وأغلقت عيني في انتظار المزيد.

- صح النوم يا مستر كلارك.

ضحك الفصل كله ثم توقفوا.

رفع هينو يده، مفتوحة على آخرها وقاسية، قوية كلوح خشبٍ. سأنتقم من شون ويلان، هذا حدث بسببه، سأخذ حافضة نظارته وأفعل بها شيئاً، ونظارته كذلك. شعره بني متجدد، ينمو منتصباً إلى أعلى، لكن أحدهم، على الأرجح مامته، تحاول جعله ينمو إلى الجانب، فيبدو كأن هناك نصف تلُّ على قمة رأسه. لن يصعب الانتقام منه، لن يقاوم، لا يبدو صعب المراس.

مثل تشارلز ليفي.

تشارلز ليفي يرتدي صندلاً بلاستيكيًا، صندلاً أزرق. نضحك عليه لكن بحذرٍ. لم يجلب معه شيئاً إلى المدرسة في أول يوم، عندما سأله هينو عن ذلك لم يرد، اكتفى بالنظر إلى أكمام ذراعه المفرودة على المكتب، لم يرتبك. هناك ما يشبه الثقوب في أحد مرفقي كنته، يمكنك أن ترى الكثير من قميصه عبرهم. شعره قصير للغاية، ومتساوي الطول في شتى أرجاء رأسه. من حين إلى حين يشد رقبتة ويطوح برأسه إلى الجانب، كأنه يضرب الكرة برأسه دون أن يأبه بالنظر إليها. عندما نظر، تجنبت النظر إليه، شعرت بالخوف.

- أخرجوا كتب الأيرلندية، *Leabhair Gaeilge*⁽¹⁾، صفحة... أي صفحة تقترح يا مستر جريمز؟

- صفحة واحد يا سيدي.

- صحيح.

- h-aon⁽²⁾ يا سيدي.

(1) كتب الأيرلندية.

(2) واحد.

- شكرًا مستر جريمز، (1) Sambo san Afraic، ها هو هناك على قاربه.

ضحكنا بهدوء على الطريقة التي قال بها قاربه. الصورة تحت اسم القصة كانت بالأحمر والأسود، على قمة صفحة بيضاء، صورة لفتى أسود عاري الجذع وقارب أحمر تحت أشجار سوداء، أشجار الغابة. نظرت عبر الفصل؛ ليام كان يشارك كتابه مع تشارلز ليفي، كان يضغط بيده على منتصف الكتاب المفتوح كي يظل مفتوحًا، تشارلز ليفي انتظر ليام أن ينتهي من ذلك ثم انحنى إلى الأمام كي يقرأ الكتاب، وفي الناحية الأخرى، شون ويلان كان معه كتابه الخاص المغلف بورق الحائط، لم يرتد نظارته للقراءة.

خلال الاستراحة القصيرة، استراحة الساعة الحادية عشرة، بينما نصطف للعودة إلى الفصل، دفعت شون ويلان.

- احذر.

لم يفعل شون ويلان أي شيء أو ينطق بأي حرف، بدا كأنه عازمٌ على ألا ينظر ناحيتي، وهذا كان يكفيني، تدافعت كي أستطيع أن أكون بجوار كيفين.

قلت لكيفين: سأنال من ويلان.

قال كيفين: طبعًا طبعًا.

فوجئت من رد فعله، تضايقت.

قلت: سأفعل، سأفعل بالتأكيد.

دفعني.

(1) سامبو في إفريقيا.

تحتّم عليّ أن أنال من شون ويلان الآن. نظرت إليه في الخلف، كانت لديه تلك الطريقة التي ينظر بها إلى كل شيء إلا أنت، ينظر إلى الأمام لكن إلى اللا شيء.

إنه ميت.

وقع الشجار على حين غرة. كنت أنوي الانتظار حتى أجد عذرًا ملائمًا، لكن كيفين دفعني على شون ويلان، ذلك كان خارج البوابة، عبر الطريق عند الحقل المليء بالحفر. شون ويلان ضربني بمرفقه، أو أن مرفقه كان هناك بينما أنا أضربه وأرتطم بكوعه في الوقت ذاته، وهذا فاجأني أيضًا. طوّحتُ قبضتي بحثًا عن هدف، لم أجد الوقت الكافي للاستعداد، لتخطيط كيف ألكمه كما ينبغي لي، فات أوان ذلك الآن. نالت رأس شون ويلان من ذقني، أسناني اصطكت. أخذت خطوة إلى الخلف بعيدًا عن مدى ذراعيه، وركلته. شددت قدمي اليسرى إلى الخلف ثم أطلقتها في ركلة أخرى. حاول شون ويلان أن يتشبث بقدمي ويجذبني حتى أقع، لكنني استعدت قدمي منه ولم أقع. أخذ شون ويلان يتراجع، الأولاد خلفه تركوه يفعل، لأني سأركله مجددًا. ركضت تجاهه وركلت، ركلة قوية، فوق ركبته بقليل. ترنّح إلى الخلف كأن رجله تخونه، زمجر، لقد نلت منه. سأقوم الآن بشد شعره وضرب وجهه بركبتي. لم أفعل هذا من قبل. كدت أفعله بسندباد ذات مرة لكن شدّ شعره كان كافيًا، صرخ عاليًا فلم أتمكن من ضربه بركبتي، رفعتها فقط لكن دون أن أضربه، لكن شون ويلان ليس سندباد. شددت خصلة من شعره المقرف...

غمرني الألم بالكامل، أربكني لثوانٍ.

لقد رُكّلت، رُكّلت تحت فخذَي الأيسر وعلى أطراف أصابعي. شون ويلان كان أمامي، احتجت لوهلة كي...
تشارلز ليفي ركلني.

لم يعد هناك أي تهليل حولنا، بات الأمر جدّيًا. أردت الذهاب إلى الحمام. أصابعي تلسعني كأنها مغمورة في الثلج. تراجع شون ويلان إلى صفوف المتابعين، حاولت التظاهر بأني لا أزال أتشاجر معه.
ركلني تشارلز ليفي مجددًا في نفس المكان.

لم ينضم أحد إلى الشجار، لم ينبس أحدٌ ببنت شفة، لم يحرك أحد ساكنًا. أدرك الجميع أنهم على وشك رؤية قتال لم يروا مثيلاً له من قبل، دماء وأسنان مكسورة وملابس ممزقة وأشياء مهشمة... بلا قواعد.

لم يعد بوسعي التظاهر، تمنيت لو أني لم أركل شون ويلان، لا أستطيع رد الركلة لتشارلز ليفي، لا أستطيع فعل شيء، كان عليّ الالتزام بفعل اللا شيء، ذلك هو طريقي الوحيد.
ركلني مرة أخرى.

- كفوا عن هذا!

كان هذا أحد العمال، كان يقف مستندًا إلى حائط، كان يبني الحائط، جاء بعض العمال ركضًا عندما سمعوا الشجار ليروا ماذا يحدث.

قال العامل: لا ركلات، لا ركلات في القتال السليم.

كانت بطنه ضخمة، تذكرته، لقد ألقينا عليه النعوت وجرى وراءنا ذات مرة في الصيف.

قال مجددًا: لا ركلات.

كيفين الآن بعيدًا، بعيدًا عنه وعني.

- خليك في حالك يا تخين.

ثم ركضنا جميعاً. هذا جامد. كنت على وشك البكاء. أستطيع سماع كتبي ودفاتري ترتج في حقيبتى المدرسية، صوت جلبة أشبه بصوت خبب الحصان. لقد هربت. توقفنا عندما بلغنا الشارع الجديد.

لم ينضم إليّ أحدٌ عندما كان تشارلز ليفي على وشك قتلي، استغرقت بعض الوقت لأستوعب ذلك، لأجد له معنى. كل ذلك الصمت، والانتظار، الكل كان يراقب، كيفين كان يقف بجوار شون ويلان، يراقب.

هناك حقيبة سفر بنية ضخمة تحت سرير بابا وماما، تبدو جلدية لكنها تصدر صوتًا كالخشب، على سطحها تجاعيد. عندما دعكتها بشدة تركت على يدي بقعة بنية، ليس فيها شيء. دخلها سندباد، وتمدد فيها كأنه في السرير، وأغلقتها عليه.

- كيف تشعر؟

- لطيف.

أغلقت الإيزيم في إحدى الناحيتين، وصدرت عنه تكة عالية. انتظرت أن يفعل سندباد شيئاً. أغلقت الإيزيم الآخر أيضاً.

- كيف تشعر الآن؟

- لا يزال لطيفاً.

قمت، دققت قدمي على الأرض، دب دب دب على المشمع، وذهبت إلى الباب وطوحتة كي يصدر صوت الحفيف، وأغلقتة بصوت لكن دون أن أصفعه، يغطاظ بابا عندما نصفع الأبواب. انتظرت، أردت سماع سندباد يركل ويبيكي ويحك الحقيبة من الداخل، عندها سأتركه يخرج.

انتظرت.

أخذت أغني وأنا أنزل السلم.

- يا بني خليك في العزوبية

عيشة مريحة ومرضية

تسللت عائداً، تفاديت الدرجات التي تصدر صريراً، فتحت الباب برفقٍ، لكنني فجأة قفزت على قدميَّ ومرقت عبر الباب، غمرني الرعب.

- سندباد؟

شددت بقوة طرف الإبريم ليطلق سراح المشبك، انفتح بعنفٍ وأوجع يدي.

- فرانسيس؟

الإبريم الآخر لا يريد أن يفتح، علق بقوة. أخذت أحاول فتح الحقيبة عنوة فلم تنفتح إلا نذرًا يسيرًا، لم أستطع رؤية شيء غيرها، أدخلت فيها إصبعين، لكنني لم أشعر بشيء وخذشت سطح يدي. حافظت على أصابعي بالداخل كي تبقى تلك الفتحة الصغيرة ويدخل منها الهواء، لكنني شعرت بما يشبه الأسنان، أو أظن أنني فعلت.

سمعت صوت أنين، أنا كنت مصدره.

أغلقت الباب خلفي، كي لا يستطيع أن يتبعني شيء. تمسكت بالدرازين وأنا أنزل الدرج. الردهة كانت مظلمة، بابا في غرفة المعيشة لكن التلفزيون مُطفئ.

أخبرته.

نهض واقفاً. لم يقل شيئاً. لم أقل له أنني أوصدت الحقيبة عليه، بل قلت إنني لم أستطع فتح الإبريم فقط. عندما بلغ الردهة، وقف وانتظرنِي.

قال لي: قُد الطريق.

تبعني على السلم. يستطيع أن يسبقني بسرعة وسهولة لكنه لم يفعل. سيكون سندباد بخير.

- هل أنت بخير بالداخل يا فرانسيس؟

قلت: ربما يكون نائمًا.

فكُّ بابا الإيزيم فانفتح معه، رفع غطاء الحقيبة، وكان سندباد هناك، مستيقظًا تمامًا، عيناه مفتوحتان على أقصى اتساع. انقلب على بطنه ثم دفع الأرض ونهض واقفًا، وخطا خارجها. لم يقل شيئًا، فقط وقف في مكانه. لم ينظر إلينا ولا إلى أي شيء.

بابا يعتقد أنه جامد لأنه يستطيع أن يجلس في نفس الغرفة التي فيها التلفزيون يعمل لكنه لا ينظر إليه أبدًا، لا ينظر إلا إلى الأخبار، هذا كل شيء. يقرأ الجريدة أو كتابًا أو ينعس. أراقب السيجارة تحترق بين أصابعه، لكنه يستيقظ دومًا في الوقت المناسب. لديه مقعدٌ خاص به، علينا أن نقوم منه ما أن يعود من الشغل. يكفيننا هذا المقعد أنا وسندباد وماما والبنتين في حضنها معًا. كان المطر ذات يوم ينهمر بجنون، جلسنا جميعًا في المقعد لدهور، لا نفعل شيئًا سوى الإنصات لصوت المطر. حلَّ الظلام على الغرفة. كانت هناك رائحة جميلة، رائحة ماما والطعام والصابون.

عندما ناديت سندباد باسم سندباد لم يرد. أنا وكيفين قبضنا عليه وأعطيناه رجلًا ميتة في كلا رجليه لأنه لا يفعل ما نمليه عليه. أخذ يبكي لكن دون أن يصدر أي صوت. احتجت إلى النظر إلى وجهه مباشرة كي أعرف أنه يبكي.

- سندباد.

أغلق عينيه.

اضطرت إلى التوقف عن مناداته بسندباد. لم يعد يشبه سندباد البحار الآن، لم يعد منفوخ الوجنتين مثله. ما زلت أضخم منه لكن هذا لا يفرق كثيرًا. أستطيع قتله في الشجارات، لكن طريقته في تقبُّل ذلك تخيفني؛ يتركني أضربه دون أن يفعل شيئًا ويذهب بعدها ببساطة.

لم يعد يريد الإضاءة الليلية. عندما أضاءت ماما المصباح الليلي بعد أن أطفأت الرئيسي، نهض هو وأطفالها. الإضاءة الليلية كانت لأجله، كانت على شكل أرنب يضيء بالأحمر عندما يُضاء المصباح الذي بداخله. باتت الغرفة معتمة تمامًا الآن، أردت إعادة فتح الإضاءة الليلية لكنني لم أقدر، إنها تخص سندباد. أنا لم أحتج إليها قط. قلت إنها غبية، لا فائدة منها، وقلت إنني لا أستطيع النوم بسببها. لمدة أسبوع تضيء ماما الإضاءة الليلية وسندباد يطفئها بعدها. هو يطفئها وأنا أعلق في الظلام.

أحكم بابا الإمساك بسندباد. قبض على إحدى ذراعيه ووقف فوقه. لم يكن قد ضربه بعد. رأس سندباد محنية، لم يكن يحاول التملص أو أي شيء.

قال بابا: يا ربي العظيم!

سندباد وضع السكر في خزان بنزين مستر هانيلي.

- لماذا تفعل مثل هذه الأشياء؟ لماذا تفعل ذلك؟

أجابه سندباد.

- الشيطان وسوس لي.

رأيت قبضة بابا تنفك من على ذراع سندباد، وأحاط بوجهه.

- توقف عن البكاء، هيا، لا داعي للدموع.

أخذت أغني.

- سأعود إلى البيت وأشكي لأمي

الأولاد لا يتركون البنات في حالها

شاركني بابا الغناء. حمل سندباد ولفّ به، ثم حان دوري.

أول مرة سمعت فيها الصوت عرفت طبيعته، أعرف ذلك الصوت. جاء من المطبخ. كنت في الصالة وحدي، ممدًا على بطني، أطلق سيارتي الرولز رويس على أسفل الحائط. كان هناك بقعة يتقشر فيها الطلاء، تتسع في كل مرة تخبط فيها الرولز رويس، وتحدث صوت ارتطام جامد. بابا وماما كانا يتكلمان.

ثم سمعت الضربة. توقف الحديث. أخذت سيارتي بعيدًا عن الحائط. انفتح باب المطبخ بعنفٍ ومرقت منه ماما، انعطفت بسرعة إلى السلم لذا لم أضطر إلى أن أبتعد عن طريقها، وذهبت إلى الطابق العلوي في خطوات سريعة.

أفهم الآن، أعرف ماذا كانت تلك الخبطة. انغلق باب غرفة النوم.

بابا كان وحده في المطبخ، لم يخرج. ديردري كانت تبكي في مهدها، لقد استيقظت. انفتح الباب الخلفي وانغلق. سمعت خطوات بابا في الممشى، سمعته يمشي ويدور من خلف البيت إلى الأمام، رأيت هيئته الخارجية عبر زجاج الباب الأمامي، تفتت هيئته إلى ألوان مختلفة، ثم اختفت هذه الألوان بعدما خرج من البوابة. لم أستطع تمييز الاتجاه الذي ذهب فيه. ظللتُ في مكاني. ماما ستنزل في أي لحظة، ديردري تبكي.

لقد ضربها، على وجهها؛ لقد صفعها. حاولت تخيل المشهد، لكن لم أستطع، لا معنى له. لقد سمعته، لقد ضربها. وهي خرجت من المطبخ وصعدت فوراً إلى غرفة النوم.
على وجهها.

*

راقبت. أنصتُ. بقيت. حرستها.
لم يحدث شيء.

لم أعرف ماذا يفترض بي أن أفعل. كل ما أعرفه أنني ما دمت موجوداً فهو لن يكررها. ظللت مستيقظاً، منصتاً. ذهبت إلى الحمام ورششت الماء البارد على وجهي وعلى بيجامتي، لأظل مستيقظاً، لأطرد النعاس والدفء الذي يستدعيه. تركت الباب مفتوحاً قليلاً، أخذت أنصت، لم يحدث شيء. ظللت دهوراً أحل واجبي كي أظل مستيقظاً لفترة أطول. كتبت صفحات من كتاب اللغة الإنجليزية وتظاهرت بأني مضطر إلى فعل ذلك، تعلّمت هجاء كلمات لم تُعط لنا بعد، وجعلتها تمّحنني فيها، هي فقط، هو لا.

- إس. يو. بي. إم. إيه. أر. أي. إن. إي⁽¹⁾.
- شطور. سابستاندارد⁽²⁾؟
- إس. يو. بي. إس. تي. إيه. إن. دي. أر. دي.
- شطور، هل لا يزال أمامك المزيد؟
- نعم.

(1) Submarine = غواصة. [المترجم]

(2) Substandard = دون المستوى. [المترجم]

- ماذا؟ أرني؟

- كتابة صفحات.

عرضت عليها صفحات في الكتاب، منهم صفحتان بلا صور فيهم على الإطلاق، وصفحات كتبتها من قبل.

- لماذا عليك كتابة كل هذا؟

- لتحسين خط الكتابة.

- أها، جيد.

كتبتهم على مائدة المطبخ، ثم مضيت خلفها إلى غرفة المعيشة. عندما ذهبت لتضع البنيتين في الفراش كان هو في الغرفة معي، هي في أمان إذن. استمتعت بالكتابة، أحببت فعلها.

ابتسم لي.

أنا أحبه، إنه بابا، لا معنى لكل هذا، إنها ماما.

ذهبت إلى المطبخ. كنت وحدي، الأصوات قادمة من الطابق العلوي. صفعت الطاولة، ليس بقوة شديدة، صفعتها مرة أخرى. الصوت الناجم عن ذلك كان مشابهاً، لكن باهتاً نوعاً، أجوف. ربما لا يُسمع على النحو ذاته من الخارج، في الردهة حيثما كنت. ربما هذا هو كل ما فعله، صفع المائدة عندما ثارت أعصابه، هذا عادي. فعلتها مرة أخرى، لم أستطع حسم رأيي. صفعتها مرة أخرى بجانب يدي. لقد مرقتُ خارجة من المطبخ وصعدت مباشرة إلى غرفة النوم، لم تقل شيئاً، ولم تدعني أرى وجهها. بالتأكيد هذا ليس بسبب أنه صفع المائدة. حاولت أن أثير أعصاب نفسي وأصفع المائدة. ربما هي فعلت ذلك لأنه فقد أعصابه، ربما لهذا ركضت صاعدة السلم لتختبئ. ربما.

لا أعرف.

عدت إلى غرفة المعيشة. أراد أن يتفقد هجائي، تركته يفعل. أخطأت في كلمة واحدة، عمدًا، لا أعرف لماذا فعلت ذلك. فعلتها فقط عندما كان هو من يشرف عليّ، لم أكتب حرف أر في كلمة سايمارين.

راقبت، أنصت، كتبت واجبي.

رجعت إلى البيت يوم الجمعة ساعة الغداء.

- أصبحت أجلس في مكتب الأفضل.

وتلك كانت حقيقة؛ لم أخطئ ولا مرة طوال الأسبوع، كل حساباتي كانت سليمة، أجبته عن جدول ضرب 12 في ثلاثين ثانية، وخط كتابتي...

- تحسّن كثيرًا.

وضعت أغراض في حقيبتني، ومشيت إلى مقدمة الفصل حتى بلغت أول مكتب. هينو صافحني.

قال: لنرى إلى متى ستحافظ على مكانك الجديد. أهنتك يا مستر كلارك.

أصبحت بجوار ديفيد جيراتي.

- كيف الحال؟

قلت لبابا لاحقًا: أصبحت أجلس في مكتب الأفضل.

قال: فعلاً؟ هذا ممتاز.

صافحني.

- قل لي إذن، كيف تتهجي سايمارين؟

- إس. يو. بي. إم. إيه. أر. أي. إن. إي.

- شاطر.

*

كان العشب مبتلاً رغم أن السماء لم تمطر، أمسى النهار أقصر من أن يجففها. انتهى اليوم الدراسي، سيحل الظلام عمًا قريب. حفروا مصرّفًا جديدًا، ضخّمًا جدًّا، عميقًا جدًّا، قاعه وحلي، ليس طينًا جافًّا مفتتًا، بل كل شيء كان مبتلاً.

- رمال متحركة.

- بالطبع لا.

- لم لا؟

- إنه طين فقط.

أيدان كان بالأسفل.

أحيانًا، بابا ليام وأيدان يسمح لهما بالبقاء في البيت وعدم الذهاب إلى المدرسة لو كانا مؤدبين. رأينا عصيًا بيضاء تبرز من العشب، عرفنا على الفور أنها علامات وذهبنا لنرى ماذا كانت تُعلم، فوجدنا أيدان في المصرف. كان لا يستطيع الخروج، لا يوجد شيء يستطيع تسلقه.

- إنه يغرق.

راقبته.

إحدى قدميه كانت تحت الوحل، يصل الوحل إلى ركبته. نظرت إلى تلك الساق، وعددت حتى 20، لم تغرق الرجل أكثر. ذهب ليام ليجلب سلّمًا أو حبلًا، تمنيت أن يجلب حبلًا.

- كيف نزلت؟

هذا سؤال غبي، حدث لنا المثل جميعًا من قبل، النزول لم يمثّل مشكلة قط، هو دائمًا أسهل شيء. لكنك لا تفكر أبدًا في كيفية الصعود بعد ذلك.

نظرت إلى رجل أيدان، ركبته صارت مغطاة بالكامل الآن، إنه يغرق. كان يحاول التمسك بالجوانب، يحاول ألا يسقط، ويحاول ألا يبيكي. كان يبيكي من قبل، أرى هذا من وجهه. فكرت في إلقاء حجر عليه، لكن لا داعي لذلك.

جلسنا على حقائقنا المدرسية.

سأل إيان مكيفوي: هل يمكن أن يغرق أحد في الطين؟

- نعم.

- لا.

همست: إسأل مرة أخرى بصوت عالٍ، كي يسمع.

فكر إيان مكيفوي في ذلك.

- هل يمكن أن يغرق أحد في الطين؟

- أحياناً.

- فقط لو امتلاً حذاؤك بالطين ولم تعد قادراً على الخروج.

تظاهرتنا أن أيدان لم يكن موجوداً ليسمعنا. حاول رفع إحدى قدميه وتنظيف حذائه من الطين، صوت خروج الحذاء من الطين كان مسموعاً، كيفين قلّده بطرقة من فمه، وكلنا فعلنا كذلك. أيدان انزلق لكنه لم يقع.

ثم بدأت أقلق، قد يغرق فعلاً، وسراقبه يغرق، سنضطر إلى فعل ذلك. فجأة شعرت أن العشب مبتل جداً، يشبه هذا حلمي، الحلم الذي يأتيني من حين إلى حين، حيث يكون فمي مملوءاً بالطين الجاف، طين الصيف، ولا أستطيع ترطيبه ولا بلعه، ولا حتى إغلاق فمي حوله. يحتل تجويف فمي، ويتغلغل أعمق فأعمق، يؤلمني فكي بشدة، إدراكي لحقيقة أنني أخسر فمي يتعاضم، لا أقدر على البلع، لا

أقدر على الصراخ، لا أقدر على التنفس. جلب ليام سلماً وجلب أيضاً باباه، وأنقذا أيدان. ذهب بابا ليام ليشكو العمال لكنه لم يدعنا نذهب معه.

كيث سيمبسون لم يغرق في مصرف، بل غرق في بحيرة. البحيرة على بعد ستة أو سبعة حقول من هنا، حيث لم يبدأ البناء بعد. كانت مكاناً ممتازاً لبيض الضفادع والثلج. لم تكن عميقة، بل موحلة، لا تضع أبداً قدميك العاريتين فيها. يتشقق الثلج لو اتكأت عليه. كانت بحيرة صغيرة جداً.

عثروا فيها على كيث سيمبسون. لم يعرف أحد كيف انتهى به الحال هناك.

ماما بكت عندما عرفت. لم تكن تعرف كيث سيمبسون، ولم أعرفه أنا أيضاً. إنه من بيوت الشركة، أعرف هيئته، ضئيل وذو نمش. تهنّفتُ، وعرفتُ أنها كانت تبكي. حلّ باريتاون كلها صمّتْ عظيمٌ، ذاع الخبر دون أن يصرح به أحد. انزلق على وجهه في البحيرة وابتلّ معطفه وكنزته وبنطاله حتى صاروا أثقل من أن يستطيع القيام بهم، هذا ما قيل. غمرت المياه ملابسه، أستطيع فهم ذلك. وضعت فردة جوربي في الحوض، على سطح الماء، المياه تسلت بين خيوطها وغمرتها. امتص الجورب نصف المياه.

نظرت إلى بيته. أعرف بيته، يقع في ركن أحد الشوارع. رأيت ذات مرة رجلاً - لا بد أنه كان أبو كيث سيمبسون - فوق سطحه يركب هوائي تليفزيون. الستائر كانت مسدلة، اقتربت أكثر، لمست البوابة.

بابا احتضن ماما عندما عاد إلى البيت. لقد ذهب وصافح أم كيث سيمبسون في الجنازة، رأيته يفعل، كنت هناك مع المدرسة، كل من في المدرسة ذهب إلى هناك، بملابنا الجيدة. هينو جعل كل منا يردد النصف الأول من صلاة السلام عليك يا مريم، والبقية يردون عليه

بالنصف الثاني، استغرق هذا كل الوقت قبل أن يأخذونا إلى الكنيسة. ظلّت ماما في مقعدها. كان هناك طابور طويل للعزاء بطول الكنيسة كلها، مروراً بدرب الصليب. كان التابوت أبيض. وقعت بعض كروت القداس خلال التناول، صفعت الأرض بصوتٍ مسموعٍ، لم تكن هناك أصوات عداها سوى بكاء أحدهم في المقدمة وحفيف ملابس الكهنة، ثم رنين جرس الشماس، ثم المزيد من البكاء.

لم يُسمح لنا بالذهاب إلى المقبرة.

قالت مس واتكنز: يمكنكم الذهاب والصلاة له بأنفسكم في وقتٍ لاحقٍ، يوم الأحد القادم سيكون مناسبًا.

كانت تبكي.

قال كيفين: إنهم لا يريدوننا أن نرى التابوت ينزل في الأرض.

لم يكن علينا العودة إلى المدرسة مجددًا هذا اليوم. جلسنا على صندوق كرتوني مفروود في الحقل خلف المتاجر، كي لا تتسخ ملابسنا الجيدة وتقتلنا أمهاتنا. لم يكن هناك مكانٌ لجلوس أكثر من ثلاثة، ونحن كنّا خمسة. اضطر أيدان إلى الوقوف وعاد إيان مكيفوي للبيت.

قلت لهم: إنه ابن خالي.

قال كيفين: من؟

عرفوا ما أنا على وشك قوله.

قلت: كيث سيمبسون.

فكرت في بكاء أمي، لا بد أنه كان على الأقل ابن عم أو ابن خال ما. صدقت نفسي.

- هاري-كاري.

قلت: إنها هاري-كيري.

قال إيان مكيفوي: ماذا تعني؟

قال كيفين: ألا تعرف؟ أنت حمار.

قلت لإيان مكيفوي: إنها الطريقة التي يقتل بها اليابانيون أنفسهم.

قال أيدان: لماذا؟

- لماذا يقتلون أنفسهم؟

- هناك أسباب عديدة.

سؤال غبي، الأسباب لا تهم.

قال كيفين: لأنهم خسروا في الحرب.

قال أيدان: ألا يزالون يفعلون؟ كانت الحرب قبل أعوام طويلة.

قال إيان مكيفوي: عمي كان في الحرب.

- لا، لم يكن، اخرس.

- بل كان.

- لم يكن.

قبض كيفين على ذراعه ولواها خلف ظهره، لم يحاول إيان مكيفوي منعه.

قال كيفين: إنه لم يكن في الحرب، أليس كذلك؟

قال إيان مكيفوي: صحيح.

لم يتوقف حتى ولو للحظة.

- لماذا إذن تقول إنه كان هناك؟

هذا ليس عدلاً، كان عليه أن يترك إيان مكيفوي لحظة أن اعترف.

- أجبني، لماذا؟

شدد رسغ إيان مكيفوي أكثر وراء ظهره، إلى أعلى، انحنى إيان مكيفوي إلى الأمام. لم يرد، على الأرجح لم يستطع التفكير في أي شيء قد يجعل كيفين يطلق سراحه.

قال ليام: اتركه.

قالها كأنه يرد على سؤال في المدرسة بإجابة يعرف أنها خاطئة، ومع ذلك قالها. كان واقفاً في مكانه عندما قالها. تمنيت أن يضربه كيفين لقوله ذلك، لأنه من قالها وليس أنا، ولو ضربه كيفين سيعني ذلك أنني محق بعدم تدخل. كيفين شد ذراع إيان مكيفوي إلى أعلى أكثر حتى تلوى إيان مكيفوي وصرخ من الألم، ثم أطلق كيفين سراحه. اعتدل إيان مكيفوي وتظاهر بأنهما كانا يمزحان. انتظرت، وانتظر ليام، لم يحدث شيء، لم يفعل كيفين شيئاً. أعاد أيدان مجرى الحديث إلى العادي.

- هل هم مضطرون إلى قتل أنفسهم؟

قلت: لا.

- لماذا إذن؟

قلت: إنهم لا يفعلون إلا لو كانوا مضطرين جداً، أو عندما يرغبون في ذلك... على سبيل الاحتياط.

قال سندباد: متى يكون عليهم ذلك؟

كنت سأقول له أن يخرس وربما أضربه، لكنني لم أشعر برغبة في ذلك. تدلى من أنفه خيطان من المخاط الشفاف، مع أن الطقس لم يكن بهذه البرودة.

قلت: عندما يخسرون في الحرب وما شابه.

قال أيدان: وعندما يحزنون.

قالها كأنها سؤال.

قلت: نعم، أحيانًا.

- عندما يكونوا حزاني جدًا جدًا.

- نعم.

- ليس عندما ينقلب مزاجهم قليلًا.

- لا، فقط عندما تكون حزينًا حتى أنك لا تستطيع التوقف عن البكاء، عندما تموت أمك مثلًا، أو يموت كلبك.

تذكرت بعد فوات الأوان أن ماما أيدان وليام ميتة، لكنهما لم يفعلوا شيئًا، ولا حتى نظر أحدهما إلى الآخر. ليام أوما برأسه فقط، إنه يفهم قصدي. هناك عائلتان أخريان فيهما أحد الأبوين ميت، آل سوليفان عندهم ماما ميتة، وآل ريكارد عندهم بابا ميت. مات مستر ريكارد في حادثة سيارة، مسز سوليفان ماتت عادي. انتقل آل ريكارد من هنا بعد مقتل مستر ريكارد، لكنهم عادوا، لم يغيبوا طويلًا، أقل من عام. لم يذهب أولادهم الثلاثة إلى مدرستنا، وهناك بنت أيضًا، ماري، أكبر سنًا...

ماما قالت: وجامعة قليلًا.

كانت قد ذهبت إلى لندن، هربت إلى هناك. لندن هي المكان التي وجدوها فيها. كانت هيبية، الهيبية الوحيدة في باريتاون. وجدتها الشرطة في إنجلترا وجعلوها تعود إلى البيت.

قلت لهم: يحضرون سكينه ويغرسونها في بطونهم.

قالت وجوههم إن هذا مستحيل. أتفق معهم، لا يمكنك أن تغرس سكيناً في بطنك. أصدق بسهولة فكرة ابتلاع كمّ من أقراص الدواء، هذا سهل، سأجلب زجاجة من شيء ما وأغرقهم فيها لتسهيل ابتلاعهم، لبن أو كوكا كولا، على الأرجح كوكا كولا. حتى القفز من جسر عند مرور قطار أسفله يبدو شيئاً سهلاً تخيله، أستطيع فعلها، سأقفز من دون أن أخط في القطار. لقد قفزت من أماكن عالية من قبل. لا يمكنك أن تخنق نفسك عمدًا. لو أنك قفزت في الناحية العميقة من حمام السباحة بعيدًا عن الجوانب ولم يكن هناك أحد لينقذك، ستغرق، هذا لو لم تعرف السباحة أو لم تكن سباحًا ماهرًا، أو لو كنت تناولت عشاءك لتوك وأصابك شدّ عضلي. لا أستطيع تخيل أن أغرس سكيناً في نفسي، لم أهتم بتجربة هذا.

قلت: ليس بسكين خبز مثلاً أو ما يشبهها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- سكين جزار على الأقل.

- نعم.

من السهل أن تتخيل كيف يمكنك أن تطعن نفسك بالسكين من دون قصدٍ. لقد رأينا كيف يستخدم الجزار سكينه، سمح لنا الجزار بمراقبته، سمح لنا بالوقوف بالقرب منه. مسز أوكيف، ماما جيمس أوكيف، كانت تجلس خلف مكتب البيع حيث تُحصّل الأموال وتعيد الباقي، وصرخت فينا يومها لأننا سرقنا نشارة الخشب، كنا نحتاج إلى نشارة الخشب من أجل حيوان إيان مكيفوي الأليف: خنزير غيني. عندهم أطنان من نشارة الخشب، وكنا في الصباح الباكر، أي أن النشارة

لا تزال نظيفة وطازجة. قبض كلُّ منَّا على حفنة وملأ بها جيوبه، تلك لم تكن سرقة، نشارة الخشب بلا قيمة تقريبًا، وكانت لأجل الخنزير الغيني. صرخت فينا؛ صرختها لم تكن حتى كلمة مفهومة، بل كانت اسمًا.

- سيريل!

ذلك كان اسم الجزار، لم نهرب، لن نهرب من أجل حفنة نشارة الخشب، لم نحسب أنها تناديه من أجلنا. خرج الجزار من ثلاجة ضخمة في المؤخرة.

- إيبه؟

أشارت إلينا، فات أوان الهرب.

قالت: هؤلاء!

رأى نشارة الخشب في أيادينا. كان عملاقًا، كان أضخم وأسمن الرجال في باريتاون. لم يكن يعيش في باريتاون، مثل باقي الناس الذين يعيشون في غرفٍ فوق متاجرهم، بل كان يأتي إلى عمله على دراجة هوندا 50 النارية. ارتسم على وجهه ملامح الانزعاج من مسز أوكيف، إنها تضيع وقته، لقد كان يفعل أشياء.

- تعالوا يا شباب، سأريكم شيئًا.

كنا أنا وكيفين وإيان مكيفوي وسندباد، ليام وأيدان كانا عند عمتهما في راهيني مرة أخرى. ذهبنا إليه.

- انتظروا هنا.

دخل الثلاجة وعاد منها حاملًا فخذة حيوان على كتفه. كان يرتدي معطفًا أبيض. أعتقد أنه بقرة، أقصد الحيوان الذي كانت تلك فخذته.

- تعالوا.

تبعناه إلى خلف المنضدة حيث لوح التقطيع الخشبي. كان اللوح نظيفًا، أستطيع رؤية آثار كشط الفرشاة. رأيتَه يستخدم تلك الفرشاة من قبل، إنها مثل الفرشاة العادية، لكن بدلًا من الشعر أسنانها معدنية. أنزل الفخذة من على كتفه إلى لوح التقطيع بحركة هيئته من يده، دوت على الخشب كالصفعة، سمح لنا بلمسها.

- والآن يا شباب...

سكينه كانت في غمدٍ معلقٍ بخطاف على المنضدة، استلَّها، صدر عنها صوت قطع الهواء، سمح لنا بأن نراها جيدًا.

قال: كلفتني تلك مئات الجنيهات يا شباب، لا تلمسوها.

لم نكن ننوي أن نفعل.

قال: والآن راقبوا ذلك.

زحلق سكينه على قشرة اللحم الخارجية -فقط زحلقها- فانفصلت عنه، ثم أخذ يقطعها. لم يبذل مجهودًا، هو فقط انحنى على حافة الفخذة، هذا كل شيء، لم تصدر عنه ضوضاء ولا انشدت عضلاته، لكنه كان يتعرق مع ذلك. تطلَّب كسر عظمة الفخذة استخدام سكين مختلف، ساطور. ضرب به العظمة مرة، ثم أخرى، وانشطرت العظمة فوق اللوح الخشبي.

قال: والآن، هذا ما سأفعله بأي حثالة منكم أقبض عليه يسرق نشارة خشبي المرة القادمة.

ظل يبدو لطيفًا ودودًا مع ذلك.

- أفرغوا جيوبكم على الأرض وأنتم خارجون. باي باي يا شباب.

عاد إلى الثلاجة. تأكدت من نثر كل نشارة خشبي بالتساوي على الأرض، سندباد ركض سريعًا بعد أن ألقى كل نشارة خشبه من جيوبه. قلت لهم: الجبان، شخّ على روحه.

- نزل الخراء على رجله... ترم ترم

- خراء خراء على حذائه... ترم ترم.

خنزير إيان مكيفوي الغيني مات بعد ليلة باردة. ذهب ليراه قبل المدرسة فوجده في ركن الصندوق متجمدًا، لام أمه على موته، لأنها لم تتركه يأخذه في السرير معه. قال: قالت إني سأخنقه لو فعلت.

قال ليام: أفضل الموت مخنوقًا على أن أموت من البرد.

قلت لهم: تلك كانت ليلة نزلت فيها الحرارة تحت الصفر.

متوسط حياة الخنزير الغيني هو سبع سنوات لو أنك غيرت له الماء كل يوم وقدمت له هريس النخالة الساخن كل ليلة شتاء. إيان مكيفوي حظي بخنزيره لثلاثة أيام فقط، إنه حتى لم ينل فرصة ليعطيه اسمًا. سأل مامته ما هو هريس النخالة لكنها لم تخبره شيئًا، قالت إنها لا تعرف.

قال إيان مكيفوي: قالت إن العشب يكفيه.

أبوه لم يقدم له أي مساعدة أيضًا.

قال: اشتر له بالطو.

يحسب أنه ظريف.

حصلنا على دمية أخته ودبوس، هربناهم من البيت. لم تشبه الدمية مسز مكيفوي كفاية.

قال كيفين: لا يهم.

قلت: شعرها ليس أبيض مثلها.

قال كيفين: لا يهم، المهم أن نفكر فيها ونحن نغرس الدبوس.

كُنَّا سنستخدم لعبة أكشن مان كمستر مكيفوي، لكن إدوارد سوانويك لم يسمح لنا باستخدام لعبته، وقد كان الوحيد الذي يمتلك واحداً.

قال كيفين: لا يهم، سينهار على أي حال عندما تموت زوجته، وهذا يكفي.

قال إيان مكيفوي: لا أعتقد أنه يحبها كثيراً.

قال كيفين: مع ذلك سيفتقدها.

ضربنا إدوارد سوانويك على أي حال، لكن ليس في وجهه.

صار كيفين الكاهن الأعلى من جديد، لكنه ترك إيان مكيفوي يغرس الدبوس أول مرة، لأنها أمه، ولأن الدمية تعود لأخته.

- مسز مكيفوي!

رفع كيفين يديه في الهواء.

- مسز مكيفوي!

حملنا الدمية من إحدى ذراعيها وإحدى ساقيها، كأنها قد تحاول الهرب.

- يجب أن تموتي!

غرس إيان مكيفوي الدبوس في بطنها، عبر فستانها. تساءلت إن كانت هناك فتاة في مكان ما ذات شعر أبيض وأعين بيضاء تصرخ من الألم.

- يجب أن تموتي!

شككتها في رأسها، كيفين شكّها في مهبلها، ليام شكّها في مؤخرتها، وأيدان في عينها. علامات الدبوس لا تكاد تُرى. لم نفعَل شيئاً آخر بالدمية، إيان مكيفوي لم يسمح لنا، أعادها إلى البيت، أراد أن يرى النتيجة، انتظرناه بالخارج. خرج أخيراً.

- إنها تطبخ العشاء.

- تّبأ.

- خراء.

كان يوم الأربعاء.

لم نكن مُحبطين جدًّا لكننا تظاهرنّا بأننا كذلك. سحقتنا جثة خنزير غينيا في صندوق بريد مسز كيلمارتن، ولم تعرف أبدًا من فعلها، فقد مسحنا آثار بصماتنا بعد ذلك.

هي تنصت إليه أكثر مما ينصت هو إليها بكثيرٍ. إجاباتها أطول من إجاباته. هي من تتولى ثلثي الحديث على الأقل، لكنها لم تكن ثرثارة، بل أبعد ما تكون عن ذلك، إنما هي فقط أكثر اهتمامًا منه، مع أنه هو الذي يقرأ الجريدة ويشاهد الأخبار ويجعلنا نصمت عندما تُعرض، حتى لو لم تكن تصدر عنّا أي ضجة. أعرف يقينًا أنها أفضل منه في الكلام، عرفت هذا على الدوام. هو جيدٌ في الكلام أحيانًا ولا فائدة منه أحيانًا، وأحيانًا تدرك بمجرد النظر إليه أن من الأفضل لك ألا تقترب منه وتساله أو تخبره أي شيء. لا يحب أن يشتت انتباهه أحدٌ، يقول هذا طوال الوقت، لكنني أعرف معنى تشتيت الانتباه، ولا أفهم كيف يتشتت انتباهه وهو لا يفعل شيئًا على أي حال. لا أمانع ذلك، إلا أحيانًا قليلة. الآباء كلهم يشبهون بعضهم، عدا مستر أوكونيل، وأنا لا أحب أن يشبه بابا مستر أوكونيل، إلا في الإجازات. البسكويت المكسور شيء رائع، لكنك بحاجة أيضًا إلى الخضروات واللحم، حتى لو لا تحب بعضهم. يجلس كل الآباء في ركن الغرفة

ولا يحبون أن يزعجهم أحد، يريدون أن يرتاحوا، فهم من يضعون الطعام على المائدة. جاء بابا يوم الجمعة حاملاً الطعام في حقيبة قماشية ضخمة على كتفه، على قممها كان هناك حبل لربط الحقيبة وغلقتها، ذلك النوع من الحبال التي تؤذي يديك، تدخل قطع صغيرة من الحبل تحت أظافرك وأصابعك لو حاولت شدها بسرعة. ماما تفرغ الحقيبة كل مرة، ودائمًا ما تكون مليئة بالخضروات. يشتريهم من شارع مور. بابا يدفع ثمن كل الطعام الآخر الذي نأكله أيضًا، كل شيء. يحتاج إلى استعادة طاقته في عطلات نهاية الأسبوع. أحيانًا لا أصدق أن ذلك هو السبب الوحيد لعدم إمكانية الاقتراب منه، وللطريقة التي يجلس بها في الركن ولا يخرج منه. أحيانًا أعتقد أن السبب أنه ببساطة وغد.

كسبت ميدالية. حققت المركز الثاني في سباق المئة ياردة، عدا أنها لم تكن مئة ياردة، لم تكن حتى خمسين. كان ذلك يوم السبت، يوم الرياضة المدرسية، أول يوم من نوعه في مدرستنا على الإطلاق. كان هناك عشرون متسابقًا، هينو كان المسؤول عن خط البداية. كانت معه صفارة، وراية أيضًا لكنه لم يستخدمها. ساحة المدرسة لم تكن مستوية، من الصعب أن تجري في خط مستقيم، والعشب أطول في بعض الأماكن من غيرها. رأيت فلوك كاسيدي يقع، كان متقدمًا عني قليلًا لكنني كنت أقترب منه، رأيت رجله تلتوي، تجاوزته، سمعت الهواء يصفر خارجًا منه. رميت ذراعيَّ أمامي على خط النهاية مثلما أراهم يفعلون، حسبت أنني فزت، لم يكن هناك أي شريط نهاية ولا أي شخص قريب مني عندما تجاوزت الخط. لكن ريتشارد شيلز هو من فاز، عند الناحية الأخرى من الساحة. أصبحت الثاني من عشرين، أفضل من الثامن عشر. هينو أحب أن يدلي بدلوه.

- أحسنت صنعًا يا مستر كلارك، ليتك كنت بنفس السرعة في الإجابة عن الأسئلة في الفصل.

كنت سريعًا في الفصل، أعرف عن بعض الأشياء أكثر مما يفعل هينو. هينو لقيط. اللقيط هو شخص أبواه ليسا متزوجين، أو طفل غير شرعي. هينو لم يعد طفلًا، لكنه لا يزال لقيطًا. لم يرغب في إعطائي الميدالية بسهولة، أراد أن يجعل منها نكتة. لا توجد كلمة (غير شرعي) في قاموسي، لكن كلمة شرعي تعني مطابق للشرع والقانون، إذن غير شرعي تعني العكس من ذلك. كلمة (أهلب) تعني كثيف الشعر.

- بلبله أهلب جدًا.

- أهلب!

- أهلب أهلب أهلب!

الميدالية كان عليها صورة عداء، بلا اسم وبلا كتابة. يرتدي العداء فانلة بيضاء وشورتًا أحمر ولا يرتدي حذاءً، بشرته بنفس لون الميدالية. مشيت إلى البيت، لم أحب أن أجري. ذهبت إلى بابا أولاً.

- اغرب عني، ليس الآن.

لم يرفع رأسه، كان يقرأ الجريدة. دائماً ما يتحدث عن باكبينشر⁽¹⁾ في أيام الأحد، يحكي لماما كل ما قاله باكبينشر، يبدو أنه يقرأ صحيفة الباكبينشر أو ما شابهه. فرد جريدته وأخذ يقرأ، لم يبد غضبًا أو ما شابهه.

شعرت بالغباء، كان يجب أن أذهب إلى ماما أولاً، كان هذا سيصبح أسهل. مضيت إلى الباب، شعرت أن عظام ساقي كالمطاط. كان في غرفة الرسم. السلام والهدوء، لأجلهما يذهب إلى هناك، هي المكان الوحيد

(1) Backbencher: أي الجالس على البنش الأخير في الخلف، وهو لقب يُطلق على أعضاء البرلمان في بعض الأنظمة البرلمانية الذين لا يشغلون مناصب هامة وليس لهم دور بارز مثل الذين يجلسون في الأمام، لكنهم يشكلون الغالبية العظمى من الأعضاء، وهم الكتلة المرجحة في التصويتات. [المترجم]

في البيت الذي يحصل فيه على كليهما. لم أمانع أن أنتظر، لكنه حتى لم يرفع رأسه. كنت سأغلق الباب بهدوء.
نظر.

- باتريك؟

- آسف.

- لا، ادخل.

وقعت الجريدة إلى الأمام، انثنت فوق نفسها، تركها.

تركت مقبض الباب، إنه يحتاج إلى تزييت. عدت إلى الغرفة. كنت خائفاً وسعيداً، بعض من هذا وذاك. أردت الذهاب إلى الحمام، أو أعتقد أنني فعلت. سألته شيئاً.

- هل تقرأ الباكينشر؟

ابتسم.

- ما الذي معك؟

- ميدالية.

- أرني... كان عليك أن تخبرني أنك فزت.

- المركز الثاني.

- أي تكاد تكون الأول.

- نعم.

- شاطر.

- حسبت أنني فزت.

- المركز الثاني جيد أيضاً. ضعها هنا.

تمنيت لو أنه فعل ذلك من البداية. الطريقة التي يجعلك بها على وشك البكاء قبل أن يتغير ويفعل ما أردته منه من البداية ليست عادلة. لا تحدث الأمور دومًا بهذه الطريقة لكنها تحدث بمعدل يكفي لأن يحظى وحده بأجزاء من الغرف لا يقترب منه أحد فيها، فالبيت يختلف تمامًا في عطلات نهاية الأسبوع. لا يمكنني أبدًا أن أهرع إليه، عليّ أن أتفقد دائمًا إن كان في مزاجٍ يسمح. ألووم الجريدة على هذا، الجرائد غبية، بكل ما فيها من الحرب العالمية الثالثة تلوح في الأفق بينما كل ما يحدث هو شجار بين العرب والإسرائيليين. أكره ذلك، لو أن أحدهم قال إنه سيقنتك فعليه أن يفعل ذلك.

- سأؤذيك.

هذا أفضل.

الجرائد غبية. بابا أحيانًا يقرأ لماما من ما تقوله الباكينشر، وكله كلام غبي. ماما تنصت فقط لأن بابا هو من يقرأ، ولأنه زوجها.
- رائع.

هذا ما تقوله كل مرة، لكن لا يبدو عليها قط أنها قصدت ما قالت، تقوله بنفس الطريقة التي تقول بها (اذهب إلى النوم).

- الكلمة صارت جسدًا!

حفيف.

- باكينشر!

الجرائد كبيرة والكتابة فيها صغيرة، تستغرق اليوم كله لتُقرأ، خاصة أيام السبت والأحد. قرأت شيئًا عن صليبًا عاليًا خربه المخربون، كان ذلك على الصفحة الأمامية من زا إيفيننج بريس، واستغرق مني ثماني دقائق، وكانت هناك صورة لصليبٍ عالٍ لكن بلا ضررٍ. عندما أذهب

إلى المتاجر لشراء الجريدة، أستطيع دومًا تخمين إن كان ذلك اليوم سيصبح يومًا صيفيًا لطيفًا تدوم شمسهُ اليوم كله لو كانت هناك صور لفتيات أو أولاد على الشاطئ في الصفحة الأمامية، عادة ثلاث صور متجاورة، والأطفال دائماً ما يكون أمامهم دلو وجاروف.

هذا ما يحدث مع بابا: يبدأ في قراءة الجريدة، وعليه أن ينهيها بالكامل، يظن أنه رجلٌ رائعٌ لفعله ذلك، ويستغرق منه هذا اليوم كله. يصبح عبوسًا خطيرًا، فالوقت يفلت من بين يديه. الكتابة صغيرة جدًا لذا لا يجب أن يُشتت انتباهه. في مساء الأحد تصير ماما عصبية. نكرهه، وكل ما يفعله هو قراءة الباكينشر.

- سأصلبكم.

ماما جيمس أوكيف قالت هذا لجيمس أوكيف وأخواته. كل ما كانت تقصده هو (افعلوا ما أقول لكم). سأجلدكم، سأسلخكم أحياء، سأكسر كل عظمة في أجسادكم، سأقطع أطرافكم واحدًا واحدًا، سأشوهمكم.

كلهم أغبياء.

سأتدلى بسببك. لم أفهم ماذا كانت تعني. صرخت بها مسز كيلمارتين لإيريك ابنها المتخلف بعدما فتح كل أكياس رقائق البطاطس في الصناديق.

ماما شرحت لي.

- تقصد أنها ستقتله ثم ستدينها المحكمة على ذلك وتتدلى من المشنقة، لكنها لا تعني ذلك حقًا.

- لماذا لا تقول ما تعنيه حقًا؟

- هكذا يتكلم الناس.

لا بد أنه من الرائع أن تكون متخلفًا، يمكنك فعل أي شيء تريده ولا تقع في مشكلة حقيقية أبدًا جراء أفعالك. لكن لا يمكنك أن تتظاهر بأنك متخلف، عليك أن تكون كذلك طوال الوقت. لا يعطونك واجبًا مدرسيًا، وتستطيع أن يسيل لعابك كما تحب على طعام العشاء.

أجنس، المرأة التي تعمل في متجر مسز كيلمارتن لأن مسز كيلمارتن تنشغل بالتجسس من خلف المرأة. كانت تقضي دهورًا من كل يوم تمسك بالمقص، تقص قطعًا من الصفحات الأمامية من الجرائد، القطع التي فيها اسم الصحيفة وتاريخ اليوم، لا شيء غير ذلك.

- لماذا؟

- لإعادتهم.

سألت: لماذا؟

- لأنهم لا يريدون الجريدة كلها.

- لم لا؟

- هم فقط لا يريدونها، إنها قديمة، فات تاريخها، بلا فائدة.

- هل يمكنني أن أحصل عليهم؟

- لا.

لا أريدهم، قلتها فقط لأني أعرف أنها سترفض وأنا كنت أجرب.

قلت: مسز كيلمارتن تمسح بهم مؤخرتها.

لكن ليس بصوتٍ عالٍ.

سندباد كان هناك، كان يحرق إلى الباب العاكس الذي تجلس خلفه. أجنس ردّت بهدوء:

- أخرج من هنا فورًا أيها الجرو وإلا أخبرتها.

كانت تعيش مع مامتها في نفس البيت، لم تكن في الواقع امرأة على الإطلاق. كانتا تعيشان في كوخ محشور بين البيوت الجديدة. عشب حديقتهما ممتاز على الدوام.

وجه بابا يكون مختلفًا عندما يقرأ الجريدة. ينحني إلى الأمام، وحاجباه يرتفعان، أحيانًا تفتح شفاته وتغلقان، لكن أسنانه تظل مغلقة على الدوام. سمعته في مرة يجزُّ على أسنانه ولم أعرف مصدر الصوت. نظرت إلى أرجاء الغرفة، نهضت، كنت أجلس على الأرض بجواره أنتظره أن ينتهي، لم أستطع رؤية شيء. نظرت إلى ماما، كانت تقرأ مجلة وومان، لا تقرأ بجدية، فقط تقلب الصفحات، وتظل تنظر إلى الصفحة بينما تقلبها يدها، تستغرق نفس قدر الوقت مع كل صفحة. نظرت إلى بابا، لرؤية إن كان يسمع ما أسمع، أشياء قوية على وشك أن تنكسر، ثم رأيت فمه يتحرك، راقبت: يتحرك بنفس نمط الصوت. حسبته سينفجر، أردت أن أحذره. كرهت منه فعل ذلك. الجرائد لقيطة.

- أفكر في لحم الخنزير على سبيل التغيير.

لم يقل شيئًا، لم ينظر إليها حتى.

- ربما يكون لطيفًا.

وجهه كان ملتصقًا بالصفحة، عيناه تتحركان إلى الأسفل. لم يكن يقرأ. اضطرها إلى أن تقولها.

- ما رأيك؟

ثنى الجريدة بين يديه، ركَّز فيها بعمق. تكلم، وإن كان بالكاد يمكن اعتبار ما نطق به كلامًا، خرجت الكلمات منه كأنها تنهيدة، لا تكاد تبلغ الهمس حتى.

- افعلي ما تشائين.

وجهه في الجريدة، ساقاه معقودتان ومتصلبتان.

- كما تحبين.

لم أنظر إلى ماما مجددًا، ليس بعد.

- تفعلين ما تريدين دومًا.

ما زلت لا أنظر إليها.

لم تقل شيئًا.

أنصتُ.

كان هو الوحيد الذي أستطيع سماع صوت تنفسه، كان يزفر الهواء بقوة من أنفه. يسحب الأكسجين ويطرد ثاني أكسيد الكربون. النباتات تفعلها بالعكس. صرت أسمع تنفسها هي الآن.

قلت: هل يمكنني تشغيل التيلي؟

أردت تذكيره أنني هنا، أنني موجود. هناك شجار قادم، وأستطيع منعه بأن أكون موجودًا.

قالت لي، مصححة: تليفزيون.

ليست هناك مشاكل، لم تكن لتقول ذلك لو كانت هناك مشاكل. ماما تكره أنصاف الكلمات والكلمات المقصوفة، لا تحب إلا الكلمات الكاملة الملائمة السليمة. صوتها كان طبيعيًا.

قلت: تليفزيون... هل أستطيع؟

سألني: ماذا على التليفزيون؟

لا أعرف، لا يهم، فقط سيملاً صوته الغرفة. رفع باباً رأسه.

قلت: شيء ما... ربما يكون هناك برنامج عن السياسة مثلاً أو أي شيء مسأل.

- مثل ماذا؟

قلت: فينا فايل⁽¹⁾ ضد فيني جيل⁽²⁾.

جعل هذا بابا ينظر إليّ.

قال: ماذا؟

قلت: ربما هذا أو غيره، لست متيقناً.

- مباراة بينهما؟

قلت: لا، يتحدثون.

البرامج الوحيدة التي لا يتظاهر بأنه لا يشاهدها عندما تكون على التليفزيون، كانت البرامج التي فيها أشخاص يتحدثون، والفيرجينيان⁽³⁾.

قال: أتريد التليفزيون مفتوحاً؟

- نعم.

- لماذا لم تقل ذلك مباشرة؟

قلت: قلت ذلك.

قال: شغله.

رجله تهتز، الرجل الموضوعه فوق الأخرى المرتكزة على الأرض. أحياناً كان يرفع كاثرين وديردري على هذه الرجل إلى فوق وإلى

(1) Fianna Fáil: يعني الاسم (جنود القدر)، وهو حزب أيرلندي سياسي مسيحي جمهوري محافظ، نشأ عام 1926. [المترجم]

(2) Fine Gael: يعني الاسم (العائلة) أو (القبيلة)، وهو حزب أيرلندي مسيحي ديمقراطي وسطي، وهو الغريم التقليدي لحزب (جنود القدر)، ونشأ عام 1933. [المترجم]

(3) The Virginian: مسلسل رعاة بقر أمريكي، عُرض على قناة NBC بين عامي 1962 و1971. [المترجم]

تحت، فعل نفس الشيء مع سندباد أيضًا بحسب ما أذكر، لذا لا بد أنه فعل المثل معي أيضًا. نهضت.

- هل أنهيت واجبك؟
- نعم.
- كله؟
- نعم.
- والمذاكرة؟
- نعم.
- ماذا أخذت في المدرسة؟
- عشر كلمات جديدة.
- عشر؟ أخبرنا واحدة.
- سيديمنت⁽¹⁾. أتريد مني تهجئتها؟
- لا فائدة من هذا، لكن حسنًا.
- إس. إي. دي. أي. إم. إي. إن. تي.
- سيديمنت.
- سي. إي. إن. تي. إي. إن. إيه. آر. واي.
- سينتيناري⁽²⁾.
- نعم، هذا اسم الذكرى رقم مئة.
- مثل عيد ميلاد أمك.

(1) Sediment = رواسب / ثمالة. [المترجم]

(2) Centenary = الذكرى المئوية. [المترجم]

لقد فعلتها، فعلتها صح، عدنا إلى العادي، لقد ألقى مزحة، وماما ضحكت وأنا ضحكت وهو ضحك، استمرت ضحكتي وقتًا أطول حتى حسبت أنها ستتحول إلى البكاء، لكنني لم أفعل، عيناى أخذتا ترمشان بشدة ثم صار كل شيء على ما يرام.

قلت لهم: سيدمينت من ثلاثة مقاطع.

قالت ماما: شاطر.

- سيد - إي - مينت.

- كم مقطع في سينتيناري؟

كنت مستعدًا، حللت هذه الكلمة في الواجب.

- سين - تين - أر - إي. أربعة.

- شا - طر جدًا، كم مقطع في بيد⁽¹⁾؟

فهمت المزحة، قلت الإجابة ونهضت بسرعة.

- حسنًا.

أردت الذهاب والجو لا يزال لطيفًا، أنا من جعلته كذلك.

هناك معلمان غائبان بسبب المرض، لذا كان على هينو أن يراقب فصلًا آخر أيضًا. تركنا بكم هائل من المسائل على السبورة، وترك الباب مفتوحًا. لم يكن هناك ضجة عالية أو كثير من اللعب. أحب القسمة المطولة، أستخدم مسطرتي للتأكد من أن الخطوط مستوية تمامًا. أحب أن أؤمن الإجابة قبل أن أصل إلى آخر الصفحة. ترددت فجأة صرخة فزع تبعها صوت الضحك. انحنى كيفين ورسم خطأً طويلًا في دفتر فيرجوس شيلفن، عدا أنه استخدم النهاية الأخرى من القلم فلم يترك أثرًا على الصفحة، لكن فيرجوس شيلفن هلع. لم أرَ

(1) Bed = سرير. [المترجم]

ذلك، كنت على رأس الصف الثاني في هذا الأسبوع، وكيفين كان في منتصف الصف الثالث.

يمكنك دومًا إدراك أن هينو عاد، كل شيء في الفصل يصبح ساكنًا تمامًا لعدة ثوان. لقد عاد، أحس بذلك. لم أرفع رأسي، كنت قريبًا من نهاية المسألة.

وقف بجواري.

وضع دفترًا تحت عينيّ، دفترًا مفتوحًا، ليس دفترتي. كانت هناك خيوط بلل تقطع الصفحة وحبر الكتابة من أعلى إلى أسفل، جعلت أزرق الحبر فاتحًا أكثر من بقية الصفحة. كانت هناك بقع من الأزرق الفاتح بطول الصفحة، إذ يبدو أن أحدهم كان يحاول مسح الدموع. توقعت أن أضرب.

نظرت إلى أعلى.

كان هينو وسندباد بجواره. تلك كانت دموع سندباد، أرى ذلك من وجهه ومن الطريقة التي يتسارع بها تنفسه.

قال لي هينو: انظر إلى هذا.

قصد أن أنظر إلى الدفتر، فعلت ما أراد.

- أليس مخزيًا؟

لم أرد.

لا شيء خطأ في الصفحة إلا الدموع، الدموع أفسدت الكتابة، لا شيء غيرها. كتابة سندباد لم تكن سيئة، كانت كبيرة، وحروفه منحرفة قليلًا مثل الأنهار لأنه يكتب ببطء شديد، بعض انحناءات خطه انحرفت عن السطور لكنها قليلة. الدموع فقط هي المشكلة.

انتظرت.

قال هينو لسندباد: أنت محظوظ جدًا يا مستر كلارك الصغير لأنك لستَ في فصلي، اسأل أخاك.

ما زلت لا أعرف المشكلة، ما الذي يُفترض بي أن أراه في الدفتر، ولماذا أخي هنا. لم يعد يبكي الآن، وجهه صار عاديًا.

هذا شعور جديد: هناك ظلم بيّن يحدث هنا، شيء يكاد يكون مجنونًا. إنه لم يفعل شيئًا إلا البكاء. هينو لا يعرفه، إنما هو فقط يتغاشم عليه.

وجّه كلامه إليّ.

- ضع هذا الدفتر في حقيبتك وأعرضه على أمك ما أن تدخل البيت، دعها ترى حقيقة الكائن المقرف الذي في بيتها. كلامي مفهوم؟

لن أفعل ما يقول، لكن يجب عليّ أن أقولها.

- نعم يا سيدي.

أردت أن أنظر إلى سندباد، أن أجعله يعرف أي لن أفعل. أردت أن أنظر حولي إلى الجميع.

- ضعها في حقيبتك الآن.

- أغلقت الدفتر برفقي، لا تزال الصفحات مبتلةً نوعًا.

- قال هينو لسندباد: اختفِ من أمامي.

- ذهب سندباد، ناداه هينو ليغلق الباب خلفه، وسأله إن كان قد وُلِد في حظيرة. ثم قام هينو وفتح الباب مجددًا ليسمع إن كانت هناك ضجة قادمة من الفصل الآخر.

- أعطيت الدفتر لسندباد.

- قلت له: لن أعطيه لماما.

لم يقل شيئاً.

قلت: لن أخبرها بما حدث.

أردته أن يعرف ذلك.

ذات صباح، لم تنهض. بابا كان ذاهباً ليطلب من مسز مكيفوي أن ترعى الطفلتين خلال اليوم، أما أنا وسندباد فلا يزال علينا الذهاب إلى المدرسة.

قال: تناول إفطارك.

فك قفل الباب الخلفي.

- هل اغتسلت؟

وذهب قبل أن أجيبه بأني أغتسل دوماً بنفسي قبل تناول الإفطار، وأني أجهز دوماً إفطاري من رقائق الذرة، أذهب إلى الصحن وأضع فيه الرقائق وأصب عليها اللبن، ثم أضع السكر، واعتدت على نقر ملعقة السكر بظفري كي ترش السكر بالتساوي. لكنني لا أعرف ماذا أفعل هذا الصباح، أنا مرتبك تماماً. ليس هناك صحن. أعرف أين تحتفظ هي بهم، أنا من أضعهم أحياناً. ليس هناك لبن، لا بد أنه لا يزال هناك أمام الباب الأمامي. ليس هناك إلا السكر، ذهبت إلى السكر مباشرة، لا أريد أن أفكر، لا أريد التفكير في ماما في غرفة نومهما، لا أريد التفكير في ماما مريضة، لا أريد أن أراها. كنت خائفاً. أخذ سندباد يتبعني.

لو أنها ليست مريضة، لو كانت فقط في فراشها، سيكون عليّ إذن أن أعرف لماذا لم تنهض. لم أحب أن أعرف، لم أستطع الصعود، لم أحب أن أعرف، سيعود كل شيء إلى العادي عندما نعود لاحقاً من المدرسة.

تناولت ملعقة سكر. لم أحتفظ بها لوقتٍ طويلٍ كفاية في فمي حتى تصبح لطيفة، لم أكن جائعًا، لا أكثرث بتناول أي إفطار. سأحمص التوست، أحب استخدام الغاز.

- ما مشكلة ماما؟

لا أحب أن أعرف.

- احرص.

- ماذا بها؟

- احرص.

- هل تعاني من شيء؟

- تعاني من النظر إلى وجهك المقرف، احرص.

- هل هي ليست بخير؟

أحب صوت الحفيف الصادر عن الغاز، وأحب رائحته قليلاً. قبضت على سندباد، وأخذت أسدً بوجهه فتحات الغاز. قاومني، لم يعد التحكم به سهلاً مثلما كان من قبل، باتت ذراعاه قويتين، لكنه لا يستطيع هزيمتي، لن يستطيع هزيمتي أبداً، سأظل دوماً أكبر وأضخم منه. قلت مني.

- سأقول لهم.

- لمن؟

- لبابا.

قلت وأنا أقترّب منه: ما الذي ستقوله له؟

- أنك تلعب بالغاز.

- وماذا في هذا؟

- ليس مسموحًا لك.

ركض تجاه الردهة.

قلت: ستوقظ ماما، وسيجعلها هذا لن تتحسن أبدًا، بسببك.

لن يقول شيئًا.

- أراهن أن كليكما مشترك في ذلك.

هذا ما يقوله بابا دومًا.

فتحت الباب الخلفي للتخلص من رائحة الغاز.

ربما ماما ليست مريضة، ربما تشاجرا مرة أخرى... لم أسمع شيئًا، تركتهما يضحكان ويتحدثان مع بعضهما قبل أن آوي إلى الفراش.

أغلقت الباب.

بابا قادم، أعرف ذلك من وقع الخطوات، فتح الباب ودخل، وقع كلا قدميه أصبح في الداخل. ترك الباب مفتوحًا.

- الطقس رائع بالخارج. هل أكلت إفطارك؟

قلت: نعم.

- وفرانسييس؟

- نعم.

- شطّار. مسز مكيفوي سترعى كاڤي وديردري اليوم، إنها لطيفة جدًا.

راقبت وجهه، لم يكن شاحبًا ولا مشدودًا، لا أستطيع رؤية العروق في رقبتة، بدا لطيفًا وهادئًا. لم يحدث شيء سيئ إذن. ماما مريضة فقط.

قال: سيتمنح هذا مامتكما وقتًا لتتحسن.

الآن أريد أن أراها، كل شيء بخير، هي مريضة لا غير.

قال: أنا عن نفسي ليس عندي وقت للإفطار، لا راحة للأشقياء.

لكنه بدا مبتهجًا نوعًا.

قلت: هل أستطيع الصعود لرؤيتها؟

- ستكون نائمة.

- نظرة سريعة.

- من الأفضل ألا تفعل، قد توقظها، هل تمانع؟

- لا.

لا يريدني أن أراها، هناك شيء ما.

قال: ماذا عن غدائك؟ سيكون عليك أن تظل في المدرسة.

قلت: سندوتشات.

- هل تستطيع أن تتعامل؟ سأذهب لتجهيز البنتين.

- سأفعل.

- شاطر.

الزبدة ناشفة. رأيت ماما من قبل تكحت سطحها بالسكين، لكنني لم أستطع تقليدها، وضعت فقط قطع من الزبد في كل أركان الخبز. لم أجد في الثلاجة شيئًا لوضعه في السندوتشات عدا الجبن، أكره هذا، لذا صنعت سندوتشات بالخبز فقط، وصنعت أخرى لسندباد، فقط لأكون آمنًا لو سأل بابا. ماما بخير، لا مشكلة فيها. لو وجدته مبتسمًا عند نزوله سأطلب منه النقود لشراء رقائق البطاطس للسندوتشات. ابتسم.

- هل نستطيع الحصول على رقائق البطاطس للسندوتشات؟

قال: فكرة جيدة.

يعرف أي أقصد طلب المال لشرائها. كانت الطفلتان معه بين ذراعيه، جعلهما تضحكان. سندوتشات رقائق البطاطس. سأحتاج إلى التسلل من المدرسة في الاستراحة، لأننا لا يُسمح لنا بمغادرة الساحة إلا لو كنا خارجين في مأمورية لأحد مدرسينا. ماما بخير بكل تأكيد، عدا أنها مريضة قليلًا، أنا متأكد من ذلك الآن. لا بد أنها تعاني من صداع أو وجع بطن أو نزلة برد، لا أكثر. أنزل بابا كاثرين كي يستطيع أن يصل إلى النقود في جيبه. لن يمنعها شيء من أن نجدها في الطابق السفلي عندما نعود من المدرسة.

- والآن...

لقد وجد النقود.

- خذ.

شلنان.

- واحد لكل منكما.

- شكرًا يا بابا.

عاد سندباد.

قلت له: بابا منح كل منا شلنًا.

قال: هل ستكون ماما بخيرٍ عندما نعود إلى البيت؟

قال بابا: غالبًا نعم، لكن ربما لا.

قلت لسندباد: سندوتشات رقائق البطاطس.

أريته الشلنين. أخرجت منديلي، وحشرت الشلنين في الأسفل، في أعماق جيبي، ثم وضعت المنديل فوقهما ليحميهما.

استغرقت وقتًا طويلًا في العودة إلى البيت، عمدًا. خَبَّأت حقيبتني في سياج بيت ليام وأيدان وذهبنا للبحث عن الرجل الغريب. يعيش الرجل الغريب في الحقول، وإن كانت لا تكاد تبقى أي حقول. رأيتَه ذات مرة، ثم قفز في خندق ما أن رأيتَه. يرتدي معطفًا طويلًا أسود وكاب على رأسه، وكان قذرًا من رأسه إلى أخمص قدميه، وظهره محني. ليس عنده أي أسنان، بل لثة سوداء فقط، مثل توتسي. لم أر أسنانه - كان بعيدًا جدًّا - لكنني أعرف كيف تبدو. رأيت فقط إطاره الخارجي. كلنا رأيناه ذلك اليوم. ركضنا خلفه لكنه هرب. كنا سنقتله لكل تلك الأشياء التي فعلها؛ إنه يأكل الطيور والفئران وكل شيء مناسب يجده في صناديق القمامة. يضع بابا دومًا صندوقنا خارج البوابة في ليالي الأربعاء لأن رجال القمامة يأتون في صباح الخميس، وهو دائمًا متعجل في الصباح. ذات خميس وجدنا غطاء الصندوق مفتوحًا والأشياء متناثرة في أرجاء الممشى، أكياس وعظام وعلب معدنية وكل الأشياء التي كانت في النصف العلوي من الصندوق، مخلفات أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء. عدت إلى الداخل وأخبرت ماما عن ذلك.

قالت: إنها القطط.

خرجت مجددًا، كنت ذاهبًا إلى المدرسة. تفحصت الآثار، هناك جزء مفقود من قطعة خبز دائرية الشكل. ركلت الخبز بعيدًا، لكن حوافه ظلَّت عالقة بالأرض. إنه الرجل الغريب.

قد يفعل أي شيء. ذات مرة دخلت فتاة من بالدويل المستشفى في شارع جيرفيس بعدما فقدت الوعي، حدث ذلك عندما كانت عائدة إلى بيتها ثم قفز الرجل الغريب أمامها من أحد الأركان وعرض عليها بلبله. لم تجده الشرطة قط. يعرف جيدًا كيف يتحاشى مطارديه.

قال أيدان: لقد كان في الجيش أيام الحرب.

كنا أنا وأيدان وليام فقط، كيفين اضطر إلى الذهاب إلى مكان ما مع باباه ومامته، جدته كانت مريضة واضطر إلى ارتداء ملابسه الجيدة. تلقت المدرسة ورقة من أبويه لتتركه يخرج مبكرًا. كنت سعيدًا لأن كيفين غير قادم، لكنني لم أفصح عن ذلك.

قلت: كيف تعرف ذلك؟

لم أقلها بالطريقة التي كنت سأقولها بها لو كان كيفين معنا.

- لقد تلقى رصاصة في رأسه ولم يستطيعوا إخراج الرصاصة بطريقة سليمة، لذا أصبح مجنونًا.

- يجب أن نقتله.

- نعم.

قال ليام: أعتقد أن جدة كيفين تموت، كان علينا ارتداء ملابسنا الجيدة عندما ماتت ماما. هل تذكر؟

قال أيدان: لا... نعم، كانت هناك حفلة بعدها.

- حفلة؟

قال أيدان: نعم.

قال ليام أيضًا: نعم، بشكل ما. كان هناك سندوتشات، وتناول الكبار المشايب.

- ونحن كذلك.

- وبعضهم غنوا الأغاني.

أردت العودة إلى البيت.

قلت: لا أعتقد أننا سنجده، النهار ساطع جدًا.

وافقاني، لم يتهماني بأني دجاجة أو قطة خائفة أو أي شيء مشابه. أخذت حقيبتتي وأبطأت حركتي، جعلت نفسي أمشي بشكل عادي. قطفت ورقة شجر من أشجار آل هانيلي، وثنيتها، وراقبت تجاعيدها تصبح أغمق حيث انقطعت الورقة. وصلت إلى البوابة.

كانت لا تزال في ملابس النوم، هذا كل شيء.

قالت: أهلاً.

قلت: أهلاً.

سندباد كان قد وصل بالفعل وخلع حذاءه، لم يبد عليها أي شيء خاطئ.

- هل ما زلتِ مريضة؟

قالت: لا، أنا بخير.

- هل تريدان الذهاب إلى المتاجر؟

قالت: لا أعتقد ذلك، فرانسيس كان يغني لي أغنيته الجديدة.

قلت لها: تناولنا سندوتشات رقائق البطاطس على الغداء.

قالت: خمنت ذلك. هلا أكملت لي الأغنية يا حبي؟

- ماما قالت له سيب القطة وخليها في حالها...

سندباد أخذ ينظر جانباً إلى مشمع الأرضية.

- ساب مدرسته ورمى كراسته

وراح جر شكلها...

أخذت ماما تصفق.

كانت لا تزال في ملابس النوم في اليوم التالي أيضًا، لكن هذا كان فقط لأنها لم تكن قد ارتدت ملابسها العادية بعد. صارت أفضل حالًا، تبدو يقظة وتتحرك أسرع.

ظللتُ مستيقظًا طوال الليل، بأقصى ما استطعت، أغلب الليل. لم يحدث شيء. صحت مبكرًا، قبل أن تتم الشمس شروقها. خرجت من السرير، نزلت متجنبًا المنطقة التي تصدر صريرًا من دون أن يصدر عني صوت. ذهبت إلى غرفتهما، أنصتُ، لا شيء، نائمًا، فقط صوت نوم بابا، وصوت نوم ماما الأكثر خوفًا. عدت إلى السرير الذي كان لطيفًا، إذ كان لا يزال يحتفظ بدفئه. تكورت في السرير. لم أمانع البقاء مستيقظًا، الصاحي الوحيد. نظرت عبر الغرفة إلى سندباد؛ رأسه كانت في محل أقدامه، وأقدامه في مكان لا أراه، أستطيع رؤية مؤخرة رأسه. نظرت، ورأيتَه يتنفس. هناك طيور بالخارج، الكثير منهم، ثلاثة أنواع مختلفة. أعلم لماذا جاءوا: يريدون اللبن. كان هناك لوحٌ ما بجوار العتبة ليضعه عامل توصيل اللبن كسقفٍ مرتجلٍ للحماية من الطيور، لكنه لم يعد موجودًا. ثم صار هناك غطاء علبه بسكويت معدني ليضعه فوق زجاجات اللبن ويضع حجرًا فوقه كي لا يقع، لكن هذا أيضًا ضاع، أقصد الغطاء هو من ضاع، لم أبحث عن الحجر. لا أعرف لماذا يحاول الجميع منع الطيور من شرب اللبن، إنهم لا يشربون سوى القليل من على السطح، القليل جدًا. سمعت صوت المنبه يدوي في غرفة نومهما، أستطيع سماع صوت الساعة على الخزانة الخشبية بجوار ناحية بابا من السرير، ثم سمعت صوت إيقاف المنبه. انتظرت، سمعتها تقترب من الباب، لقد أغلقتَه جيدًا ورائي. تظاهرت أنني نائم.

- صباح الخير يا أولاد.

تابعت التظاهر، لم أحتج إلى النظر إليها، عرفت من صوتها أنها باتت أفضل.

- صباح الجمال على الحلوين.

ضحك سندباد، كانت تدغدغه، وكان يتذمر أيضًا، مبتهجًا ومنزعجًا في الوقت نفسه. انتظرت دوري.

لا يعني هذا أن لا مشكلة هناك، فقط يعني أن لو حدث بينهما شيء ما، لو كانا قد تشاجرا، فهي قد أصبحت أفضل الآن. تلك كانت أول مرة ظلّت فيها في السرير، باستثناء اليومين الذين عقبا عودتها من المستشفى بعد إنجابها لديردي، كانت في السرير بعدما عدنا من عند خالتنا، فقد كنّا عند خالتنا وهي في المستشفى، خالتنا ناوالا، أخت ماما الكبيرة، لم أحب البقاء عندها. عرفت ما يحدث، لكن سندباد لم يفهم.

- مامي في الموشفاه.

لم يعد يتحدث بتلك الطريقة الآن، أصبح أفضل.

كانت في السرير عندما عدنا إلى البيت. عدنا إلى البيت بالحافلة، بحافلتين، مع خالنا.

تابعت المراقبة، تابعت الإنصات.

حكيت لكيفين: أقاموا حفلة في البيت، بعد الجنازة، غناء وأكل وشرب وكل شيء.

ذهبت إلى المتاجر، لأجل هينو، لأشتري له كيكيتين لغدائه.

- أو علبة بسكويت بالشيكولاتة لو لم تجد كيكا.

وقال إن بوسعي الاحتفاظ بنصف البنس المتبقي كمكافأة، هكذا اشتريت قطعة حلوى جافة لنفسي. جعلت كيفين يراها من تحت

المكتب، وتمنيت لو أني اشتريت شيئاً مختلفاً، شيئاً أستطيع مشاركته مع كيفين.

عندما أمرنا هينو أن ننام، تحدّاني كيفين أن أكل الحلوى من دون أن يكشفني هينو. لو أني أخرجتها من فمي لأن هينو سمع صوتها أو لأنه قادم لينظر إلى دفاترنا، لو أني لفظتها خوفاً، سيكون عليّ أن أعطي بقيتها لكيفين، عندها لن يحتاج إلا إلى شطفها بماء الصنبور البارد فقط.

خرج هينو ليتحدث مع ماما جيمس أوكيف بعدما وضعت الحلوى في فمي. مسز أوكيف أخذت تصرخ، هينو حدّرنا من فعل شيء وأغلق الباب. ظل بوسعنا سماعها، جيمس أوكيف لم يكن في المدرسة يومها. أخذت أمصّها بجنون. قالت إن هينو يضع جيمس أوكيف في دماغه ويفتعل الأسباب لعقابه. أخذت أقلب الحلوى في جميع أنحاء فكي، وأدعكها في سقف فمي وجوانبه ولساني، صارت أنعم، لا أستطيع إخراجها من فمي الآن. فتحت فمي وجعلت إيان مكيفوي ينظر، أصبحت الحلوى بيضاء، لقد ذابت قشرتها الملونة. قالت إن ابنها لا يقل ذكاءً عن بقية الأولاد، فهي تعرف العديد منهم، وليسوا مميزين أبداً. فتح هينو الباب وحدّرنا مرة أخرى، ثم سمعناه يقول اهديّ يا مسز أوكيف، ثم ذهب. لم تعد هناك أي أصوات قادمة من الخارج، لقد أخذ مسز أوكيف إلى مكان ما. أخذنا نضحك، لأن الجميع كان يراقبني أحاول أكل الحلوى كلها. أخذوا يقولون إنه قادم ويتظاهرون أنه يقترب، لكنني لم أنخدع. ظل بعيداً لدهور، وعندما جاء في النهاية وفتح الباب، كانت الحلوى قد صارت صغيرة كفاية لابتلاعها لو احتجت إلى أن أفعل، لقد كسبت. نظرت إلى وجه هينو وابتلعتها، احتجت إلى أن أدفعها بقوة، ظلّ حلقي يؤلمني لدهور بعدها. هينو ظلّ لطيفاً لبقية اليوم، خرج بنا إلى الساحة مرة أخرى وعلمنا كيف نلقي الكرة. لساني صار أحمر اللون.

صاروا الآن يتشاجرون طوال الوقت. لا يقول أحدهما شيئاً، لكن هناك شجاراً قائماً دوماً. الطريقة التي يطبق بها صحيفته ويلقيها جانباً يقول بها شيئاً. الطريقة التي تنهض بها عندما تبكي إحدى البنيتين في الطابق العلوي، عندما تتنهد وتتوقف عن الحركة، تريد بها أن تريه أنها متعبة. الشجار قائم، وهما يظنان أنهما بهذه الطريقة يخفيانه عنّا.

لم أفهم. إنها جميلة، وهو لطيف، وعندهما أربعة أبناء، أنا أحدهم، أنا الأكبر، أنا رجل البيت عندما لا يكون بابا هنا. ظلت تحتضنا لفترة أطول، أحاطت بنا وأخذت تنظر إلى الأرض أو إلى السقف. لم تلاحظ أنني أحاول التملص، لقد صرت كبيراً على هذا، خاصة أمام سندباد. لا أزال أحب رائحتها مع ذلك. لكنها لم تكن تحتضنا، بل كانت تتشبّث بنا.

ينتظر كثيراً قبل أن يجيب، دائماً ما يفعل، يتظاهر أنه لم يسمع شيئاً. هي دائماً من يحاول بدء حديث، وهو لا يرد إلا عندما تبدو أنها ستضطر إلى تكرار سؤالها، ولتغيير نبرة صوتها لتظهر الغضب. كم هو مرهق انتظاره حتى يرد.

- بادي؟

- ماذا؟

- ألم تسمعي؟

- أسمع ماذا؟

- أنت سمعتني.

- سمعت ماذا؟

سكتت. كنّا ننصت إليهما، رأيت هي ذلك. يحسب أنه فاز، وأحسبُ هذا أيضاً.

- سندباد؟

لم يرد، غير أنه لم يكن نائمًا، عرفت هذا من صوت تنفسه.

- سندباد.

أعرف أنه ينصت. لم أتحرك، لا أريد أن أجعله يحسبني ذاهبًا لأضربه.

- سندباد؟ فرانسيس؟

- ماذا؟

فكرت في شيء.

- ألا تحب أن تُنادى باسم سندباد؟

- لا.

- حسنًا.

ظللت صامتًا لوهلة، سمعته يتقلب، يقترب من الحائط.

- فرانسيس؟

- ماذا؟

- أتستطيع سماعهما؟

لم يمنحني ردًا.

- أتستطيع سماعهما يا فرانسيس؟

- نعم.

هذا كل شيء. أعرف أنه لن يقول شيئًا أكثر من ذلك. أنصتنا إلى الهمهمات الحادة القادمة من الطابق السفلي، أنصتنا معًا، لا أنا وحدي. أنصتنا لوقتٍ طويلٍ. لحظات الصمت كانت أسوأ شيء، تجعلك تنتظر أن يبدأ مرة أخرى، ربما أعلى هذه المرة. انصع باب ما، الباب الخلفي، سمعت الزجاج يهتز.

- فرانسييس؟
- ماذا.
- هكذا هو الحال كل ليلة.
- لم يقل شيئاً.
- قلت: هكذا هو الحال كل ليلة.
- خرج النفس حاداً من بين شفثيه. يفعل هذا كثيراً منذ احترقت شفثاه.
- إنهما فقط يتحدثان.
- هذا ليس حديثاً.
- بل هو كذلك.
- لا، بل هو صياح.
- لا، ليس صياحاً.
- قلت: بل هو صياح، لكن بصوتٍ منخفضٍ.
- أنصتُ في انتظار دليل. لا شيء.
- قال: لقد توقفا، لم يكن هناك شيء.
- بدا سعيداً لكن متوترٌ.
- سيفعلونها مجدداً غداً.
- قال: لن يفعلا، كانا فقط يتحدثان عن أي أشياء عادية.

*

راقبته يرتدي بنطاله. يغلق السحاب كل مرة قبل أن يغلق الزر في الأعلى، ويستغرق دهوراً في فعل ذلك. لكن وجهه لم يتبدل قط، ظلَّ

يحدق إلى يده بالأسفل، حتى بدا كأن عنده ذقنين. نسي القميص، فاضطر إلى إعادة الأمر برمته. أردت الذهاب إليه ومساعدته، لكنني لم أفعل، لو قمت بأي حركة سيتغير، سيتراجع ويصرخ.

قلت له: الزر في الأعلى يجب أن ينغلق أولاً، افعل هذا قبل أي شيء.
قلتها بصوتٍ عادي.

ظل يفعل ما يفعل. صوت الراديو القادم من الطابق السفلي بدا لطيفاً.
قلت: فرانسيس.

نظر إليّ. عليّ أن أعتنى به.
- فرانسيس.

أمسك بكلا طرفي بنطاله بيديه.
قال: لماذا تناديني بفرانسيس؟

قلت: لأن اسمك فرانسيس.
لم يبد على وجهه أي شيء.

قلت: إنه اسمك الحقيقي، وأنت لا تحب اسم سندباد.

جعل طرفي البنطال في يدٍ واحدة وأغلق السحاب بالأخرى، بنفس الطريقة القديمة. أزعجني، هذا غباء.

قلت: متأكد أنك لا تحبه؟
ظل صوتي عادياً.

قال: اتركني لحالي.
قلت: ماذا؟

لم يرد.

حاولت بطريقة أخرى.

- ألا تريدني أن أناديك فرانسيس؟

قال: اتركني لحالي.

استسلمت.

- سنندبااااا!

- سأقول لماما.

قلت: لن تهتم.

لم يرد.

قلت مرة أخرى: لن تهتم.

انتظرته أن يقول لماذا لن تهتم، سأضربه. لكنه لم يقلها، لم يرد.
استدار وأنهى ارتداء بنطاله.

لم أضربه.

قلت وأنا أفتح بابا الغرفة: لن تهتم.

ثم حاولت مجددًا.

- فرانسيس.

لم ينظر إليّ، خبأ نفسه في كنزته بينما يرتديها.

قلت: بص الحركة دي؟ وأعطيته رجل مية.

انهار قبل أن يستوعب الألم، انطرح أرضًا مثل جوالٍ ثقيلٍ. لقد فعلتها ورأيتها تحدث كثيرًا حتى لم تعد مضحكة. إنها مجرد عذر للتظاهر بأن إيذاءك لأحدهم ليس أكثر من مزحة. أنا لا أعرف حتى اسم من ضربته لتوّي، كان أصغر من أن يكون له اسم. ماتت صرخته ما إن أدرك أنني لن أفعل به شيئًا آخر.

الحركة الأخرى هي أن تشهر إصبعك مثل خنجر وتدفع به بين ضلوع أحدهم، وتديره بقوة، وتقول: "هل أنا أضايقك؟". هذه كانت جديدة في مدرستنا، في يوم الاثنين بعد عطلة نهاية الأسبوع. لا يمكنك أن ترخي دفاعاتك، حتى أقرب أصدقائك قد يفعلها فيك، إنها مزحة. أو قد يجذب أحدهم إحدى حلمتيك ويقول "صفارة"، بعضهم يصفر بالفعل وهو يفعلها. سندباد أعطوه صفارة ورجلاً ميتة في نفس الوقت. يحدث هذا للجميع، إلا تشارلز ليفي.

تشارلز ليفي أيضًا لم يفعلها في أحد. هذا غريب. بوسعه أن يجعلنا نقف جميعًا في طابور، مثلما يفعل هينو في صباح يوم الجمعة، ويعطينا جميعًا أرجلاً ميتة. أنت ترغب في الاستعراض أمام تشارلز ليفي، ترغب في أن تقول كلمات سيئة، ترغب في أن يراك قويًا.

*

ظلاً لوقتٍ طويلٍ دون قول شيء، لكن هذا لم يكن سيئاً، كانا يشاهدان التلفزيون أو يقرآن، أو تقوم ماما بالتطريز، لا يوترني هذا، تعبيرات وجهيهما عادية.

قالت ماما شيئاً في أثناء عرض الفيرجينيان.

- هل رأيناه في شيء آخر من قبل؟

بابا يحب الفيرجينيان، ويتظاهر بأنه لا يشاهده.

قال: أعتقد، لست متأكداً، ربما في شيء ما.

سندباد لا يستطيع قول الفيرجينيان جيداً، ولا يعرف حتى معناها، ولا لماذا اسم المسلسل كذلك. أنا أعرف.

- لأنه من فيرجينيا.

قال بابا: صح. من أين يأتي الدبليونون يا فرانسيس؟

قال سندباد: دبلن.

- شاطر.

نكزني بابا، فرددت نكزته بركبتي في ساقه. كنت أجلس على الأرض بجوار مقعده. ماما سألته إن كان يريد الشاي خلال الإعلانات، قال لا، ثم غير رأيه وصاح نعم.

دائمًا ما يتحدثان خلال نشرة الأخبار، يتحدثان عن الأخبار، أحيانًا لا يكون حديثًا، بل مجرد تعليقات.

- يا له من أحمق لعين.

- صحيح.

أستطيع دائمًا تحديد متى سيقول بابا عن أحدهم أحمق لعين: مقعده يئنُّ قبلها. دائمًا ما يقولها عن رجل، وهو دائمًا ما يقول شيئًا ما للمذيع.

- ومن سألك عن رأيك؟

المذيع الآخر هو من سأله، لكنني أفهم قصد بابا. أحيانًا أسبقه بقولها.

- أحمق لعين.

- جدع يا باتريك.

ماما لا تمانع أن أقول "لعين" في أثناء نشرة الأخبار. الأخبار مملة، لكن أحيانًا أشاهدها بانتباه، كلها. حسبت أن الأمريكيين يحاربون الغوريلات في فيتنام، هذا ما يقولونه⁽¹⁾، لكن هذا لا معنى له. الإسرائيليون يحاربون العرب، والأمريكيون يحاربون الغوريلات. من الرائع أن تحظى الغوريلات ببلدٍ خاص بها، ليست في أقفاصٍ مثل

(1) في اللغة الإنجليزية، تُطلق لفظة Guerrilla على الميليشيات والتنظيمات المقاتلة غير الرسمية، وتشبه كثيرًا لفظة Gorilla التي تعني حيوان الغوريلا. [ترجمة]

حديقة الحيوان، والأمريكيون يقتلونهم لذلك. هناك أمريكيون يُقتلون أيضًا، إنهم محاصرون ويكاد ينتهي أمرهم. الغوريلات عندهم طائرات هليكوبتر، يعيشون في دلتا نهر الميكونج، وهناك منطقة منزوعة السلاح. لا تبدو الغوريلات في حديقة الحيوانات كقومٍ تصعب هزيمتهم في الحرب. إنهم لطاف، يبدون كبارًا في السن، يبدون غير أذكىاء. أذرعهم رائعة، أحب أن يكون عندي ذراعان مثلهم. لم أصعد على السطح من قبل، كيفين فعل، وقتله أبوه عندما عرف ذلك بعدما عاد إلى البيت، مع أنه لم يصعد غير على سطح المطبخ المسطح لا أكثر. أنا أشجع الغوريلات، مع أن لديَّ عمًّا وعمَّة يعيشان في أمريكا، لم أرهما قطُّ. أرسلنا عشرة دولارات في الكريسماس، أنا خمسة وسنبداد خمسة، لا أذكر ماذا فعلت بهم.

- كان يجب أن أحصل على سبعة، لأني الكبير.

ولا أستطيع تذكر اسم العم والعممة اللذين أرسلها، بريندان وريتا أو سام وبو. عندي سبعة أبناء عمومة في أمريكا كذلك، اثنان منهما اسمهما كاسمي، لكنني لا أهتم، ما زلت أشجع الغوريلات، إلى أن سألت في مرة.

- لماذا يحارب اليانكيون الغوريلات؟

- ماذا تقول؟

- لماذا يحارب اليانكيون الغوريلات؟

- أسمع ذلك يا ماري؟ باتريك يريد أن يعرف لماذا يحارب اليانكيون الغوريلات.

لم يضحكا لكن كان هذا مضحكًا، أرى ذلك بوضوح. وددت أن أبكي، لقد أفشيت سري، أنا غبي. كرهت أن انكشف متلبسًا أكثر من أي شيء آخر، أكره هذا. هذا هو أهم شيء في المدرسة، ألا تنكشف وأن

ترى الآخرين ينكشفون بدلاً منك. لكن لا بأس مع ذلك، هذه ليست المدرسة. قال لي ما هي الميليشيات، وصار كل شيء مفهومًا الآن. قال: تستحيل هزيمتهم.

ما زلت مع هذا النوع من الغوريلات، الميليشيات. عادت النشرة للمذيع في الاستوديو، تشارلز ميتشيل.

- انظروا، رباط عنقه معوج.

ثم جاء ريتشارد نيكسون.

قال بابا: انظر إلى هذه الأنف!

- يبدو أكثر وسامة من بعضهم.

لم يستمر كثيرًا، فقط صافح بعض الناس. عندما عاد تشارلز ميتشيل كان رباط عنقه سليمًا. ضحكا، فضحكت معهما. لم يكن هناك الكثير بعد ذلك، فقط بقرتان ميتتان وفلاح يتحدث عنهما. كان غاضبًا. سمعت المقعد يئز.

- أحقق لعين.

لم يكن هناك أي شيء خاطئ، لا تلميحات، لا إشارات، لا تحفز، لا أصوات حادة. كل شيء عادي.

- وقت النوم يا عزيزي.

لم أمانع، أردت أن أذهب، أردت أن أتمدد صاحبًا لبعض الوقت. قبّلتها. حاول أن يدغدغني بذقنه، لكنني أفلت منه، ثم تركته يمسكني من دون أن ينهض من مقعده، ثم أفلت مرة أخرى.

- هل مامتك وباباك يتشاجران؟

- لا.

قلت: لا أقصد الشجار بالكلمات والركلات، بل بالصياح وما إلى ذلك.

قال كيفين: إذن الإجابة نعم، طوال الوقت.

- فعلاً؟

- نعم.

سعدت لأني سألت أخيراً، استغرقت اليوم كله كي أصل إلى السؤال. مشينا حتى دوليماونت، ولعبنا - في طقس مثلج- وعدنا أدراجنا، ولم أسأل حتى صرنا على طريق باريتاون، بالقرب من المتاجر.

- وعندك؟

- تقصد هل يتشاجران أيضاً؟

- نعم.

- لا.

- لماذا تسأل إذن؟ لا بد أنهما يفعلان.

- لا، قد يتجادلان أحياناً، لكن هذا كل شيء.

- لماذا سألتني إذن؟

قلت:- خالتي وزوجها، سمعت ماما تحكي عنها لبابا، ضربها زوجها فضربته، ثم اتصلت بالشرطة.

- ماذا فعلوا؟

قلت:- قبضوا عليه، جاءوا لأجله بسيارة ذات سرينة.

- هل دخل السجن؟

- لا، تركوه يذهب. جعلوه يعدهم أنه لن يفعلها مرة أخرى، على الورق، كتب ذلك ووقع تحت الكلام باسمه. ولو فعلها

مرة أخرى في أي وقت فسيدخل السجن ويقضي عشرة أعوام،
وأولاد خالتي سيُرسلون إلى أرتين وستحتفظ خالتي ببناتها، لأنها
لن تكون قادرة على الاحتفاظ بهم جميعًا.

- كيف يبدو زوج خالتك هذا؟

- ضخماً!

قال كيفين: عشر سنوات!

كان هذا مساوياً لأعمارنا.

- هذه فترة طويلة جداً لشخص لم يفعل شيئاً إلا ضرب أحدهم،
وماذا عنها؟ ألم تضربه أيضاً؟

قلت: ليس بقوة.

أحب اختراع الحكايات، أحب الطريقة التي تتوَلَّد بها التفصيلة
التالية في رأسي من لا شيء، تصبح منطقية وتمتد وتتوسع، وأستطيع
المتابعة فيها حتى النهاية، ذلك مثل أن أكون في سباق، وأنا الفائز
دوماً. أحكي الحكاية في اللحظة التي أخترعها فيها، لكنني أصدقها،
أصدقها فعلاً. هنا يكمن الفارق. لم يكن يجب أن أسأل كيفين من
الأصل، كيفين اختار خاطئ. كان يجب أن أسأل ليام. ربما أفلتُ منه،
لكنه على الأرجح سيذهب الآن ويحكي مامته عن خالتي وزوجها،
وستحكي مامته مع مامتي بدورها عن ذلك، مع أنهما لا تحبان
بعضهما كثيراً، يمكنك رؤية ذلك في الطريقة التي تظل كل منهما
تتحرك بها عندما تتقابلان في الشارع خارج المتاجر، كأنها مشغولة
جداً وعلى عجلة. ستحكي مع ماما وعندها ستسألني ماما عن ما
قلته لكيفين عن خالتي وزوجها، ولا أعتقد أنني ماهر كفاية للنجاة من
هذه المحادثة.

- ما الذي يجعلك تتحدث عن شجار الأهالي على أي حال؟

سيكون عليّ الهروب من البيت.

أنا لم أطلق أسماء على الخالة وزوجها، تعمدت ألا أفعل.

- أنا فقط كنت أمزح معه.

أفكر في الهروب من البيت على أي حال.

- كنت أضحك على كيفين.

لقد قضيت دهوراً -بعدها خرج هينو ليتحدث مع مدرس آخر-
أنظر إلى خريطة أيرلندا.

- أذهب به إلى النهر وأعود به عطشان.

ستضحك، تضحك دومًا كلما قلت شيئًا مثل ذلك، يجعلها تحسبني ذكيًا.

قال هينو: سأترككم لبضع دقائق يا سادة.

نحب جدًا أن نسمع منه ذلك، أكاد أستطيع سماع الظهور ترتخي،
وتستعد.

قال هينو: دقائق قليلة فقط، وسأترك الباب مفتوحًا، وأنتم
تعرفون جيدًا أذني الشهيرة.

قال فلوك كاسيدي: نعم يا سيدي.

لم يكن يمزح، لو كان من قال ذلك أحد غيره كان سيُضرب.

خرج هينو من الباب، وانتظر، وعاد إلى الباب وانتظر. ظللنا ننظر
إلى كتبنا، دون أن نرفع رؤوسنا لنرى إن كان لا يزال هناك. ثم سمعنا
خطوات حذائه تتوقف، ثم سمعناها مجددًا تدور وتبتعد.

- اللعنة على أذنك الشهيرة.

حاولنا ألا نضحك بصوت أعلى من اللازم. محاولة كتم الضحك
هذه أفضل بكثير من الضحك العادي، ضحكت أكثر مما أفعل

عادة، لم أستطع منع نفسي. احتجت إلى مسح وجهي بعدها. أخرجت الأطلس من حقيبتني. لم نستخدمه كثيرًا، فعلنا فقط لتعلم مقاطعات أيرلندا؛ أكثر مقاطعة يسهل تذكرها هي أوفالي، لأنها الأصعب، دبلن عادية ما دمت لم تخلط بينها وبين لاوث، ومشكلة فيرماناغ وتيرون هي أن تتذكر أيهما فيرماناغ وأيهما تيرون. حدقت إلى خريطة أيرلندا، من أعلاها إلى أسفلها، لم يكن هناك أي مكان أردت الهرب إليه، ربما باستثناء بعض الجزر. مع ذلك ما زلت أنوي فعلها. لا يمكنك أن تذهب إلى جزيرة ركضًا، عليك أن تُبحر إليها أو تعوم بعض الطريق. لكن هذا ليس مثل الألعاب، لا توجد قواعد هنا لتلتزم بها. ذات مرة هرب أحد أعمامي إلى أستراليا.

فتحت خريطة العالم في منتصف الأطلس، هناك أماكن في المنتصف لا أستطيع قراءة اسمها جيدًا لأن خط التقاء الصفحتين لا ينفرد بما يكفي لكي أقرأها، لكن يظل هناك أماكن عديدة غيرها. كنت جادًا.

قال هينو إن عيني حمراء، قال إني لا أنام بما يكفي، قال هذا أمام الجميع، وبخني بشدة، قال إنه سيتصل بأمي ويخبرها أن تتأكد من أنني أويت إلى الفراش بحلول الثامنة والنصف من كل ليلة، وأنه يجب ألا يُسمح لي بمشاهدة التلفزيون أكثر من اللازم.

انحنى مقتربًا من وجهي أكثر.

- هل كنت ثملًا بالأمس يا مستر كلارك؟

يسخر مني.

لم يكن عندنا تليفون، لكنني لم أخبره بهذا.

عمي ذهب إلى أستراليا وحده. لم يهرب، لكنه كان صغيرًا جدًا، لم يبلغ الثامنة عشرة بعد. كان عنده تجارته الخاصة وقارب.

لم أنم طوال الليل. ذلك هو سبب قول أُمِّي إن وجهي شاحبٌ
وقول هينو إن عيني حمراء. أنا من أبقيت نفسي مستيقظًا، فعلت
ذلك بنجاح تامًّا.

لم أعرف ما الذي يحدث عندما أخذت العتمة التامة تتحول إلى
الرمادي، هذا مخيف أكثر من الظلام. ثم أدركت إنه الفجر. بدأت
أصوات الطيور. كنت أنا الحارس، أتأكد من أنهما لن يتشاجرا
مجددًا، كل ما عليّ فعله هو عدم النوم. مثل القديس بطرس عندما
كان المسيح في الحديقة، عدا أن القديس بطرس ظل يروح في النوم،
لكن أنا لا، لم أنم ولو مرة. صنعت ركنًا في السرير وجلست هناك في
الظلام. منعت نفسي من الدخول تحت البطانيات، ضربت الحائط
برأسي، قرصت نفسي، ركزت بقوة في هدفي، ذهبت إلى الحمام ونثرت
الماء البارد على ملابس نومي. ظللت صاحيًا.

صاح الديك.

لا مزيد من الشجار. ذهبت إلى باب غرفتهما وأخذت أنصت دون
أن أتنفس، استطعت سماع تنفُّس بابا وماما، تنفس بابا صاحب،
وتنفس ماما يبدو كأنه يحاول اللحاق به. ابتعدت، وعدت للتنفس،
ثم أخذت أبكي.

تمَّت المهمة بنجاح.

صاح الديك فعلًا، لم اخترع هذا. قال (كوكو كووو كوووو). كان في
مزرعة دونيلي التي على الطريق، الجزء الصغير المتبقي منها. لم أسمع
صياح الديك من قبل، لكني رأيته مرارًا، بين الدجاج خلف السلك
الذي يحيط بهم، لم أعلم من قبل أنه ديكٌ إلا الآن، حسبته دجاجة
كبيرة، ملك الدجاجات مثلًا. كنَّا نحشر العشب بين فراغات الأسلاك
لنغريه بالاقتراب.

- إنه خطير.

- الدجاج ليس بخطير.

- هذا يبدو كذلك.

- انظر إلى عينيه.

- بيضه أكبر من البقية، بيضه أزرق.

لم يقترب منّا. ولم نتمكّن من إلقاء الطوب عليه عبر السلك.

صَرَخَتْ ماما، صَرَخَتْ بكلماتٍ لم أستطع تمييزها. وكسرت شيئاً ما، أظن أنها من فعلت لأن صوت الكسر جاء بعد الصراخ مباشرة، كأنه تنمة له. ثم ضحك هو، تلك الضحكة التي تعني أن لا شيء مضحك. ثم نشيج. نهضتُ لأغلق الباب، لكن عندما بلغته فتحتة أكثر.

- باتريك.

هذا كان سندباد.

- إنهما فقط يتحدثان.

قلت: اخرس.

عاد إلى النوم قبل أن يبدأ في البكاء مجدداً.

الأمر كله في يدي.

لقد توقفا، لا شيء، عادا إلى السرير، واحداً تلو الآخر، هو أولاً. لم يذهب إلى الحمام، رائحة نفسه ستكون مقرفة في الصباح. سمعت صرير السرير من ناحيته، ثم جاءت بعده. لم أدرك أن التليفزيون كان يعمل إلا بعدما أطفأته. سمعت خطواتها على السلم، على جانب السلم لتجنب الصرير، ثم مضت إلى الحمام، صوت الصنبور، صوت احتكاك فرشاة الأسنان؛ فرشتها الزرقاء وفرشته الحمراء، وأنا وسندباد الخضراء والحمراء الأصغر حجماً، أنا الحمراء. أغلقت الصنبور، وسمعت فقاعة الهواء تجري في الأنبوب حتى العلية، ثم مضت

باتجاه غرفتهما، فتحت الباب بأوسع ما استطاعت، ثم ارتقت على السرير -من ناحيته- وأغلقت الباب بحركة من يدها. هدوء من ناحية السلم، والضوضاء من ناحية غرفتهما.

ظللت مكاني، واقفًا. عليّ أن أظل ساكنًا، لو أني تحركت سيبدآن في الشجار من جديد. لا يُسمح لي بأي شيء إلا التنفس، لا أكثر. الأمر مثلما عندما تتوقف كاثرين أو ديردري عن البكاء، تقول ماما خمسة وأربعون ثانية، لو أنهما لم تبكيا لخمسة وأربعين ثانية فهما قد عادا للنوم. ظللت واقفًا، لم أعد، هذه ليست لعبة ولا يتعلق الأمر بالأطفال. لا أعرف كم أحتاج إلى أن أظل واقفًا، ظللت كذلك حتى بردت. لا أصوات إلا أصوات التقلب في السرير وصرير الألواح، أصوات الراحة والاسترخاء، الكل يرتاح إلا أنا.

أنا المسؤول، لا أحد يعرف ذلك إلا أنا. بوسعي الحركة الآن، الجزء الأسوأ انتهى: لقد فعلتها. لكنني عليّ البقاء صافيًا طوال الليل، يجب ألا أغفل واجب الحراسة ولو لحظة.

رودسيا⁽¹⁾، تقع بالقرب من خط الاستواء، ذلك الخط المتخيل الذي يحيط بمنتصف العالم، سيكون هناك أفيال وقرود، وأناس سود فقراء، الأفيال لا تنسى أبدًا، عندما تحين ساعة موتهم يمشون إلى مكان يُدعى مقبرة الأفيال، ثم يستلقون على الأرض ويموتون، إنها بعيدة جدًا، سأذهب إليها عندما أكبر، أعرف شيئًا آخر عن رودسيا، لقد سُميت على اسم سيسل رودس، لا أعرف السبب، لا أستطيع تذكر السبب، ربما هو من استعمرها أو اكتشفها، لم تعد هناك أي بلاد تنتظر الاستكشاف، صارت كل البلاد هنا على الخريطة ملونة، نظرت إلى باقي البلاد الوردية، كندا كبيرة جدًا، أكبر من أيرلندا بأربعين أو خمسين مرة، شرطة الخيالة الكندية، رجال شرطة تركب الأحصنة، رجال نحيفون

(1) Rhodesia، الآن هي زيمبابوي. [المترجم]

على صهوة أحصنة سريعة، ولا يرتدي أي منهم النظارات، يرتدون معاطف حمراء وبناطيل منتفخة من الأجناب، ومسدساتهم في الأغمدة المقفولة بزر يطرقع عند فتحه أو غلقه، كي لا تقع المسدسات عندما ينطلقون بسرعة وراء لصوص الماشية، لا يوجد لصوص ماشية في كندا، هناك مهربون، والإسكيمو لا يطيعون القانون، ويقتلون الدببة، ويربتون على ظهور كلابهم الهاسكي، ويجلدون الكلاب الأخرى، ذيول ملتوية، أعين واسعة.

- هيا، هيا، ولد شاطر.

الخريطة أمام وجهي. أستطيع شم رائحة الورق والملكتب.

هينو كان هناك.

لا أعرف ما الذي حدث، ما الذي يحدث.

- هيا، قم.

لم يبدُ هذا كصوت هينو العادي. كانت هناك يدان تحيطان بخصري، يدا رجل، ذراعا رجل. رُفعت. صرت أقف بجوار الملكتب، لا أرى إلا الأرض من تحتي. الأرض متسخة. هناك يدٌ على كتفي، تدفعني إلى الأمام، تثبتني. لم أرَ أحداً، لا أسمع شيئاً. خرجت من الباب، انغلق الباب.

وجه مستر هينيسي.

ينظر إليّ.

- هل أنت بخير؟

أومأت، مرة واحدة فقط.

- متعب؟

أومأت.

- لا بأس، يحدث هذا لنا جميعاً.

يد على خصري.

رُفعت.

لملمس قماش خشن.

متعب حتى أنني لا أستطيع رفع رأسي، ثقيلة جداً.

رائحة.

لطيفة.

صوت. لم أتحرك، لم أكن في سرير، الرائحة مختلفة، هذا جلد. رأيت ذراع الكرسي، كنت ممدداً على كرسي، على كرسيين، كرسيين متقابلين في محاكاة لسرير، وأنا في هذا السرير. كرسيين جلديين ذوي أذرع. ما زلت لا أتحرك. هناك بطانية فوقية وشيء آخر، معطف. البطانية رمادية، وأعرف هذا المعطف، أعرف هذا السقف، أعرف لونه، والشقوق التي تشبه الخريطة. النافذة عند الباب التي كانت تُفتح بقضيبٍ خاص. أعرف منفضة السجائر هذه التي يتصاعد منها الدخان، خيط دخان واهن. استغرقت وهلة لأدرك أنني في مكتب الناظر.

- استيقظت؟

- نعم يا سيدي.

- جيد.

فصل الكرسيين عن بعضهما ليسمح لي بالجلوس معتدلاً، وأخذ معطفه وأعادته إلى المشجب مع قبعته.

- ماذا بك؟

- لا أعرف يا سيدي.

- لقد رحمت في النوم.

- نعم يا سيدي.

- في الفصل.

- نعم يا سيدي... لا أذكر.

- ألم تنم كما ينبغي لك بالأمس؟

- نعم يا سيدي، استيقظت مبكرًا.

- مبكرًا؟

- نعم يا سيدي، سمعت صياح الديك.

- هذا مبكر جدًا.

- نعم يا سيدي.

- ألم في الأسنان؟

- لا يا سيدي، ألم في قدمي.

- قل لأمك عنه.

- حسنًا يا سيدي.

- عد إلى الفصل الآن، واسأل عمًا فاتك.

- حسنًا يا سيدي.

لم أرغب في العودة، كنت خائفًا، لقد انكشفت، كانوا ينتظرون وقوعي، لقد انكشفت. أنا وحيد، لا أزال متعبًا، وغبيًا، هناك شيء غير مفهوم.

لم يحدث شيء. طرقت على الباب قبل أن أدخل، هينو لم يكن أمامي عندما فتحت الباب. رأيت ليام بالقرب من النافذة، وفلوك كاسيدي. هينو كان يمشي في الممر بين المكاتب، لم يقل شيئًا، أو ما إلى

مكتبي. ذهبت إلى المكتب. لم ينظر إليّ أحدٌ بقسوة، لا ابتسامات ولا إيماءات، لم تقع على مكتبي أوراق تحمل تعليقات. اعتقدوا جميعًا أنني مريض، أن هناك شيئًا سيئًا جدًّا حلَّ بي. هينو لم يضربني، بل ساعدني على الخروج وكاد يحملني. نظروا إليّ جميعًا عندما عدت إلى الفصل كأنهم ينتظرون شيئًا، كأني على وشك تكرار ذلك مجددًا. لم يقل أحد شيئًا، ولا حتى كيفين.

شعرت بالغباء.

أردت أن أنام مرة أخرى، في البيت، أردت أن أظل مستيقظًا، أن أنام صافيًا.

طوال ما تبقى من اليوم، لم يسألني هينو شيئًا إلا عندما أرفع يدي. لم يحاول أن يكشف أحدًا، ولم يضرب أحدًا، وعرفوا جميعًا أن هذا بسببي.

- أي المدارات يقع شمال خط الاستواء؟

عرفت الإجابة، رفعت يدي، استخدمت يدي الأخرى للحفاظ عليها مرفوعة.

- أنا، أنا.

- باتريك كلارك.

- مدار السرطان يا سيدي.

- صح.

دق الجرس.

- ابقوا في أماكنكم. قيام! الصف الأول...

كانوا في انتظاري في الخارج، ليسوا في عصابة أو في شلة، تظاهروا أنهم ليسوا أيًا من ذلك، أرادوا أن يكونوا معي.

- لم أحب هذا كثيرًا.
- مستر كلارك؟
- هينو كان واقفًا عند الباب.
- نعم يا سيدي؟
- تعال إلى هنا.
- ذهبت، متوترًا.
- ليعد بقيتكم إلى بيته.
- تراجع إلى داخل الفصل ليسمح لي بالدخول، لم يغلق الباب، تراجع وجلس على سطح أحد المكاتب.
- حاول أن يبتسم ويبدو جادًا.
- كيف تشعر الآن؟
- لم أعرف كيف أجيب.
- أتشعر أفضل؟
- نعم يا سيدي.
- ما الذي يحدث معك؟
- لقد رحنت في النوم يا سيدي، لا أعرف.
- مرهق؟
- نعم يا سيدي.
- لم تنم بالأمس؟
- نوعًا ما، استيقظت مبكرًا يا سيدي.
- وضع يديه على ركبتيه وانحنى تجاهي قليلًا.

- هل كل شيء على ما يرام؟
 - نعم يا سيدي.
 - في البيت؟
 - نعم يا سيدي.
 - جيد، اذهب، هيا.
 - حسنًا يا سيدي، شكرًا يا سيدي.
 - اعرف من أصدقائك ما فاتك من الواجب وافعله في الغد.
 - حسنًا يا سيدي، هل أغلق الباب؟
 - نعم، شاطر.
- الباب كان أكبر من الفراغ المخصص له، الرطوبة جعلته يتمدد. جذبت المقبض فأنحشر في مكانه.
- كانوا خارج البوابة، يتظاهرون بأنهم لم يكونوا في انتظاري. أرادوا جميعًا أن يكونوا معي، أعرف ذلك. لم أشعر جيدًا حيال ذلك، وإن كان ينبغي لي أن أفعل، لكنني انزعجت. لا يرغبون في أن يتركوني وحدي، وأنا أعرف سبب ذلك، لا يريدون أن يفوتهم شيء، يريد كل منهم أن يكون الشخص الذي يساعد، يريدون جميعًا أن ينقذوا حياتي، لكن لا يعرفون ما السبيل إلى ذلك.

- ما الواجب الذي فاتني؟

سباق في إنزال حقائب الظهر وإخراج الدفاتر.

كلهم حمقى. تشارلز ليفي لم يكن هناك، ديفيد جيراتي لم يكن هناك أيضًا، على الأرجح ذهب مباشرة إلى بيته ليتناول الدواء لقدمه أو شيء من هذا القبيل، أما بقيتهم فقد أخرجوا دفاتر واجبهم.

أخرجت دفتري وجلست بجوار الحائط، رأسي تلمس الدرايزين، وتركت كيفين يعطيني دفتري.

تشارلز ليفي لا يهتم، إنه الوحيد الذي عرف ما الذي حدث فعلاً: أنا رحت في النوم. إنه يظل مستيقظاً طوال الليل في كل الأوقات، ينصت إلى مامته وباباه، ولا يهتم، ويقول خراء ونيك، ويطوح برأسه جانباً يضرب كراته الخيالية.

راقبوني جميعاً أدون ما فاتني. تركت رأسي تقع قليلاً ثم توقفت. لم أستمتع بهذا، كانوا جميعاً موجودين، وأنا لا أحبهم. كنت وحيداً. لم نأخذ الكثير من الواجب.

ثم أدركت شيئاً مضحكاً: أريد أن أكون مع سندباد.

- فرانسيس، أتريد هذه؟

كانت قطعة بسكويت، فقط بسكويت. أردتها لنفسني لكنني أردته أيضاً أن يأخذها. حاولت أن أعطيه إياها، وهو لا يريد أصلاً أن ينظر إليها.

أمسكت به.

- افتح فمك.

اختلفت شفتاه وأغلق فمه بإحكام، توقع أنني سأجذبه وأرغمه فتبيس حتى صار كامليت.

- افتح فمك.

رفعتها أمام عينيه.

- أترى؟

أغلق عينيه أيضًا. أخذت البسكويتة وأمسكت رأسه وأخذت أحشرها في فمه، وصرت أَدفعها حتى تفتتت ولم أعد أستطيع الإمساك بها. كانت بسكويتًا بالتين.

- أترى؟ إنها ليست إلا قطعة بسكويت، بسكويت!

ظل وجهه موصدًا تمامًا.

- بسكويتة بالتين.

أخذت ألتقط بعض الفتات من الأرض.

- أنا آكل منها، انظر.

أحببت فتات التين، طري وذو بذور صغيرة تتفتت في فمك. البسكويت المحيط به تفتت بالكامل ولم يعد منه ما يصلح للالتقاط.

ظل فمه موصدًا. لم يضع يديه ليسد أذنيه، لكنهما كانتا مغلقتين أيضًا، أعرف ذلك.

قلت: لقد أكلتها، ولم أتسمّم، انظر.

رفعت يديّ أمامه.

- انظر.

رقصت.

- انظر.

توقفت.

- لا أزال حيًّا يا فرانسيس.

لست متأكدًا إن كان يتنفس. بعض أجزاء وجهه كانت وردية وبعضها، مثل تحت عينيه، كانت بيضاء. يرفض أن يسمعني أو يراني. فكرت في إعطائه رجل ميتة - يستحقها - لكنني لم أهتم بذلك، اكتفيت

بركله، ركلته في ساقه. صوت الضربة هو ما لفت انتباهه، رأيت فمه ينتفخ. أردت ضربه مجددًا، لكنني لم أفعل.

إنه يرعبني.

إنه يستطيع إيقاف أي شيء يحدث، وأنا لا أستطيع.

- فرانسيس...

متيبس، متيبس.

- فرانسيس.

لمست قمة رأسه، مشطت شعره بأصابعي، لم يشعر بشيء.

- أنا آسف لأنني ركلتك.

لا شيء.

ذهبت وأغلقت الباب، أغلقته بقوة كافية كي يسمع صوته المزلاج لكن من دون أن أصفعه. انتظرت. انحنيت ونظرت من ثقب المفتاح، لم أتمكن من إيجاد الفراغ مكان المفتاح. لا فائدة أبدًا من ثقب المفاتيح. عدت حتى عشرة ثم فتحت الباب، على نحو عادي.

لا يزال كما هو، بنفس الحال.

أردت قتله، نويت قتله. ما يفعله ليس عادلاً. كل ما أردت كان مساعدته، لكنه لم يسمح لي، لم يتركني حتى أكون في ذات الغرفة معه، وها أنا في الغرفة معه، وسيعرف ذلك الآن.

أغلقت أنفه، ضغطت على منخريه بأصابعي، لكن ليس بقوة كي لا أولمه.

سيفتح فمه الآن.

أنفه جافة، ما يجعل التمسك بها أسهل. ليس لديه هواء الآن إلا الهواء الذي بداخله من قبل.

سيفتح الآن.

سيموت إن لم يفعل شيئاً.

- فرانسيس.

سيكون عليه أن يشهق الأكسجين ويزفر ثاني أكسيد الكربون، عاجلاً أم آجلاً. راقبت لوني وجهه، الوردى والأبيض، يتبدلان، شيئاً ما يحدث.

انفتح فمه -ولا شيء غيره- للحظة سريعة، وانغلق مرة أخرى، بسرعة سمكة ذهبية. لا أعتقد أنه تنفس، ليس نفساً كافياً، إنه يخادع.

- فرانسيس، أنت تموت.

ما زالت أنفه لا تتعرق.

قلت: ستموت لو لم تتنفس الأكسجين، في خلال دقائق، فرانسيس، من مصلحتك أن تتنفس.

فعلها مرة أخرى. فتح فمه وأغلقه بسرعة.

حدث شيء غريب: بدأت أبكي. ذهبت لأضربه، وقبل أن أضم قبضتي كنت أبكي. ظللت متمسكاً بأنفه لبعض ثوانٍ إضافية، فقط على سبيل التمسك به. لم أعلم لماذا أبكي، صدمني ذلك. تركت أنفه ووضعت ذراعيّ حوله، تلاقى يداي خلف ظهره. ظل متيبساً مغلقاً. فكرت أن احتضاني له سيجعله يلين، لا بد أنه سيؤدي إلى ذلك.

كنت أحتضن تمثالاً. لم أستطع أن أشمه، لأن أنفي كانت مفعمة بالملخاط الذي لا مجال للتخلص منه. ظللت على هذا الحال لأني لم أرغب في تركه. بدأت ذراعاي تؤلماني، تحوّل بكائي إلى مهمة متصلة بلا دموع. تساءلت، هل يعرف سندباد / فرانسيس أنني كنت أبكي؟ بسببه على الأرجح؟

لا أستطيع منع نفسي من البكاء هذه الأيام.

تركته.

- فرانسيس؟

مسحت وجهي، لكن أغلب الليل كان قد ذهب، تبخر.

- لن أضربك مرة أخرى بعد الآن، أبداً.

لم أتوقع منه إجابة أو أي شيء مشابه، انتظرت لوهلة، ثم ركلته، ثم خبطته، مرتين، ثم شعرت أن عمودي الفقري يتحوّل إلى عمود من الثلج: هناك من يراقبني. التفت، نظرت، لم أجد أحداً، غير أنني لم أستطع ضربه مرة أخرى.

تركت الباب مفتوحاً.

أردت أن أساعده. يجب أن يعرف ذلك، عليه أن يصبح مستعداً، مثلي. أردت أن أكون قادراً على الوقوف بجواره. إنه غصّ. أريده أن يستعد. أنا متقدم عنه، أنا أعرف أكثر مما يعرف. أردت أن أنسل إلى السرير بجواره ونصت إليهما معاً. لكن هذا أقوى مني؛ عندما لا يفعل ما أريده أن يفعل لا أستطيع منع نفسي من مضايقته، من تخويفه، من ضربه، من كرهه، هذا أسهل. إنه لا ينصت إليّ، لا يتركني أفعل أي شيء.

أكل عشاءه كأن شيئاً لم يحدث، وكذا فعلت. فطيرة الراعي، كعكة بطاطس الكريسماس⁽¹⁾ كانت ممتازة، قمتها مقرمشة وملمسها

(1) Christmas cake potato: أكلة أيرلندية، يُطلق عليها هذا الاسم لأنها كانت تُصنع عادة من بقايا طعام عشاء الكريسماس الغني، من البطاطس المهروسة وبقايا اللحوم، تُخبز فيما يشبه الكعكة، لكنها صارت مع الوقت وجبة محبوبة مستقلة بذاتها تُصنع مكوناتها من الصفر. وربما تكون من تنويعات فطيرة الراعي كما يقترح السياق. [المترجم]

الخارجي ناعم وجميل. أكل أُمِّي يجعلني أشعر كأن لا شيء خاطئ
بالعالم، ولن يحدث أي شيء سيئ أبدًا. أكله كله.
ذهبت إلى الثلاجة.

كي. إي. إل. في. أي. إن. إيه. تي. أو. أر.⁽¹⁾
هي من علمتني تلك الحروف، أذكر ذلك.

أحب الطريقة التي يعاندي بها مقبض الثلاجة عندما أحاول
فتحتها، وأفوز عليه كل مرة. كان هناك أربعة أنية زجاجية، أحدهم
مفتوح، حملت الإناء المفتوح بكلتا يديّ -الزجاج يوترني- إلى المائدة.
ملأت قدحي حتى قبل الحافة بقليل، أكره أن أسكب شيئًا.

قلت: فرانسيس، هل تريد لبنًا في قدحك؟

أردت أن ترى ماما.

قال: نعم.

لم أفعل شيئًا، كنت متأكدًا أنه لن يرد أو سيقول لا.

قالت ماما: بل قل ”نعم، شكرًا لك“.

قال سندباد: نعم، شكرًا لك.

وضعت المجرى الصغير على قمة الزجاجاة فوق حافة قدحه
وأخذت أصب، صببت نفس القدر الذي صببته لنفسي. لم يتبق في
الزجاجاة الكثير.

قال سندباد: شكرًا لك يا باتريك.

لم أعرف كيف أرد، ثم تذكرت.

(1) كلفينيتور Kelvinator: كانت شركة أمريكية لتصنيع الأجهزة المنزلية، على الأخص
الثلجات. [المترجم]

- لا شكر على واجب.

عدت من الثلاثة. ماما جلست، وبابا كان في الشغل.

قالت: هل كنتما تتشاجران؟

قلت: لا.

- هل أنت متأكد؟

- لا... أقصد نعم، لم نكن نتشاجر.

قال سندباد: لا.

قالت: أتمنى أن يكون هذا صحيحًا.

قلت: لم نكن نتشاجر.

ثم حاولت أن أجعلها تضحك.

- أقسم لك بشرفي.

فضحكت.

نظرت إلى سندباد، كان ينظر إلى ماما وهي تضحك، فابتسم، حاول أن يضحك لكنها توقفت عن الضحك قبل أن يبدأ.

قلت: تسلّم يد حضرتك على هذا العشاء المذهل.

لكنها لم تضحك أكثر من ذلك.

تمعنت فيه طويلاً محاولاً إدراك مكمّن الاختلاف. فيه شيء ما. لقد عاد توه إلى البيت، متأخراً، قبل موعد نومي مباشرة. كان يُفترض به أن يراجع واجبي وأن يختبر هجائي. وجهه مختلف، يميل إلى اللون البني، وفيه لمعة. التقط السكن ببطء، ثم نظر كأنه اكتشف حالاً وجود الشوكة على الناحية الأخرى من الطبق، والتقطها كأنه غير متأكدٍ مما هي، أخذ يراقب الدخان المتصاعد من طبقه.

إنه ثملٌ. أدركت هذا على حين غرة. جلست على المائدة بدفتر الهجاء كعذرٍ لوجودي، من الأمام هجاء الإنجليزية، ومن الخلف الأيرلندية. كنت مذهولاً، إنه ثملٌ، هذا جديدٌ. لم أر ذلك من قبل، بابا ليام وأيدان يعوي على القمر، ماذا يفعل بابايا عندما يثمل؟ إنه يملئ على نفسه كل شيء يفعل، أستطيع تمييز هذا من وجهه، يركز بشدة. وجهه كان مشدوداً من ناحية ومرتخياً من الأخرى. كان لطيفاً، ابتسم عندما لاحظ وجودي.

- ها أنت ذا!!

لم يقل هذا من قبل قط.

- هل أنت هنا لتختبرني؟

وجعلني أختبره في الهجاء. أجاب على ثمانية من أصل عشرة، لم يستطع أن يتهجى أجرافيت⁽¹⁾ ولا ريذم⁽²⁾.

لكن المشكلة ليست هنا، إن ما بينهما لا ينهار بسبب أن بابا يسكر. ليس في البيت إلا زجاجة نبيذ واحدة، تفقدت ذلك بنفسي، وكان الأمر كذلك على الدوام. لا أعلم شيئاً عن ذلك، عن كيف تسكر وكمن من الشرب تحتاج إليه لتفعل وما الذي يحدث حينها، لكنني عرفت أن هذا ليس السبب. بحثت عن آثار أحمر شفاه على ياقته، رأيت ذلك ذات مرة في مسلسل، لكن لم أجد شيئاً مماثلاً. آثار ذلك تساؤلي دائماً على أي حال، لماذا قد يكون هناك أحمر شفاه على الياقة؟ هل النساء لا تجيد التصويب في الظلام؟ لا أعرف في الواقع لماذا أنظر في ياقة بابا.

(1) Aggravate = تفاقم. [المترجم]

(2) Rhythm = إيقاع. [المترجم].

لا أجد دليلاً أن هناك مشكلة. أحياناً لا أصدق أن هناك واحدة حتى، وأفكر أن لا شيء خاطئ، من الطريقة التي يشربان بها الشاي معاً ويشاهدان التلفزيون، لكنني أعود فأنبئه نفسي قبل أن أقع في فخ السعادة.

إنها جميلة، وهو لطيف، فما المشكلة؟

صارت تبدو أنحف، وصار يبدو أكبر. صار يبدو وغداً، كأنه يرغب نفسه على أن يبدو وغداً. كانت تنظر إليه طوال الوقت، كانت تنظر إليه عندما لا يلاحظها وتتأمله طويلاً، كأنها تبحث عن شيء أو تحاول أن تتعرف عليه، كأنه يقول إنه شخص تذكر أنها تعرف اسمه لكنها غير متأكدة إن كانت ستحبه لو تذكرته جيداً. أحياناً يفتح فمها ويظل كذلك وهي تنظر إليه. تنتظر منه أن ينظر إليها. تبكي كثيراً، تحسب أنني لا أراها وهي تفعل، عندما تلاحظني تمسح عينها بطرف كمها وتجعل نفسها تبتسم أو حتى تضحك، كأن بكاءها لم يكن إلا خطأً غير مقصود تتداركه.

ليس هناك أي دليل.

مستر أودريسكول صاحب البيت على أول الشارع القديم لم يعد يعيش هناك، ولم يكن ميتاً أيضاً، لقد رأته ذات مرة. بابا ريتشارد شيلز أحياناً لا يعيش في بيتهم، قال لي ريتشارد شيلز إنه يضطر إلى الذهاب إلى الشغل في مكان ما في...

- إفريقيا.

لكنني لا أصدقه. ذات مرة عين مامته أصبحت سوداء. ماما إدوارد سوانويك هربت مع طيار من إير لينجوس⁽¹⁾، كان يطير بطائرته فوق بيتهم، حتى انهارت إحدى مداخنها. لم تعد أبداً. وآل سوانويك...

(1) Aer Lingus: شركة الطيران الوطنية الأيرلندية. [المترجم]

- أو من تبقوا منهم.

بحسب ما قالت ماما كيفين، انتقلوا إلى سوتون.

الدور علينا. لم أر إدوارد سوانويك مرة أخرى. الدور علينا، أعرف ذلك، ويجب أن أكون مستعدًا.

راقبناهما. تشارلز ليفي يحرس المرمى، البوابة مغلقة خلفه. شون ويلان يركل الكرة في البوابة، حان دوره لأن يصير حارسًا. تشارلز ليفي يحصل على الكرة، يركل، تصيب البوابة، يتبادلان الأماكن مجددًا. رأس تشارلز ليفي تنتفض أحيانًا. الكرة تجعل البوابة ترتج.

قال كيفين: إنه لا يحاول صدها.

قلت: لا يريد أن يقف في المرمى.

لا يقف في المرمى إلا الحمقى.

لم يكن هناك إلا هما. لا تزال أغلب البيوت الجديدة بلا سكان، لكن طريق البيوت الجديدة أصبح تامًا على ما يبدو الآن، بعدما اتصل بشارع باريتاون الرئيسي ومهدت الفجوة بين الطريقين. اسمي كان محفورًا في الأسمنت، لكن هذا توقيعي الأخير، سئمت من هذا. صار للطريق اسم: تشيستنت أفنو، دقوا لافتة باسم الطريق على حائط بيت آل سيمبسون لأنه كان في زاوية الطريق. حملت اللافتة الاسم باللغة الأيرلندية كذلك: Ascal na gCastán. عندما تقع الكرة عن الشارع تسمع احتكاكها بالحصى والطوب. لا يزال الغبار في كل مكان مع أننا نكاد نكون في الشتاء. لا تزال الطرق الجانبية من تشيستنت أفنو لا معنى لها، يصعب تخيل الشكل الذي ستكون عليه عندما يتم البناء في النهاية.

عاد تشارلز ليفي لحراسة المرمى، صدّ ركلة رغبًا عنه، فقد أصابته في قدمه مباشرة. تمكّن شون ويلان من اتقان إعادة المحاولة، أحرز هدفًا من ركلة أرضية، وارتجت البوابة.

تقدمنا أنا وكيفين.

قال كيفين: ثلاثة وبدل.

تجاهلانا.

قال كيفين: يا شباب، ثلاثة وبدل.

تشارلز ليفي انتظر أن يُغلق شون ويلان البوابة جيدًا مرة أخرى، قبل أن يركل الكرة. أصابت الكرة ركن العمود ثم طارت أمامنا. ركضت وراءها، فعلت هذا لأجل شون ليفي. ركلت الكرة له، مراعيًا أن تذهب إليه مباشرة. انتظر حتى توقفت الكرة تمامًا، كأن هذا يعني أنه ليس مضطرًا إلى الاعتراف بأنني مررتها له، لأنه حتى لم ينظر إليّ.

حاول كيفين مرة أخرى.

- أتريدون لعب ثلاثة وبدل؟

نظر تشارلز ليفي إلى شون ويلان، هزّ شون ويلان رأسه، واستدار تشارلز ليفي ليواجهنا.

- اذهبا ونيكا أنفسكما.

أردت أن أذهب، لم أسمعها بهذه الطريقة من قبل، قالها كأنه يعني كل حرف فيها. هذا أمر، لا خيار لنا، سيقتلنا لو لم نذهب. عرف كيفين هذا أيضًا، أستطيع رؤية أنه يتململ استعدادًا للذهاب. لم أقل شيئًا آخر حتى صار بوسع تشارلز ليفي رؤية أننا ذاهبون.

قلت: سنقف نحن في المرمى، أنا وهو.

- بوسعك أن تظل خارج المرمى طوال الوقت.

تشارلز ليفي ركل الكرة في البوابة، وشون ويلان خرج منها. أحرز شون ويلان هدفًا قبل حتى أن يصل تشارلز ليفي إلى البوابة، وبدلاً مجددًا. هذه المرة هزّ شون ويلان كتفيه ومرّر تشارلز ليفي الكرة إليّ، أنا، وليس لكيفين.

تركته يقطع الكرة مني، تركته يفوز بكل الالتحامات، أخذت أجعل الكرة تجري أمامي على مبعدة مني كي لا يضطر إلى عرقلتي، كنت أكاد أمرر الكرة له. أردته أن يفوز، أردته أن يحبني. لعبت بقسوة مع شون ويلان. كنت في ملابس جيدة، ماما صارت تجعلنا نرتديها طوال أيام الأحاد. لم أضطر إلى الوقوف في المرمى ولا مرة، لأنني لم أفز. أترك تشارلز ليفي يتجاوزني عندما يكون خارج المرمى، وأترك كيفين يفعل عندما يكون تشارلز ليفي داخله، كان أحدهما بالخارج طوال الوقت، لذا لم أفز قط. لم أمانع، المهم أنني ألعب كرة القدم مع تشارلز ليفي، أقرب منه، أظهاره بأني أحاول قطع الكرة منه. إنه يلعب معي.

كان لاعبًا سيئًا، أما شون ويلان فكان جامدًا جدًا. التصقت الكرة بقدمه طوال الوقت، لا يتركها إلا عندما يرغب في ذلك. الآن وقد صرنا أربعة اتضح أنه أفضل بكثير مما كان عندما كانا اثنين فقط. جعل يمرر الكرة من بين أرجلنا، ويدحرجها تحت قدميه، ويراوغك ليمنعك من أن تصل إليه. كان يصوب الكرة في الرصيف فتقفز إلى أعلى، فيركلها على الطاير إلى الشبكة/البوابة؛ فعل ذلك سبع مرات. كان يقطع الكرة من تشارلز ليفي، ضربه بمرفقه ودفع بنفسه بين تشارلز ليفي والكرة.

قلت: فاول.

لكنهما تجاهلاني. كانا يضحكان، يتدافعان، يحاولان عرقلة بعضهما. في المرة التالية التي كانت فيها الكرة مع كيفين تظاهرت بأني أحاول عرقلته، ركلني.

رفع تشارلز ليفي قدمه في الهواء ليركل الكرة، لكن شون ويلان ركلها من أمامه قبله ودخلت في المرمى، وركل تشارلز ليفي الهواء، وصاح فزعاً، وأخذ يقع ببطء -من دون أن يضطر إلى ذلك- وأخذ يضحك.

قال لشون ويلان: يا وسخ!

كرهت شون ويلان. قام بحركة الرصيف مرة أخرى، قفز كيفين بعيداً عن طريق الكرة، ارتجت البوابة بشدة، خرجت مسز ويلان.

قالت: ابتعدوا من هنا، اكسروا بوابة شخص غيري، وأنت يا شون، إياك أن توسخ بنطالك.

عادت إلى الداخل.

حسبت أننا سنذهب إلى مكان آخر، لكن شون ويلان لم يتحرك، ولا تشارلز ليفي. انتظروا أن تغلق مسز ويلان الباب، ثم عادا إلى اللعب. أخذت أنظر إلى البوابة في كل مرة ترتطم الكرة بها، لم يحدث شيء.

ماتت اللعبة. جلسنا قبالة الحائط. كانت هناك فجوة في الطريق حيث سيضعون شيئاً ما عندما يتم البناء بالكامل، لا يمكنك أن تخمّن كنه هذا الشيء. حديقة آل ويلان كانت محفورة، كتل من الطين البني، مثلما في الريف.

قلت: لماذا لا يوجد عشب؟

قال شون ويلان: لا أعرف.

إنه لا يريد الإجابة، أستطيع رؤية هذا في وجهه. نظرت إلى وجهه كيفين لأرى تعبيره، لأرى فيما يفكر. قال تشارلز ليفي: لا بد أنه سينمو.

كيفين كان ينظر حوله إلى الطين، كأنه ينتظر انبثاق العشب مرة واحدة، أردت أن يتابع تشارلز ليفي الكلام.

سألت: إلى كم يحتاج من الوقت؟ قال: إيه؟ وأنا أعرف منين؟ سنين أو أي خرا. وافقته: صحيح.

جلست بجوار تشارلز ليفي، قبالة الحائط، وكيفين. قال كيفين: لنذهب إلى الحظيرة.

قال تشارلز ليفي: لماذا؟

وافقته، لم يعد هناك شيء يستحق الزيارة، لم يعد للحظيرة معنى بعد الحريق، باتت مملّة. ذهبت الفئران، ذهبوا إلى حدائق بعض البيوت الجديدة. رأيت طفلة صغيرة عندها أثر عضة فأر، كانت تعرضها على الجميع. كل ما لا يزال يمكنك فعله هو إلقاء الحصى على حوائط الحديد المموج الصدئة المتبقية، والبقاء لترى قشور الصدأ تقع عنها. الضجة الصادرة عن ذلك ظلت ممتعة لبعض الوقت.

لم يرد كيفين على تشارلز ليفي، كان هذا شعورًا لطيفًا: هو من قال الشيء الغبي، لا أنا. عادة ما أفعل أنا. بل كان شعورًا أفضل اللطيف.

قلت: الحظيرة مملّة.

لم يقل كيفين شيئًا، ولا تشارلز ليفي. لكن جلستنا هكذا لم تكن مملّة، بل أحببتها، نحن، نجلس هنا، لا نفعل شيئًا. لم يكن هناك

أي شيء ننظر إليه عدا البيوت عبر الشارع. تشارلز ليفي يعيش في أحدها، لا أعرف أيهم، تساءلت إن كان بيته هو ذلك الذي فيه تل عالٍ من الحجارة المهشمة في الحديقة، حجارة وطين وأسمنت جاف وصناديق كرتونية تبرز منه، وحشائش عالية تنمو من تلقاء نفسها، ذلك البيت الذي فيه نافذة الباب الأمامي مكسورة. قررت أنه بيته فعلاً، يبدو ملائماً. خفت من مجرد النظر إلى هذا البيت، وأثار حماسي في الوقت نفسه. كان جامعاً، فقيراً، مجنوناً، جديداً وعتيقاً، ذلك التل المصطنع سيظل هناك لأعوام طويلة، الأعشاب ستتحني وتتحوّل إلى اللون الرمادي وتصبح دائمة. أعلم كيف هي رائحة ذلك البيت: حفاضات وبخار. أردت أن أدخله، وأن أكون محبوباً.

تشارلز ليفي يجلس بجواربي. ضرب برأسه الكرة المتخيلة، ثلاث مرات، بوم بوم بوم، بلا صوتٍ، ثم استقرت رأسه. كان يرتدي أحذية رياضية، فيها قطع حيث يلتقي المطاط بالقماش، القماش كان رمادياً مهترئاً. جورباه كانا برتقاليين، في يوم أحد. كان يقول "نيك" بطريقة مثل... مثل الطريقة التي أتمنى أن أقولها بها. يجب ألا يكون صوتها مثل أي كلمة أخرى، يجب أن تكون سريعة حاسمة قاسية. عندما يقولها تشارلز ليفي تبرز معها رأسه إلى الأمام كأنها ستتابع حتى تصيب وجهك ذاته. تصيبك الكلمة بعدما ترتد رأسه إلى مكانها، أي كلمة تتبعها تحلق مثل طائرة فوق الرؤوس. (نيك) هي اللكمة، وما يتبعها هو الشهقة التي تخرج من الضحية.

نيك نفسك.

أردت أن أسمعها منه.

سألته: هل قمت بالواجب؟

- نيك نفسك.

قلت في الظلام لسندباد: نيك نفسك.

أعرف أنه سمعها، صار بعدها أكثر صمتًا، لقد توقّف عن التنفس.

في العادي كان سيتابع التقلّب في الفراش.

قلت: نيك نفسك.

أتدرب عليها.

وهو لن يتحرك قيد أمّلة.

راقبت تشارلز ليفي، درسته. قلدت حركة رأسه، وحركة أكتافه، أخذت أضيّق عينيّ مثله. عندما يذهب بابا أو حتى ماما، سأضرب الكرة الخيالية برأسي، سأخرج وألعب، سأذهب إلى المدرسة في اليوم التالي بواجب محلول بالكامل. أريد أن أكون مثل تشارلز ليفي، أريد أن أكون صلبًا، أريد أن أرتدي صندلاً بلاستيكيًا، وأطرقعه على الأرض كلما مشيت، متحديًا أن ينظر إليّ أحد. تشارلز ليفي لا يتحدى أحدًا، بل هو تجاوز هذه المرحلة، إنه لم يعد مدرّجًا أصلًا لوجود الآخرين. أريد أن أصل إلى هذا المستوى، أريد أن أنظر إلى بابا وماما ولا أشعر بشيء، أريد أن أكون مستعدًا.

قلت لسندباد: نيك نفسك.

صار نائمًا.

- نيك نفسك.

صاح عاليًا في الطابق السفلي، أقصد بابا، مثل زئير.

قلت: نيك نفسك.

سمعت الدموع تنهمر في الردهة.

- نيك نفسك.

انصفع باب، باب المطبخ، أعرف هذا من صوت حفيف الهواء.

صرت أبكي أنا أيضًا، لكن في المرة القادمة سأكون مستعدًا.

*

وقف مستندًا إلى عمود في الساحة، بزواية تجعل من الصعب على أي مدرس يمرُّ من هنا أن يراه. كان يدخن، وحده.

لقد دخنت من قبل؛ عصابة منا اجتمعت حول عقب سيجارة وأخذنا نتظاهر أننا نسحب منها أكثر مما سحبنا بالفعل، ونحتفظ بالدخان في صدورنا لدهور. عملنا على التأكد من أن الجميع رأى الدخان يخرج من أفواهنا في خطوات مستقيمة رقيقة، دخان حقيقي نابع من تبغ سجائر محترق. كنت ماهرًا في ذلك.

تشارلز ليفي كان يدخن وحده. لم نفعل ذلك قطُّ. السجائر كانت شحيحة جدًا وتصبح سرقتها من المتاجر، حتى من توتسي ذاتها، لذا يتحتم عليك مشاركتها مع أحدهم، هذه هي الفكرة كلها. لكن هذا ليس الحال مع تشارلز ليفي، فهو يدخن وحده.

أثار هذا رعبي. إنه يقف وحده، وحده تمامًا. لا يبتسم أبدًا، ابتسامته غير حقيقية. ضحكته مثل ضجة تبدأ وتتوقف فجأة مثل آلة. لم يكن مقربًا إلى أحدٍ، يقضي بعض الوقت مع شون ويلان لكن هذا كل شيء، ليس له أصدقاء. نحن نحب العصابات، التجمعات والفورات، الانتماء إلى شيء. إنه قادر على أن تكون له عصابته الخاصة إن أراد، عصابة حقيقية، مثل جيش، لكنه لا يعرف ذلك. بعضنا يدفع بعضًا في الطابور كل صباح لنقف بالقرب منه، وهو لا يعرف ذلك أيضًا، كانت هناك صراعات تدور حوله، قتالات عنيفة لا تمسه أبدًا.

كنت وحدي. يخرج البخار من فمي مثل دخان السجائر. أحيانًا أضع أصابعي عند فمي كأني أحمل سيجارة، وأستنشق، ثم أنفخ البخار، لم أعد أفعل ذلك الآن، ولن أفعل، أنا فقط كنت أعب.

هذا كان جامدًا، نحن الاثنان وحدنا. الحماس جعل أمعائي تتقلص حتى أمتني.

تكلمت.

- أعطنا نفسًا.

فعل.

أعطاني السيجارة. لم أصدق نفسي، كان هذا شديد السهولة. أخذت يدي ترتجف لكنه لم يرَ هذا، لأنه لم يكن ينظر إليّ في الواقع. كانت سيجارة ميجور⁽¹⁾، أشد الأنواع. تمنيت ألا تجعلني أتقيأ. راعيت أن تكون شفطاي جافتين، كي لا أترك أثرًا من اللعاب عليها. أخذت نفسًا صغيرًا وأعدتها إليه بسرعة. شعرت بما يشبه الانفجار داخل فمي، لقد ضرب الدخان حلقي بسرعة أكثر من اللازم، مثلما يحدث في بعض الأحيان. لكنني تمكنت من كتمانته، قتلت السعال في مهده وقبضت على الدخان وبلعته. كان ذلك مريعًا، لم أدخن ميجور من قبل قط، أحرقت حلقي وقلبت بطني، تعرّق جبیني، جبیني فقط، عرقًا باردًا. رفعت وجهي، صنعت ما يشبه الأنبوب بفمي وتخلّصت من الدخان، بدا شكله رائعًا وهو يخرج، بدا كما ينبغي له أن يبدو تمامًا، وأخذ يتصاعد إلى سقف السقيفة. لقد فعلتها.

كان يجب أن أجلس فورًا، قدمي لم تُعدّ تحملني، هناك دكة في الخلف بعرض السقيفة، ذهبت إليها، سأكون بخير خلال دقيقة، أعرف هذا الشعور.

(1) Major: نوع سجائر أيرلندي، من إنتاج شركة P. J. Carroll & Company Limited. [المترجم]

قلت: كان هذا رائعًا نيك.

ترددت الأصوات بصدى رائع تحت السقيفة، عميقة ومجوفة.

قلت: أنا أحب التدخين، إنه جامد نيك، أليس كذلك؟

أدركت أنني أثرر كثيرًا.

تحدث.

قال: أحاول الإقلاع عن تلك الأشياء المنيوكة.

قلت: نعم.

لم يكن هذا كافيًا.

تابعت: وأنا كذلك.

أردت أن أقول المزيد، أتحرق شوقًا إلى ذلك، إلى متابعة الحديث، لإطالته حتى يدق الجرس. أخذت أفكر في سرعة بحثًا عن شيء أقوله، أي شيء غير غبي، لم أجد شيئًا. نزل كيفين الساحة، جعل ينظر في الأنحاء، لم يرانا بعد، سيُفسد اللحظة؛ كرهته.

تشكّل شيء ما في رأسي، ارتحت لمجرد ورود الفكرة قبل أن تختمر.

قلت: ها هو الأحمق المنيوك.

نظر تشارلز ليفي.

قلت لأتأكد من إيصال الفكرة: كيفين كونواي.

لم يقل تشارلز ليفي شيئًا. أطفأ سيجارته ووضعها في علبته ووضع العلبه في جيبه. بوسعي رؤية هيكل العلبه من خلال بنطاله.

شعرت بشعورٍ جيدٍ، لقد تجرّأت. نظرت إلى كيفين، لم أحد بنظري عنه، لكنني كنت خائفًا، لم يعد عندي أحد، مثلما أردت بالضبط.

مشى تشارلز ليفي مبتعدًا، خرج من الساحة، خرج من المدرسة. لم تكن معه حقيبته المدرسية، كان يزوغ، لم يأبه بشيء، لم أستطع تتبعه، لم أستطع حتى أن أفكر في الأمر، سيكون هناك مدرسون قادمين وأهالٍ في الخارج، والجو بارد؛ لا أستطيع فعلها. على أي حالٍ لقد قمت بواجبي كله ولا أود أن أضيع ذلك هدرًا.

نهضتُ وخرجتُ من تحت السقيفة كي يستطيع كيفين أن يراني، تظاهرتُ أي ما زلت أحبه، لكنني أنوي التزويغ، عمًا قريب، وحدي تمامًا، سأزوغ يومًا كاملًا، ولن أحكي لأحدٍ عن ذلك، سأحكي فقط عندما يسألونني، ولن أحكي وقتها الكثير. سأفعلها وحدي. أعددت قائمة.

الأشياء التي سأحتاج إليها: نقود وطعام وملابس. ليس عندي نقود، النقود التي جمعتها يوم التناول كانت في دفتر توفير بريدي، لكن ماما معها الدفتر، ستعيدها إليّ عندما أكبر، هذه خسارة كبيرة، أنت لا تشتري إلا الكتب وملابس المدرسة عندما تكبر، لم أر الدفتر من قبل سوى مرة واحدة.

- هل أحتفظ لك به في مكان آمن؟

- حسنًا.

كان به ثلاث صفحات من الأختام، قيمة كل ختم شلن، وإحدى الصفحات لم تكن ممتلئة، لم أستطع أن أتذكر كم كانت قيمتهم جميعًا، به ما يكفي على أي حالٍ، لقد حصلت على أموالٍ من كل أقاربنا وبعض جيراننا، حتى العم إيدي أعطاني ثلاثة بنسات، مهمتي هي الحصول على ذلك الدفتر.

أما الطعام فيسهل أمره: علب الطعام المعدنية. تدوم تلك العلب لأنها تُعبأ بتفريغ الهواء، فتظل طازجة لأطول وقتٍ، تفسد فقط لو

كان هناك انبعاجات كبيرة في العلبة، فقط لو كانت كبيرة، فقد أكلنا من علب ذات انبعاجاتٍ صغيرة ولم يحدث لنا شيء قط. انتظرت ذات مرة أن يصيني منها التسمم -أردت أن أتسمم، لأثبت ذلك لبابا- لكنني لم أحتج حتى إلى دخول الحمام قبل اليوم التالي. علب الفاصوليا هي الأفضل، إنها مغذية جدًا، وأنا أحبها. سأحتاج إلى إحضار فتاحة علب أيضًا، الفتاحة التي عندنا من النوع المثبت في الحائط، سأحتاج إلى سرقة واحدة من توتسي، سرقنا واحدة من عندها من قبل، لكن لم نستخدمها، دفناها، لم أفتح علبة بفتاحة من هؤلاء من قبل، علب الطعام المعدنية ثقيلة.

وقع شجارٌ كبيرٌ آخر، شجارٌ صاخبٌ. ركض كلاهما إلى خارج البيت، هو من المقدمة وهي من الخلف، هو ذهب وهي عادت. وهذه المرة هي أيضًا صاحت عاليًا. هناك شيء ما في رائحة نفسه. لم أراه عندما عاد إلى البيت إلا عبر النافذة. عاد إلى البيت، تبادل الصياح، ذهب. كان الوقت متأخرًا وكنا في السرير بالفعل. ارتج الباب، ثم عاد المناخ في الطابق السفلي إلى الطبيعي.

- هل سمعت ذلك؟

سندباد لم يرد. ربما لم يسمعه، ربما هو قادر على أن يختار ماذا يسمع وماذا لا يسمع. أنا سمعت. انتظرت عودته، أردت أن أنزل لها، غير أنها أذته هذه المرة، هذا ما شعرت به من صوتيهما.

سأحضر معي القليل من علب الطعام، وسأشتري المزيد عندما أحتاج إليها. سأخذ معي تفاحًا، لكن لن آخذ برتقالًا، فهو يتطلب خطواتٍ عديدة. الفاكهة مفيدة لصحتك، لن أجلب معي شيئًا أضطر إلى طبخه. سأحضر سندوتشات وألفها في أوراق الألومنيوم. لم أكل الفاصوليا باردة من قبل قط، سأكلها وأترك الصلصة.

انزعجت من أنها صاحت، هذا لا يليق.

سأتناول عشاءً جيِّدًا قبل أن أغادر.

وأخيرًا الملابس. سأكون مرتديًا بعضها وسأحتاج معي إلى بعض آخر، اثنين من كل شيء ومعطف المطر، يجب أن أتذكر تركيب غطاء الرأس عليه قبل الذهاب. أغلب الأولاد الذين يهربون ينسون الملابس الداخلية والجوارب، لكنهم على قائمتي، لا أعرف أين تحتفظ ماما بهم، ربما في خزانة التجفيف⁽¹⁾، لكنني لست متأكدًا. نجد ملابس داخلية وجوارب نظيفة على فراشنا في صباح كل يوم أحد عندما نستيقظ، كأن بابا نويل هو من وضعهم هناك. في ليالي السبت بينما نستحم، نضع ملابسنا الداخلية القديمة أمام أعيننا كي نحميها من رغوة الصابون بينما تغسل لنا شعرنا.

عاد بعد وقتٍ غير قليل. سمعت وقع خطواته بجوار البيت ثم انفتح الباب الخلفي. التليفزيون كان يعمل، ماما في غرفة المعيشة. ظلّ في المطبخ لبعض الوقت، ربما كان يصنع الشاي أو ينتظرها أن تلاحظه، لأنه أوقع شيئًا وتدحرج هذا الشيء. ظلّت في غرفة المعيشة. ذهب إلى الردهة، وتوقف لوهلة، ثم سمعت إحدى درجات السلم ذات الصرير، لا يتحاشاها أبدًا. ثم سمعت نفس الصرير، إنه يعود. سمعت احتكاك باب غرفة المعيشة بحافة مشمع الأرضية بينما ينفتح. أنصتُ بكل جوارحي.

تجشّأت، انتفض ظهري كأني أحاول منع أحدهم من تثبتي، تجشّأت مرة أخرى، شعرت بألم في حلقي، أردتُ كوبًا من الماء. أنصت بحثًا عن صوتيهما، حاولت أن أسمع ما وراء ضجة التليفزيون، لا

(1) Hot Press (وتُعرف أيضًا بـ airing cupboard): في بيوت أيرلندا وأسكتلندا، يشيع وضع سخان المياه في خزانة، وتُثبت حوله رفوف توضع عليها الملابس المغسولة المبتلة، لاستغلال الحرارة المنبعثة من السخان في تجفيفها. [المترجم]

أستطيع أن أقترب، يجب أن أنصت من مكاني في السرير، هنا بالضبط، صوت التليفزيون كان أعلى مما كان من قبل، أو هكذا شعرت. انتظرت، ثم لا أذكر ماذا حدث.

يقع اللوم على كليهما. يحتاج التانجو إلى راقصين، لا إلى ثلاثة، لا مكان لي، لم أستطع فعل شيء، لأني لا أستطيع منع الشجارات من أن تبدأ. بوسعي أن أصلي وأبكي وأن أظل مستيقظاً طوال الليل، وقد ينجح هذا في إنهاء الشجارات، لكنني لا أستطيع منعها من أن تبدأ. لا أفهم، لن أفهم أبداً، مهما أنصتُ وتأكدت من التواجد لن يمنحني هذا ما أريد، أنا غبي.

لم يكن ما يحدث شجارات صغيرة كثيرة، بل شجار واحد كبير، جولات متعددة من نفس القتال، ولن ينتهي بعد خمس عشرة جولة مثلما في الملاكمة. كان أقرب لإحدى مباريات الأيام القديمة، التي لا يرتدون فيها القفازات، ويظل اللاعبان يتبادلان اللكمات حتى يفقد أحدهما الوعي أو يموت. ماما وبابا تجاوزا الجولة الخامسة عشرة، ظلًا يتشاجران لأعوام، والاستراحات بين الجولات تصبح أقصر كل يوم، هذا هو الفارق الأساسي، وأحدهما سيسقط أمام الآخر عما قريب. ماما.

أريد من يسقط أن يكون بابا، إنه الأضخم. لا، لا أريده أن يسقط أيضًا. لم يكن بوسعي عمل شيء. أحيانًا، عندما تفكر في شيء وتحاول فهمه، ينكشف في رأسك على حين غرة من دون توقُّع منك، مثل إسفنجة طرية خفيفة تفتح، فتفهم، وترى المعنى وراء الأشياء بعد ذلك. يقولون إن هذا ذكاء، لكنه ليس ذكاءً، إنه حظٌّ، مثلما عندما تصطاد سمكة أو تجد في الشارع شلنًا. أحيانًا تياسُ بالكامل ثم فجأة تفتح الإسفنجة، هذا جامد، مثل أن تصير أطول، لكنه لن يحدث هذه المرة مع ذلك، لن يحدث أبدًا، مهما فكرت وركزت لن يحدث شيء.

أنا الحكم الذي لا يعرفان بوجوده، حكم أصم أبكم، وخفي أيضًا.

- التحام.

لا أريد أن يفوز أحد، أريد أن يستمر القتال إلى الأبد، بلا نهاية،
بوسعي التحكم فيه كي يستمر ويستمر...

- ابتعاد.

... يستمر بينهما.

- قلت ابتعانا.

أفصل بيدي بينهما.

تن تن تن، نهاية الجولة.

لماذا لا يحب الناس بعضهم؟

أكره سندباد.

لكني لا أكرهه. عندما سألت نفسي لماذا أكرهه وجدت السبب
الوحيد أنه أخي الأصغر، هذا كل شيء. في الواقع لا أكرهه على الإطلاق.
يكره الأصدقاء الكبار أشقاءهم الصغار، يتوجب عليهم ذلك، تلك هي
القاعدة. لكنهم يمكن أن يحبوهم أيضًا، أنا أحب سندباد، أحب هيئته
وشكله، والطريقة التي يسرح بها شعره في الاتجاه الخاطئ، أحب أن
أدعوه سندباد في الخارج وفرانسيس في البيت. اسم سندباد سر.

سندباد مات.

بكيث.

سندباد مات.

لن أسعد لو حدث هذا فعلاً، لا أستطيع تخيل أي ميزة لحصوله،
لا شيء جيد. لن يعود لي أي شخص لأكرهه، لأتظاهر أنني أكرهه. غرفة

النوم، كما أحبها، تحتاج إلى الجلبة التي تصدر عنه، وإلى ورائحته وهيثته. بدأت أبكي بحق الآن، هذا لطيف، أعني افتقاد سندباد. أعرف أنني سأراه بعد قليل، تابعت البكاء. لا يوجد أحدٌ آخر، سأراه وعلى الأرجح سأضربه، ربما أعطيه رجلاً ميتة.

أحب سندباد.

الدموع في الناحية اليسرى أسرع من الدموع في الناحية اليمنى.

لماذا لا يحب بابا ماما؟ إنها تحبه، هو من لا يحبها، ما الذي يعيها؟

لا شيء، إنها جميلة المظهر، وإن كان يصعب التأكد من هذا بالضبط. إنها تطبخ أجمل الطعام، والبيت نظيف، والعشب مقصوص، وترتك دوماً بعض زهور الأقحوان لأن ديردري تحبهم. إنها لا تصرخ مثلما تفعل بعض الأمهات الأخرى، ولا ترتدي البناتيل التي بلا سحابٍ، لم تكن سمينة، ولا تفقد أعصابها لفترات طويلة. فكرت في الأمر: إنها أفضل أم أعرفها، هي كذلك بلا شك. لم أصل إلى ذلك الاستنتاج لأنها مامتي، بل لأنها الأفضل. ماما إيان مكيفوي كانت لطيفة لكنها تدخن، رائحتها منفرة. ماما كيفين تخيفني، ليام وأيدان بلا ماما، فكرت في مسز كيرنان كثيراً، لكنها ليست أمًا، ليس عندها أبناء، إنها مسز فقط لأنها متزوجة من مستر كيرنان. ماما أفضل منهن جميعاً. ماما تشارلز ليفي عملاقة، وجهها يكاد يكون بنفسجياً تماماً، ترتدي معطف مطر بناتياً طوال الوقت وهي في الخارج، وتربط الحزام في عقدة بدلاً من أن تستخدم الإبريم. لا أستطيع حتى تخيل أنها تقبلني وأنا أوي إلى الفراش، حاولت تخيل أنني الذي أقبلها كي لا أخرج مشاعرها أو تغضب مني، فأقرب بشفتي منها لكن دون أن ألمسها، كانت هي أيضاً تدخن.

يستطيع تشارلز ليفي أن يقبلها.

بابا فيه مشاكل أكثر من ماما، ليس في ماما أي مشاكل إلا عندما تكون منشغلة أكثر من اللازم، أما بابا فيفقد أعصابه، ويحب ذلك. عنده أشياء سوداء تدور حول مؤخرة رقبتة، تشبه حشرات سوداء تتسلقه. رأيتها، خمس منها متشابكة في قوسٍ منحني. رأيت هذه الأشياء وهو يحلق لحيته، قميصه لا يداري اثنين منهم، إنه بلا فائدة في أشياء كثيرة، إنه لا يكمل لعبة إلى آخرها، ويقرأ الجريدة، ويسعل، ويجلس كثيراً جداً.

إنه لا يضرب، لم أكشفه يفعل قط.

لو أنك وضعت عود كبريت مشتعل أمام فتحة مؤخرتك عندما تضرب، تخرج الضرطة مثل لسان من اللهب، بابا كيفين هو من أخبره بذلك، لكن هذا لن يحدث إلا عندما تكبر، على الأقل عشرين سنة.

إنها مباراة: بابا ضد ماما.

لكن التانجو يحتاج إلى راقصين، لا شك أن لديه أسبابه. أحياناً لا يحتاج بابا إلى أسباب، مزاجه سبب كافٍ، لكن ليس طوال الوقت، في أغلب الأحيان يكون عادلاً، وينصت إلينا عندما نقع في مشكلة. ينصت إليّ أكثر مما ينصت إلى سندباد. لا شك أن هناك سبباً لكرهه لماما، لا بد أن هناك شيئاً خاطئاً بها، على الأقل شيئاً واحداً، لا أرى هذا السبب، أريد أن أفعل، أريد أن أفهم، أريد أن أكون في جانب كل منهما؛ إنه بابا.

أويت إلى الفراش بعد سندباد مباشرة، قبل أن يحين موعدي. قبلتها قبله ما قبل النوم، وبابا كذلك. لم تكن هناك أي كلمات متبادلة، كلاهما كان منهماً في قراءته، التليفزيون مفتوح لكن مكتوم الصوت، في انتظار الأخبار. لمست شفتاي وجنة بابا بالكاد، لم أرغب

في إزعاجه، أردته أن يظل كما هو. كنت متعبًا، أريد أن أنام. تمنيت أن يكون كتابه جامدًا.

أخذت أنصت بعدما بلغت الدور الثاني، ليس هناك إلا الصمت. غسلت أسناني قبل أن أذهب إلى غرفتنا، لم أغسل أسناني بالشكل الأمثل منذ فترة. نظرت إلى ماكينة حلاقة بابا لكني لم أعبث بالشفرة. السرير كان باردًا، لكن البطاطين ثقيلة فوقي، أحب ذلك. أنصتُ.

سندباد لم يكن نائمًا، الوقت بين شهيقه وزفيره لم يكن طويلًا. لم أقل شيئًا، تفقدت مجددًا، أنصت، إنه مستيقظٌ بلا أدنى شك. أنصت أكثر، كنت قد تركت الباب مفتوحًا، ليس هناك أي حديث قادم من الطابق السفلي. ما دام لم يكن هناك أي حديث قبل موسيقى نشرة الأخبار فلن يكون هناك شجار على الإطلاق. لم أقل شيئًا مع ذلك. في لحظة ما من الدقيقة التي قضيتها في الفراش، بينما أنصت، تعودت عيناى على الرؤية في الظلام، ها هي الستائر، الأركان، جورج بست، سرير سندباد، سندباد.

- فرانسييس؟

- اتركني لحالي.

- إنهما لا يتشاجران الليلة.

لا شيء.

- فرانسييس؟

- باتريك؟

إنه يسخر مني، قالها بطريقة تعني ذلك.

- باه-تريك.

لم أستطع التفكير في أي شيء.

- بااه-تويك.

شعرت كأنه كشفني وأنا أفعل شيئًا، كأني واقع في مشكلة ما لا أعرف ما هي، أردت الذهاب إلى الحمام، لم أستطع الخروج من السرير.

- بااه ه هـ..

كأنه صار أنا وصرت هو. سأبذل سريري.

- ...تويك.

لم أفعل.

رفعت البطانيات عني.

لقد عرف، لقد عرف. أردته أن يتكلم لأني كنت خائفًا، أتظاهر بأني أحمي، أردته أن يكون قريبًا مني، وأن نتشارك، وأن ننصت معًا، لنوقف ما يحدث أو نهرب، لقد عرف أنني مذعورٌ ووحيدٌ، أكثر مما هو مذعورٌ ووحيد.

لكن هذا لن يدوم كثيرًا.

هناك ثقب صغير عند آخر الملاءة، حيث تكون إصبع قدمي الكبرى أغلب الوقت، أحب البحث عنه بإصبعي وإدخاله فيه، وتحسس خشونة البطانية فوق الملاءة، ثم إخراجه مجددًا. الآن، تمزقت الملاءة وأنا أخرج إصبعي من الثقب، سمع سندباد صوت التمزق، أنا أعرف سبب التمزق، هو لا يعرف. لقد أفزعته.

- سندباد.

نهضت وخرجت من السرير، صرت أنا المتحكم مرة أخرى.

- سندباد.

أنا ذاهب إلى الحمام، لكن لا داعي للعجلة الآن.

قلت: سأخفك.

توجهت إلى الباب.

- لكنني سأذهب إلى الحمام أولاً، لن تهرب مني أبداً.

مسحت قاعدة المرحاض. ضوء الحمام كان مطفأ لكنني سمعت صوت البيبي ينقط على القاعدة البلاستيكية. مسحت القاعدة كلها وألقيت بالمنديل في المرحاض، ثم أفرغت السيفون. عدت إلى غرفة النوم دون أن ألمس الباب. اقتربت من السرير بخفوتٍ، لكنني تعمدت جعل إحدى الخطوات أثقل.

- فرانسيس.

سأعطيه فرصة أخيرة.

- افسح مكاناً.

كنا متعادلين، أخفته مرة وأخافني مرة. لم تكن هناك أي ضجة، لم يكن يتحرك، اقتربت من سريره.

- افسح مكاناً.

لم يكن هذا أمراً، قلتها بلطفٍ.

كان نائماً، أستطيع سماع ذلك، لم أخيفه بما يكفي ليظل مستيقظاً، جلست على السرير ورفعت قدمي.

- فرانسيس.

لم يكن هناك مكان، لم أدفعه، كان أثقل بكثيرٍ وهو نائم، لم أرغب في إيقافه، ذهبت إلى سريري، كان لا يزال فيه بعض الدفء المتبقي، ثقب الملاءة بات أكبر، أكبر بكثير، علقنت قدمي كلها فيه. خفت من أمزقه أكثر.

سأنام، أعرف أي قادر على الوقوع في النوم. في الصباح سأقول
لسنبداد إني لم أوقظه.
أنصتُ.

لا شيء، ثم حديث، يتحدثان، هي، هو، هي، ثم هو لوقت طويل،
هي، ثم هو لوقت طويل مرة أخرى، ثم هي لبعض الوقت، هو.
إنهما يتحدثان فقط، حديثًا عاديًا، زوج وزوجته، مستر ومسرز كلارك.
عيناى أغلقتا نفسيهما. توقفت عن الإنصات، أخذت أنظم تنفسي.
قلت له: لم أوقظك.

كان متقدمًا عني بكثير، كل شيء يمضي على نحو خاطئ.

قلت له: كان بوسعي أن أفعل.

لم يهتم، كان نائمًا، لا يصدقني.

- لكني لم أفعل.

سنصبح في المدرسة عما قريب ولن يكون في وسعنا أن نكون معًا
هناك. أسرع في الخطى لألحق به وأمشي بجواره، ثم أمامه، لم ينظر
إليّ، اعترضت طريقه، وتحدثت بينما يدور حولي.

- إنه يكرهها.

تابع المشي بسرعة، بزاوية واسعة ليتحاشاني إن حاولت إمساكه.

- يكرهها فعلاً.

كنا في حقل أمام المدرسة. العشب كان طويلًا حيث لم توضع أي
أساسات بناء بعد، لكن كانت هناك ممرات سُقَّت عبر الحشائش،
واجتمعت كلها في ممرٍ واحدٍ كبيرٍ في نهاية الحقل أمام المدرسة
مباشرة. الأعشاب كانت مليئة بالقش، والخنادق المهجورة مفعمة
بالقراص والنباتات الشائكة والسامة.

قلت: لو أنك لا تريد تصديقي فافعل ما شئت، لكن ما أقوله صحيحٌ.
هذا كان كل شيء، بعد ذلك جاء العديد من الأولاد عبر الحقل،
تجمعوا في الممر الكبير. ثلاثة من أولاد العام الأخير كانوا يدخلون
جالسين على الأعشاب العالية المبتلة، أحدهم كان يجمع القش من
الأعشاب ويضعه في صندوق طعامه. أبطأت من خطوتي، تجاوزني
سندباد حتى لم أعد أراه، انتظرت جيمس أو كيف ليلحق بي.

قال: هل قمت بواجبك؟

كان هذا سؤالاً غيبياً، نقوم جميعاً بالواجب.

قلت: نعم.

- كله؟

- نعم.

قال: أنا لم أفعل.

يقول ذلك دائماً.

قلت: أنا فاتتني بعض المذاكرة.

قال: هذا لا يهم.

يُصح الواجب كله على الدوام، لا مناص، لا يمكنك الإفلات
بأي شيء. نتبادل الدفاتر ونصحح لبعضنا، ويمشي هينو بيننا ويردد
الإجابات الصحيحة ويراقبنا من فوق أكتافنا. ويتفقد بعضنا عشوائياً.

- أنا أحلل كتابتك يا باتريك كلارك، أتعرف السبب؟

- كي لا أكتب أيّاً من الإجابات له يا سيدي.

قال: صح، وهو أيضاً لن يكتب لك أي شيء.

خبطني بقوة على كتفي، غالبًا لأنه كان لطيفًا معي في الأيام القليلة المنقضية. أوجعتني الخبطة، لكنني لم أتحسس مكانها.

قال: ذات مرة كنت أنا نفسي تلميذًا، أعرف الخدع كلها. السؤال التالي: أحد عشر في عشرة على خمسة، ما هي الخطوة الأولى يا مستر أوكيف؟

- اثنان وعشرون يا سيدي.

- الخطوة الأولى.

خبط جيمس أوكيف على كتفه.

- نضرب أحد عشر في عشرة يا سيدي.

- مضبوط، ثم؟

- هذا كل شيء يا سيدي.

نال خبطة أخرى.

- ما الإجابة يا ⁽¹⁾amadán.

- مئة وعشرة يا سيدي.

- مئة وعشرة، هل هذه إجابة صحيحة يا مستر كاسيدي؟

- نعم يا سيدي.

- صحيح بالنسبة إلى الخطوة الأولى، ماذا عن الثانية؟

الوضع مع مس واتكينز كان أيسر بكثير. كُنَّا نقوم ببعض الواجب دومًا، لكن كان من السهل جدًا إضافة الإجابات بينما يفترض بنا أن نصح ما حللناه مسبقًا. هينو يجعلنا نصح بقلم تلوين أحمر. تال ثلاث ضربات لو لم تكن حافة القلم حادة. يسمح لنا مرتين

(1) أحقق.

في الأسبوع، أيام الثلاثاء والخميس، بأن نذهب في أزواج متتالية إلى سلة المهملات بجوار مكتبه لنبري الأقلام. هناك براية مثبتة في جانب مكتبه، تضع قلمك في الفتحة وتدير المقبض لتبريه، لكنه لا يسمح لنا باستخدامها، يجب أن تكون معنا براياتنا الخاصة. تحصل على ضربتين لو نسيت برايتك، ولا يمكن أن تكون ذات أشكال، مثل تلك التي على شكل ميكي ماوس أو أحد الأقزام السبعة، بل يجب أن تكون براية عادية. مس واتكنز كانت تكتب الإجابات على السبورة، ثم تجلس إلى مكتبها وتعود للتطريز.

- ارفع يدك لو كانت إجابتك صحيحة.

دون أن ترفع عينها من التطريز تقول.

- باتريك كلارك.

قرأت الإجابة من السبورة ثم كتبتها في الفراغ الذي كنت قد تركته لها. ذات مرة، قامت ومرت بين المكاتب، وتوقفت ونظرت في دفترتي، كان الحبر لا يزال طرياً لكنها لم تلاحظه.

قالت: تسعة من عشرة، شاطر.

أخطئ دوماً في أحد الحروف وأحياناً اثنين، كلنا نفعل، إلا كيفين، يحصل كيفين دوماً على عشرة من عشرة في كل شيء، كانت تقول إنه أيرلندي صغير رائع. ضرب كيفين إيان مكيفوي في الساحة عندما ناداه بهذا اللقب، لكمه في أنفه.

كانت تحسب نفسها لطيفة، لكننا كنا نكرهها.

- ألا تزال مستيقظاً يا مستر كلارك؟

ضحكوا جميعاً، يجب عليهم أن يفعلوا.

- نعم يا سيدي.

ابتسمت، ضحكوا مرة أخرى، لكن أقل من المرة السابقة.

قال هينو: جيد، كم الساعة الآن يا مستر مكيفوي؟

- لا أعرف يا سيدي.

- لا تملك ثمن ساعة؟

ضحكنا.

- مستر ويلان؟

رفع شون ويلان كم معطفه ونظر أسفله.

- العاشرة والنصف يا سيدي.

- بالضبط؟

- تقريبًا.

- الساعة بالضبط لو سمحت.

- العاشرة وتسع وعشرون دقيقة يا سيدي.

- ما هو اليوم يا مستر أوكونيل؟

- الخميس يا سيدي.

- هل أنت متأكد؟

- نعم يا سيدي.

ضحكنا.

قال هينو: سمعت أنه الأربعاء. ما الكتاب الذي سنخرجه من

málas⁽¹⁾ يا مستر... مستر... مستر أوكيف؟

ضحكنا، علينا أن نضحك.

(1) الحقائق.

قَبِلْتُ ماما قبل أن آوي إلى الفراش. بابا لم يرجع بعد.

قالت: تصبح على خير.

قلت: تصبحين على خير.

هناك شعر ينمو من شيء صغير في وجهها، شيء بين عينها وأذنها، لم أر مثل هذا الشعر من قبل، كان منتصبًا وقويًا.

استيقظت، قبل أن تصعد هي لتوقظنا مباشرة، أستطيع تمييز ذلك من الجلبة في الدور السفلي، سندباد لا يزال نائمًا. لم أنتظر، نهضت، كنت مستيقظًا تمامًا، ارتديت ملابسني بسرعة. مربع الستارة يسطع بنور الشمس من الخارج، هذا لطيف.

قالت وأنا أدخل المطبخ: كنت سأصعد إليكما.

كانت تطعم الطفلتين، تُطعم إحداهما بينما تتأكد أن الأخرى تطعم نفسها كما ينبغي لها، كثيرًا ما تخطئ كاثرين في تصويب الملعقة إلى فمها، طبقها فارغ دومًا لكنها لا تأكل أبدًا كل هذا القدر.

قلت: أنا صاحي.

قالت: أرى ذلك جيدًا.

أخذت أراقبها وهي تطعم ديردري، كيف لا تضجر من ذلك أبدًا؟

قلت: فرانسيس لا يزال نائمًا.

قالت: لا مشكلة.

قلت: إنه يشخر.

قالت: إنه لا يشخر.

هي محقة، لم يكن يشخر، أنا فقط قلت ذلك، ليس لأورطه في مشكلة أو ما يشابه، أنا فقط أردت قول شيء ظريف.

لم أكن جائعًا لكن أردت أن أكل.

قالت: باباك ذهب إلى الشغل مبكرًا.

نظرت إليها، كانت تنحني خلف كاثرين، تساعدنا على جمع ما تبقى في الملعقة، تلمس ذراعها دون أن تقبض عليها، تصوب إليها الملعقة في الطعام.

- شطورة.

صعدت إلى الطابق العلوي، انتظرت، أنصت، إنها آمنة بالأسفل. ذهبت إلى غرفتهما، السرير مُرتب، اللحاف المحشو بالريش مطبق بعناية بجوار الوسائد. رفعته، أنصتُ، نظرت إلى الوسائد أولاً، ثم جذبت اللحاف أكثر. لم تسوّ الملاءة تحت اللحاف، ناحيتها من السرير فقط كانت بها التجاعيد التي يسببها جسد نائم، وكذلك الوسائد في ذات الناحية. في الناحية الأخرى كانت الملاءة مسطحة والوسائد منفوخة. وضعت يدي على الملاءة، وشعرت بالدفء لا يزال في ناحيتها. لم ألمس ناحيته.

لم أعد توضع السرير، كي تعرف أنني رأيت.

أنصتُ. نظرت في الخزانة، أحذيته وربطات عنقه موجودة، ثلاثة أحذية وربطات عنق كثيرة، كتلة متشابكة.

غيرت رأبي، أعدت توضع السرير.

نظرت إليها، كانت تنظف مقعد الطفلة. بدت لي بنفس هيئتها العادية، باستثناء الشعر، وهذا لا أستطيع رؤيته الآن. حاولت بشدة، حدقت إليها، أحاول فهم ما يكمن وراء وجهها.

بدت لي عادية.

- هل أوقظ فرانسيس؟

رمت قماشة التنظيف من يدها فوقعت مباشرة على حافة الحوض.

إنها لا ترمي الأشياء عادة.

قالت: سنوقظه معاً.

حملت الرضيعة وثبتها على فخذهما، ثم أعطتني يدها، كانت يدها مبتلة، صعدا على السلم معاً حذرين، وضحكنا عندما أصدر الصرير، اعتصرنا يدي بعضنا.

الجنازة ستكون مهيبة. سيضعون علماً على التابوت، أسرة الطفل المنقذ ستعطيني أنا وسندباد الأموال. ماما سترتدي أحد أغذية الوجه الشفافة تلك، ستبدو جميلة خلفه، ستبكي برفق، وأنا لن أبكي أبداً، سأضع ذراعي حول كتفيها ونحن نخرج من الكنيسة، والكل يراقبنا. سندباد لن يستطيع أن يبلغ كتفيها. كيفين والرفاق سيرغبون في الوقوف بالقرب مني خارج الكنيسة وعند القبر، لكنهم لن يتمكنوا من ذلك، لأن سيكون هناك أناس كثيرون، ليس فقط أقاربنا. أسرة الطفل المنقذ ستصنع لوحة شرف وستثبتها على الحائط بجوار بابنا الأمامي. مات بابا وهو ينقذ حياة طفل صغير، لكن هذا لن يحدث هذا غباء. تخيل الأشياء ممتع فقط لحظياً، لكن لا شيء سيحدث لبابا، أنا على أي حال لا أريده أن يموت أو أي شيء مشابه، إنه بابا، أفضل تخيل جنازتي الخاصة، هذا خيال أفضل بكثير.

رأيت تشارلز ليفي يغادر بوابة المدرسة، نظرت حولي -لا أحب وجود أي شخص آخر- ثم تبعته. توقعت سماع أحدهم يصرخ، لا يُسمح لنا بالخروج من الساحة في أوقات الاستراحة. تابعت المشي بنفس السرعة، وضعت يدي في جيبتي.

دخل الحقل. ركلت حجراً وأنا أعبّر الطريق. نظرت خلفي، حجبت السقيفة أغلب الساحة، لم يكن هناك أحد يراقب. ركضت. دخل تشارلز ليفي في الحشائش العالية، أبقيت نظري مصوباً إلى

تلك النقطة، أبطأت خطوتي ودخلت في الحشائش، كان لا يزال مبتلاً.
صفرت، حسبت أنني متجه إليه مباشرة.

قلت: هذا أنا.

رأيت فجوة بين الحشائش.

- هذا أنا.

إنه هناك، عليّ أن أجلس لكنني لم أحب فعل ذلك، بنطالي مبتل
بالفعل. كان يجلس على صندوق كرتوني رطب، ولا مكان لي. ركعت
على حافة الصندوق.

قلت: رأيته.

- رأيته ماذا؟

- لا شيء.

أخذ نفساً من سيارته الميجور، لا بد أنه أشعلها في الوقت الذي
استغرقته في اللحاق به، لم يمرر إليّ السيجارة، سعدت أنه لم يفعل
لكنني تمنيت لو فعل.

- هل أنت تزوغ من المدرسة؟

- هل كنت لأترك حقيبتني في الفصل لو كنت أزوغ؟

قلت: لا.

- إذن...؟

- سيكون هذا غباء.

أخذ نفس آخر. كنا وحدنا في الحقل، لا صوت حولنا إلا الجلبة
القادمة من الساحة، صياح التلاميذ وصفارة المدرس، وهناك أيضاً
خلاط أسمنت أو شيء مشابه من بعيد. راقبت الدخان يتصاعد من

السيجارة، وهو لم يفعل، أخذ ينظر إلى السماء. كنت مبتلاً، أخذت أنصتُ منتظراً صوت الجرس، كيف سنعود؟ الصمت كان بمثابة ألم في بطني، إنه لن يتكلم أبداً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- كم سيجارة تدخن في اليوم؟

- نحو عشرين.

- من أين تحصل على المال لهذا؟

لم أقصد بالسؤال أن أبدو كأني لا أصدقك. نظر إليّ.

قال: أسرقه.

صدقته.

قلت: نعم، وأنا أفعل ذلك أيضاً.

صرت أنظر إلى السماء مثله. الوقت المتبقي أمامنا قليل.

قلت: هل هربت من قبل؟

- هلا نكت نفسك؟

دُهِشت، ثم فهمت. لماذا قد يحتاج إلى الهرب؟

- هل أردت أن تهرب من قبل؟

قال: - كنت سأهرب لو أردت.

ثم سأل:

- تفكر أن تفعلها بنفسك؟

- لا.

- لماذا تسأل إذن؟

- أنا فقط أتساءل.

- طيب.

كنت سأسأله إن كان بوسعي الهروب معه المرة القادمة، ذلك كان سبب اتباعي له في المقام الأول، لكن هذا غباء. المكان هنا مقطوع، بعيد عن الساحة، أنا معه لكنه لا يهتم. لو أراد تشارلز ليفي أن يهرب من بيته فلن يعود أبدًا، سيظل بعيدًا. أنا لا أريد ذلك.

لا أريد أن أنكشف. نهضت.

- أراك لاحقًا.

لم يرد.

تسللت إلى حافة الحقل، لكن لم يكن ذلك ممتعًا.

أردت أن أهرب لأفزعهما، لأشعرهما بالذنب، لأدفعهما إلى أن يعودا إلى بعضهما. ستبكي، وسيضع ذراعه حولها، وستظل ذراعه حولها عندما أعود في سيارة الشرطة. سترسلني الشرطة إلى أرتين لتضييعي وقت وموارد الشرطة، لكنهما سيأتيان لزيارتي هناك كل يوم أحد، لوقت قصير. سيحسبان أن كل هذا بسببهما، وسندباد كذلك، لكنني سأقول لهم إنه ليس ذنبهم. ثم سيطلق سراحني.

تلك خطتي.

نهضت خارجًا من الحشائش، أخذت أنظر حولي كأني أبحث عن شيء، جعلت نفسي أبدو قلقًا.

- ضاع مني جنيهاً يا سيدي، كان معي للقيام بمهمة لماما.

هززت كتفي ويئست. كأن الجنيه طار بعيدًا. قطعت الطريق، هذا أسوأ جزء، درت حول السقيفة، وعدت إلى الساحة. لم يكن هناك أحد في الانتظار، مستر فينوكان يخرج من المبنى حاملاً الجرس. وقفت بجوار أيدان وليام.

- أين كنت؟

- أدخن.

- نظرا إليّ.

قلت: مع تشارلي.

لم أستطع منع نفسي من قول المزيد.

- أتريدان شم رائحة نفسي؟

مستر فينوكان رفع الجرس من مقبضه بإحدى يديه، وبالأخرى أمسك لسان الجرس. يفعلها دومًا بهذه الطريقة؛ يرفع الجرس بموازاة كتفيه، ثم يطلق سراح اللسان ويترك الجرس يتدلى، ثم يرفعه ويمسكه مرة أخرى، ويكرر الفعل عشر مرات، شفاته تتحركان، تحصيان عدد الدقات. علينا أن نصطف في الطوابير قبل الدقة العاشرة. تشارلز ليفي كان متقدمًا عني بخمسة أماكن، كيفين خلفي، كيفين ضربني في ركبتي بركبته من الخلف.

- توقف عن هذا!

- اجعلني أفعل لو استطعت.

- سأفعل.

- دعني أرى.

لم أفعل شيئًا، وددت لو فعلت به شيئًا.

- هيا.

ركلته في قسبة ساقه بركلة خلفية، ألمته، أشعر بذلك. قفز ووقع خارج الطابور.

- ما الذي يحدث هناك؟

- لا شيء يا سيدي.

- ما الذي حدث لك؟

كان هذا مستر أرنولد، لا هينو. هو من كان يحصي الأولاد في الطابور، لا يأبه كثيراً بما يحدث، لا ينظر إلا إلى رؤوس الأولاد، ولا يهتم بالفصل بينهم.

قال كيفين: لقد وقعت يا سيدي.

- طيب، لا تقع مرة أخرى.

- حسناً يا سيدي.

عاد كيفين خلفي.

- سأنال منك يا كلارك.

لم أهتم حتى بالنظر إليه.

- سأنال منك، هل تسمعني؟

- لا أريد سماع صوت في الطابور.

جاء هينو ليأخذنا، مشى في الطابور بجوارنا وهو يحصينا، مرّ بجواري مرتين. انتظرت أن يضرب كيفين، خبطني في ظهري، هذا كل ما وجد له وقتاً.

- تلك البداية لا أكثر.

لم أهتم، لم يوجعني كثيراً، وأنا على أي حال أستطيع أن أنال منه أيضاً، لم يعد صديقي، إنه أحمق ومخادع وكذاب. لكنه لا يعرف ذلك بعد .

صاح هينو في المقدمة: - Clé deas...، Clé deas⁽²⁾ ... Anois⁽¹⁾

مشينا في طابور عسكري إلى داخل المدرسة، ودرنا حتى بلغنا فصولنا.

(1) الآن.

(2) شمال، يمين.

هينو وقف على الباب.

- امسحاً أقدامكما.

ليس عليه قولها إلا مرة، الولدان في المقدمة يمسخان قدميهما، وكل من بعدهما يقلدونهما، وآخر اثنين يدخلان يغلقان الباب خلفهما بهدوء. لا صوت يتردد في المدرسة، يبقينا هينو دوماً للآخر كي لا تختلط ضجتنا بضجة باقي الفصول، ويجعلنا نقف لنصف ساعة لو سمع أقل همسة. كان علينا انتظار أن يدخل الولدان أمامنا الفصل قبل أن ندخل نحن.

ما زلت أنوي الهروب، حتى من دون سندباد أو تشارلز ليفي. أردت أن يهرب معي سندباد أكثر من غيره، مثلما في هروب الحمام⁽¹⁾، أنا في المقدمة، وأحمل أخي الصغير على ظهري عندما يتعب، عبر الأنهار والبحيرات والخنادق والمستنقعات، وأرعاه.

قال هينو: التاليان.

سأهرب وحيداً.

- التاليان.

ليس إلى مكان بعيد، بل إلى مكان أستطيع أن أذهب إليه وأعود منه مشياً.

- التاليان.

كيفين كان ينتظرنني. وكان قد أذاع الخبر وأحاط به العديد من الرفاق، ينتظرون. لم آبه، لم أكن خائفاً. في المرات السابقة كان هو من يضربني، لكن الآن الأمر مختلف. من قبل لم أكن أرغب في الفوز،

(1) Flight of the Doves: رواية للكاتب الأيرلندي والتر مكين Walter Macken صدرت عام 1963، وتحولت إلى فيلم سينمائي عام 1971، تدور حول طفلين من ليفربول هربا من أذى زوج أمهما المتوفية إلى الريف الأيرلندي. [المترجم]

أما الآن فلا أهتم، لو أذاني سأؤذيه، لا يهمني من سيفوز. لم أحاول أن أتفاداه أو أظهار أني نسيت، بل مشيت إليه مباشرة. أعرف جيدًا ما الذي سيحدث.

دفعني في صدري. المسافة بيننا وبين المتجمهرين حولنا ضاقت. يجب أن ينتهي القتال بسرعة، فالمدرسون سيخرجون من المدرسة قريبًا. تراجعت خطوة إلى الوراء، اضطررًا إلى أن يتبعني.

- هيا.

دفعني بقوة أكثر، دفعني مثل لكمة لكن بقبضة مفتوحة، محاولًا إثارتني لفعل أي شيء.

تكلّمت بصوتٍ عالٍ كفاية لسمعه الجميع.

- رأيت أثر الخراء في لباسك.

رأيت الألم والغضب يعصفان بوجهه في ثانية، احمرَّ وجهه، وضاقت عيناه وبدأتا تدمعان.

ضاقت دائرة الجمهور حولنا أكثر.

هاجمني بقبضتين مرفوعتين مضمومتين بإحكام. لم ينظر ناحيتي، لم يهتم باستهداف منطقة أو غيرها. فتح إحدى قبضتيه وهو يهاجمني، أراد أن يخدشني، أخذ يزمجر. درت حوله، لكمت جانب وجهه، أوجعتني قبضتي، استدار وهجم عليّ مجددًا، إصبعه في أنفي، ضربته بركبتي، لم أصبه، ضربته مجددًا، أصبته فوق ركبته. تعلقت به بقوة، حاول أن يتملّص من ملابسه، رفعت يدي وقبضتُ عليه من شعره، يدي كانت مبتلّة من مخاطه ودموعه. لم يستطع أن يبتعد عني، لقد رأوه يبكي، حاولت أن أتخلص من يده وأقفز متراجعًا، لم أنجح، ضربته بركبتي، لم أصبه، كان يئن بصوتٍ حادّ، شعره بين يدي، جذبت رأسه إلى الوراء.

صاح أحدهم: هذا غش!

لم أهتم، هذا غباء، هذا هو أهم شيء حدث في حياتي على الإطلاق،
أعرف هذا جيداً.

رأسه أصبحت أمام وجهي، بالتحديد أمام فمي. تناثرت الدماء،
طعمها ملاً فمي. الألم جيدٌ، لم يضايقني، لم أهتم به. ضربني مرة
أخرى، لكن ليس بذات القوة. دفعني إلى الوراء، لو وقعت سيضيع
كل شيء. تراجع، وقعت على أحدهم، حاول أن يتنحى عن طريقي
لكن محاولته تأخرت، استطعت الوقوف على قدمي بثبات مجدداً.
عظيم.

قبض على قميصي وكنزتي ومعطفي ورفعهم إلى ذقني، محاولاً
دفعي إلى الوقوع، لا بد أنه بدا غيباً، لم أستطع أن أركله، احتجت إلى
ثبات قدمي. رفعت قبضتي وضربت رأسه من الجانبين، مرة، مرتين،
ثم قبضت على ذراعيه لمنعه من الوصول إلى وجهي. بدا حينها
أكثر ضالة بكثير مما هو عادة. وجهه كان عند صدري، هجم برأسه،
وأخذ يعض في أطراف ملابسني. قبضت على مؤخرة شعره ودفعت
رأسه إلى الأمام، اقتربت رأسه من بطني. حسب أنه نال مني، بوسعه
أن يدفعني بقوة كافية لأقع. بينما كان يستعد لأن ينطحني، رفعت
ركبتي، بوم، في وجهه مباشرة، أقوى من أي ضربة ضربتها في حياتي،
اختلط أنينه بالملفاجأة، بالوجع والهزيمة. انتهى أمره. خيم على
المراقبين الصمت، لم يروا من قبل شيئاً كهذا. أرادوا أن يروا وجه
كيفين، لكنهم خافوا أيضاً من أن يروه.

لن تعود الأمور إلى سابق عهدها بعد الآن.

صارت ركبتي أكبر، أشعر بهذا. لا تزال رأسه هناك، لا يزال معلقاً
بي، يحاول أن يدفعني، لكنه انتهى أمره. حاولت أن أفعلها مجدداً،
ضربة الركبة، لكنني فكرت فيها أطول من اللازم هذه المرة، أبطأ

هذا من ضربتي، بالكاد بلغت وجهه. لم يكن بوسعي أن أفلته إلا إن فعل هو. أمسكت إحدى أذنيه ولويتها، صرخ عاليًا ثم كتم صرخته. لم أرغب في إنهاء هذا القتال بالطريقة العادية، هذا مختلف. انتهى كل شيء لكنه لا يريد أن يعترف، لذا قلتها.

- أتستسلم؟

- لا.

هو مضطر إلى أن يقول لا، وأنا مضطر إلى إيذائه كي يفعل، اعتصرت أذنه مرة أخرى، لويتها، أعملت فيها أظافري.

- استسلم.

لم أتوقف عن اعتصار أذنه كي أتركه يتكلم، لم يتمكن من الرد، عرفت ذلك، فتركت أذنه.

- أتستسلم؟

لم يرد.

وأنا لم أعد أرغب في أي من هذا، فتركته. دفعته في كتفيه لبيتعد عني مسافة تسمح لي بالمشي مبتعدًا. لم أنظر حتى إلى وجهه.

مشيت عبر الطريق. كنت أعرج، وكان بوسعه أن يأتي خلفي؛ أنا لم أفز، لأنه لم يستسلم. بوسعه أن يأتي ويقفز عليّ من الخلف. لم أنظر خلفي. ألقى أحدهم عليّ حجرًا، لم آبه، لم أنظر خلفي. أنا جائع، وفي رجلي عرج، ودم كيفين على بنطالي. صرت وحدي.

بعد العشاء، في الساحة، قال: أنا لم أستسلم... اعتبر نفسك ميت.

كانت أنفه حمراء وذقنه مكشوفة بخمسة جروح رفيعة مقوسة، وجهه بجوار عينه اليمنى كان بنفسجيًا محمرًا، وعلى كنزته هناك دم جاف غير كثير، وكان يرتدي قميصًا نظيفًا.

- أنت لم تكسب.

توقفت ونظرت إليه، أستطيع رؤية كيف يمنع نفسه بمشقة من النظر حوله للتأكد أن هناك طريقًا للهروب. لم أقل شيئًا، أخذت أمشي مرة أخرى.

انتظر.

- دجاجة.

ركضت ماما إليّ عندما رأيت بنطالي، عندما رأيت آثار الدماء. ثم توقفت ونظرت إلى وجهي.

- ما الذي حدث لك؟

- كنت في شجار.

- أوه!

جعلتني أغير بنطالي، لكنها لم تقل شيئًا آخر عن الأمر.

- أين تركت البنطال المتسخ؟

عدت إلى الدور العلوي وجلبته، وضعته في السلة البلاستيكية في الركن بين الثلجة والحائط.

قالت: يجب أن يُنقع.

أخرجته من السلة، ساند باد رآه. كان يصعب عليه تمييز أن ما عليه دماء، فبعد أن امتصه القماش لم يعد لونه أحمر.

صوت آخر.

- دجاجة.

صوت إيان مكيفوي.

- أيها الدجاجة!

- ها هو يمضي.

اعتدل في وقفته.

- تعد الأولاد؟ شاطر، شاطر.

راقبت شفتي ديفيد جيراتي، لم أستطع رؤيتهما تتحركان، كانتا منفرجتين قليلاً.

اضطراً فلوك كاسيدي إلى الجلوس بجواري. لم ينظر إليّ، لم ينظر إلى أحد إلا كيفين. تحركت شفاته.
مقاطعة.

يناسبني ذلك، أردت أن أترك وحيداً، عدا أنني لم أرغب في أن يقضوا جميعاً جل أوقاتهم في تركي وحيداً. حيثما نظرت ولت وجوه الآخرين أبصارها عني، شعرت بالملل. نظرت إلى شون ويلان وتشارلز ليفي، لم يكونا مشاركين في المقاطعة، ونظرت إلى ديفيد جيراتي فنفخ لي قبلة.
أما البقية... مقاطعة.

توقفت عن النظر إليهم. ليس بوسعهم مقاطعتي إلا لو كنت أرغب في ألا يقاطعوني.

قالت: هل فزت؟

عرفت قصدها.

قلت: فزت في ماذا؟

- الشجار.

- نعم.

لم تقل شاطر أو شيئاً مشابهاً، لكن بدا عليها ذلك.

قالت: مع من كان؟

نظرت إلى كتفها.

- لن تقول؟

- نعم.

- كما تحب.

صعدت إلى خزانة التجفيف. احتجت إلى أن أتسلق متجاوزاً خزان المياه، كان ساخناً، استخدمت مقعداً للعودة إلى أول رفٍّ، حيث المناشف العادية ومناشف الشاي، دون أن تلمس رجلي الخزان. انحنيت إلى الخارج وركلت المقعد بعيداً عن الباب، ثم حان دور الجزء الأصعب: انحنيت أكثر وجذبت الباب ناحيتي، أغلقتة. لم يكن هناك مقبض من الداخل، كان عليّ أن أحشر أصابعي بين شظايا الخشب المصنوع منها الباب.

عتمة كاملة، لا أثر لنورٍ من أي نوعٍ، لا في الداخل ولا عبر خشب الباب. كنت أختبر نفسي، ولم أخف. أغلقت عيني، وأبقيتهما مغلقتين، ثم فتحتهما. لا تزال العتمة تامة، وما زلت غير خائف.

أعرف أن هذا غير حقيقي، أعلم أن العتمة بالخارج لن تكون تامة مثل تلك لكنها مع ذلك ستكون أكثر رعباً، أعرف هذا جيداً، لكنني مع ذلك سعيد. الظلمة نفسها لا تهتم، لم يكن فيها ما يخيفني. البقاء داخل خزانة التجفيف لطيف، أفضل حتى من تحت المائدة. ظللت هناك.

عاد إلى البيت كما العادة، تناول العشاء، وتحدث مع ماما، حكى لها عن امرأة تقيأت في القطار.

قالت ماما: مسكينة.

لا شيء فيه مختلف. بدلته، قميصه، ربطة عنقه، حذاؤه. أوقعت شوكتي على الأرض وانحنيت لألتقطها وأرى حذاءه؛ كان نظيفاً مثلما

يكون دائماً. أعدت شوكتي إلى مكانها. وجهه لم يكن مخضراً مثلما يكون عندما يعود إلى البيت، أقصد الجزء الذي يحلقه، يكون هناك عادة شعيرات خشنة من أثر الحلاقة في الصباح، اعتاد أن يدغدغنا بها.

- ها قد جاء بابا ذو الوجه الخشن المدغدغ!

كنا نجري منه لكننا أحببنا ذلك.

لم تكن تلك الشعيرات هناك، وجهه ناعم، شعره كان تحت بشرته. هو لم يحلق ذقنه هذا الصباح.

لقد كشفته، هذا شعور جيد. أكلت الجزر كله.

بقيت في خزانة التجفيف، أنصتُ إلى ماما والبنتين في الدور السفلي. الباب الخلفي كان مفتوحاً، كاثرين لا تنفك عن محاولة تسلقه. أنصتُ بحثاً عن سندباد. ليس هناك. بابا لم يكن يتحرك. ظلَّت العتمة كما هي، ليس هناك إلا شق نور رفيع عند حافة الباب. سيختلف الأمر بالتأكيد في الخارج، في العراء. ستكون هناك ريحٌ عاصفة وحيوانات، وناس، وبرد. لكن الظلام كان آخر شيء أحتاج إلى هزيمته؛ بوسعي ارتداء الملابس لاتقاء البرد واستخدام شعلة لإبعاد الحيوانات، الحيوانات الليلية، معطف المطر -لا تنس غطاء الرأس- سيحميني الماء، لا يتبقى أمامي سوى هزيمة الظلام، وها أنا قد هزمته. لم يعد يخيفني ولو قليلاً، أحب هذا. هذه علامة على النضج؛ عندما يصبح الظلام بالنسبة إليك مثل النهار.

صرت جاهزاً، بالكاد. سرقت فتاحة علب. كان هذا سهلاً، لم أضعها حتى في جيبي، أنا فقط نزعنا عنها ورقة السعر وحملتها في يدي وخرجت من المتجر كأني اشتريتها. معي علبتا طعام حتى الآن، فاصوليا وشرائح أناس. تجنبت أن آخذ الكثير من العلب مرة واحدة، ستلاحظ ماما اختفاءهم. ظلَّت علبة شرائح الأناناس في

الخزانة لسنواتٍ. وعرفت أيضاً أين تحتفظ ماما بالملابس الداخلية والجوارب والكنزات وما إلى ذلك، على الرف العلوي من خزانة التجفيف. أستطيع الحصول عليهم في أي وقت، كل ما أحتاج إليه هو مقعد لتسلقه. الشيء الوحيد الذي لا أملكه هو المال. معي شلنان وثلاثة بنسات، لن يكفوا لشيء. أحتاج فقط إلى معرفة أين يوجد دفتر توفير البريد، وسأصبح بعدها جاهزاً تماماً. عندها سأذهب. الشيء الوحيد الذي افتقدته هو الكلام، لا يوجد أي شخص أتحدث معه. أحب الكلام. لكنني لم أحاول دفع أيهم إلى الحديث معي، إنهم جميعاً يتبعون كيفين، خاصة جيمس أوكيف، الذي يصيح طوال الوقت:

- مقاطعة!

أيدان وليام لم يكونا بهذا السوء، كانا ينظران إليّ، ويردان عليّ لو قلت شيئاً. بدا عليهما التوتر والحزن، عرفا جيداً طبيعة ما يحدث. إيان مكيفوي أظهر سلوكاً لم أره منه من قبل، جعل يضحك ساخراً بنصف فمه، ويمشي في دوائر عندما أكون قريباً، كأنه يتجه نحوي ثم يغير رأيه. لم أهتم، لم يعن لي شيئاً من قبل على أي حال. تشارلز ليفي ظل كما هو دوماً. لم يكلمني أي منهم، ولا واحد.

كلهم ما عدا ديفيد جيراتي، فهذا لم يتوقف عن الكلام. كنا نجلس متقابلين على ناحيتي الممر. ظل ينحني ويتدلى من مكتبه دون أن يلاحظ هينو.

- صبح صبح.

يحاول أن يضحكني.

- إيه الكلام يا برنس.

إنه مجنون، أتساءل أحيانًا إن كان معاقًا عن عمد، إن كان لا يريد أن تكون له رجلان مثل بقيتنا. لم يفعل أيًا من هذا ليواسيني، بل إن هذا ما يفعله عادة. إنه مجنون بالكامل، مع نفسه تمامًا. كان أفضل بكثير من تشارلز ليفي؛ لم يكن بحاجة إلى أن يدخن أو إلى أن يجعلنا نراه وهو ذاهب للتزويج مثلاً.

- يوم رايق مولع حرايق.

ثم طرّع بلسانه.

- اصحى للكلام.

طرّع مرة أخرى.

- خرا خرا خرا، نيك نيك نيك.

ضحكت.

- هو ده الكلام.

كنّا في الاستراحة القصيرة. وقفت وحدي، بعيدًا عن الجميع، كي لا أزعج أحدًا بالاضطرار إلى مقاطعة بعضنا. صرت أبحث عن سندباد، فقط لأراه.

سمعت قبل أن أشعر، سمعت صوت مروق شيء ما عبر الهواء، ثم نزلت الضربة على ظهري ودفعتني إلى الأمام خطوات قبل أن أقع. كان هذا ألمًا حقيقيًا. تدرجت، استدرت، نظرت، كان هذا ديفيد جيراتي، لقد ضربني بأحد عكازيه. أستطيع شعور بخط الوجع على ظهري بطول العكاز، صوت الضربة لا يزال يتردد في أذني.

كان يبكي، غير قادر على وضع يده مرة أخرى في فتحة العكاز، كان ينتحب بشدة. نظر إليّ وتكلم.

- قال لي كيفين أن أعطيك هذه.

بقيت على الأرض، وتمكّن هو من ركوب عكازيه، ومضى بهما تحت السقيفة.

لم تسنح لي فرصة الذهاب قط، فات الأوان، هو من ذهب أولاً. عرفت أنه ذاهب من الطريقة التي أغلق بها الباب. لم يصفعه، لكنني عرفت بشكلٍ ما أنه لن يعود. أغلق الباب بالطريقة العادية، كأنه في طريقه إلى المتاجر مثلاً، عدا أنه خرج من الباب الأمامي، ونحن لا نستخدم الباب الأمامي إلا عندما يأتي ضيوف. لم يصفع الباب، فقط أغلقه خلفه، رأيتَه عبر الزجاج. انتظر لثوانٍ، ثم مضى. لم تكن معه حقيبة سفر، أو حتى معطف. لكنني عرفت.

انفتح فمي، صيحة عارمة بدأت في أعماقي لكنها لم تخرج قط. عصف ألم بصدري، بات بوسعي سماع صوت قلبي يضخ الدم في أرجاء جسدي. كان يفترض بي أن أبكي، حسبت أنني أبكي، لكنني أجهشت مرة ولم أتبعها بشيء.

لقد ضربها مجدداً، وأنا رأيتَه، وهو رأني. لطمها على كتفها.

- هل تسمعيني؟

في المطبخ. دخلت المطبخ لأشرب، رأيتها تتراجع بتأثير الضربة. نظر إليّ، أرخى قبضته، صار أحمر تماماً، كأنه قُبض عليه متلبساً. كان سيقول لي شيئاً، حسبت أنه سيفعل. لم يفعل. نظر إليها، تحركت يدها، ظننت أنه سيعيدها إلى حيث كانت قبل أن يضربها.

- ماذا تريد يا حبيبي؟

تلك كانت ماما، لم تكن تتحسس كتفها ولا شيء مثل ذلك.

- شربة ماء.

النهار في الخارج كان لا يزال ساطعًا، لا يزال الوقت مبكرًا على الشجار، أردت الاعتذار عن كوني هناك، ملأت ماما كوبي من الصنبور، اليوم كان الأحد.

بابا تكلم.

- كيف هي المباراة حتى الآن؟

قلت: إنهم يكسبون.

المباراة الحاسمة كانت تدور في تلك اللحظة، ليفربول يهزم أرسنال. أشجع ليفربول.

قال: عظيم.

كنت قد جئت لأخبره بذلك، ولأشرب الماء كذلك.

أخذت الكوب من ماما.

- شكرًا جزيلاً.

عدت لمشاهدة ليفربول يكسب. هللت عندما انطلقت صافرة النهاية، لكن أحدًا لم يأت ليري ماذا يحدث.

لم يصفع الباب ولو أبسط صفقة. رأيت عبر الزجاج، وقف ينتظر، ثم ذهب.

أعرف شيئًا: غدًا، أو بعد الغد، ستناديني ماما، وربما تنادي كلانا، وستقول: أنت رجل البيت الآن يا باتريك.

هكذا تحدث هذه الأشياء دومًا.

- بادي كلارك كرنب زبادي

ماشي لوحده معندوش دادي

ها ها ها

لم أهتم بما يقولون، إنهم بضعة أطفال.

جاء في اليوم الذي سبق عشية الكريسماس، جاء ليزورنا. رأيتُه عبر زجاج الباب مرة أخرى. كان يرتدي معطفًا أسود. أذكر رائحة المعطف عندما رأيتُه وهو مبتل. فتحت الباب. ظلَّت ماما في المطبخ، كانت مشغولة.

رأني.

قال: باتريك.

حرك الحزمة التي كان يحملها تحت ذراعه ومد يده إلى الأمام.

قال: كيف حالك؟

مدَّ يده إليّ، لأصافحه.

كرر: كيف حالك؟

شعرت بيده باردة وضخمة، جافة وقوية.

- بخير حالٍ، شكرًا لك.

مكتبة

t.me/soramnqraa

نبذة عن المؤلف

رودي دويل Roddy Doyle

روائي وكاتب سيناريو أيرلندي، وُلد في العاصمة دبلن عام 1958، تحوّلت العديد من رواياته إلى أفلام ناجحة، وحصل على جائزة البوكر الدولية عن روايته (بادي كلارك هاهاها) عام 1993.

نبذة عن المترجم

محمد أ. جمال

روائي ومترجم مصري وُلد عام 1992، صدرت له روايتان وعدة ترجمات عن اللغة الإنجليزية، منها (البطل بألف - وجه جوزيف كامبل) و(إفطار الأبطال - كورت فونيجت) و(أساطير إسكندنافية - نيل جايمان).

telegram @soramnqraa

بادي كلارك هاهاها

في روايته الحائزة على جائزة البوكر الدولية عام ١٩٩٣، يحكي لنا المؤلف رودني دويل من خلال كلمات وأعين بطله ذي الأعوام التسعة (بادي كلارك)، عن ضواحي مدينة دبلن في الستينيات، وعن مغامرات الصبية في الشوارع الخلفية بين بيوت الضواحي الجديدة التي تبنيتها الشركة. يحكي لنا عن ملل فصول المدرسة وحماس اللعب في الشوارع ودراما العلاقات الأسرية وصراعات السلطة بين الأصدقاء المستترة في شكل ألعاب طفولية. (بادي كلارك هاهاها) رواية غير تقليدية، مرحة أحياناً وتراجيدية أحياناً وغير تقليدية طوال الوقت، تصور الطفولة بعين دقيقة وإحكام بالغ، حتى تكاد تحسب مؤلفها في التاسعة من عمره حقاً، لكنّها مع ذلك ليست رواية أطفال بالمرّة، فالواقع الذي يفصح عن نفسه بين سطورها فيه كل قسوة الحياة التي يعاني منها الجميع، كبار وصغار.

